لطفي عبد الوهاب يحيى
دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة لندن
أستاذ تاريخ الحضارة القديمة في جامعة الاسكندرية
وجامعة بيروت العربية

دراسات في العصر الهلنستي

أبعاد العصر الهلنستي
دولة البطالمة في مصر

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

القسم الأول

عصر جديد و حضارة جديدة

الباب الأول

حول بدايات عصر جديد

١ — العصر الجديد والتقاء حضارتي الشرق والغرب

فى بعض مراحل التطور الحضارى يظهر على مسرح التاريخ شخص يستطيع ، أكثر من غيره ، أن يعبر بعمله الذى يعكس إرادته أو شخصيته ، عن اتجاهات هذا التطور واحتياجاته . وفى هذه الحال يكون ظهور مثل هذا الشخص ، سواء أكان رجل سياسة أو رجل حرب أو فكر ، أو كانت له صفة أخرى غير هذه الصفات ، إيذانا ببدء عصر جديد أو شوط جديد من أشواط الرحلة الحضارية الإنسانية .

وقد عرفت مصر فى شخص الاسكندر المقدونى واحدا من الذين ينطبق عليهم هذا الوصف حين دخلها فى ٣٣٢ ق.م. ليضع نهاية للحكم الفارسى فيها ويضع مصر بذلك على أبواب مرحلة حضارية جديدة [١] . والواقع أن مصر لم تكن المكان الوحيد الذى قدر له أن يشهد هذا الانتقال الحضارى فى تلك الفترة ، فإن الاسكندر ، حين انطلق قبل

---

(١) هذه هى الفترة الثانية من الحكم الفارسى فى مصر، وقد امتدت من ٣٤١ ق. م. إلى دخول الاسكندر مصر ، وكانت الفترة الاولى من هذا الحكم بين ٥٢٥ و ٤٠٥ ق. م. راجع :
نجيب ميخائيل ابراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم (ج٢، ط٦) صفحات ٣٨٨- ٤٠٠ و ٤٠٨- ٤١٠ قارن : Drioton & Vandier: Les Peuples de l'Orient Méditerranéen, II (L'Egypte) ,pp. 600-605 ,612-14
اللذين ينهيا الفترة الأولى عند ٤٠٥ ق.م .

ذلك بعامين على رأس قواته من المقدونيين واليونان عبر حدود العالم اليونانى متجها نحو الشرق فى صدامه الكبير مع الامبراطورية الفارسية كان يطوى فى حقيقة الأمر نهاية عصر ويخطو نحو عصر جديد له ملامحه الخاصة وقوامه الحضارى المتميز .

لقد كانت المنطقة التى أصبحت مسرحا لنشاط الاسكندر تمثل قبل ظهوره عالمين مختلفين : أحدهما شرقى فى نظمه ومعتقداته وقيمه ونظرته للحياة بوجه عام ، ويضم أغلب المناطق الآسيوية والإفريقية المتاخمة للبحر المتوسط وامتداداتها نحو الشرق ، والآخر غربى يختلف عنه اختلافا بينا فى كل هذه الاشياء ، وهو الجزر وأشباه الجزر الأوروبية التى تضم مقدونية وبلاد اليونان إلى جانب المدن اليونانية الواقعة على الشريط الساحلى الغربى لشبه جزيرة آسيه الصغرى .

ولكن نشاط الاسكندر العسكرى والسياسى شكل همزة وصل بين هذين العالمين المتباينين . وكان العامل الأساسى فى هذا المجال هو أنه استطاع أن يحقق السيطرة الفعلية على المنطقة التى تجمع بينهما بحيث توفرت إمكانية اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب . فالاسكندر قد خلف أباه فيليب فى زعامة الحلف اليونانى الذى تكون فى ٣٣٨ ق. م. والذى كان فى حقيقة الامر أداة لسيطرة مقدونية على المدن اليونانية والتدخل فى شئونها ، وإن لم يكن كذلك من الناحية الرسمية . غير أن الاسكندر لم يكتف بهذه الزعامة أو السيطرة التى ورثها عن أبيه ثم وطدها بالفيالق المقدونية حين أرادت بعض هذه المدن أن تظهر تذمرها وتتمرد على هذا الحلف . وإنما نجده يرمى ببصره عبر الحدود التى توقف عندها

النشاط السياسى والعسكرى لفيليب ، وعبر النطاق التقليـدى الذى عرفه اليونان فى المجال الدولى منذ أن أصبح لليونان سياسة خارجية دولية فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس ق . م . وهكذا يقدم ، وهو بعد فى العشرين بجد عمره ، على مغامرة عسكرية قـــدر لها أن تنتهى بسيطرته ، إلى جانب بلاد اليونان ، على المنطقـة التى تضم أغلب آسيه الصغرى وسورية ومصر ثم تمتـد شرقا حتى شواطىء المحيط الهندى ـ وهى المنطقة التى كانت تشمل أملاك الامبراطور الفارسى .

* * *

وقد كان اتجاه الاسكندر ، ومن ثم اتجاه المرحلة الحضارية التى افتتحها ، نحو الشرق أمرا طبيعياً ، إذا أدخلنا فى اعتبارنا أن التوجيه الجغرافى لبلاد اليونان كان نحو الشرق . فبحر ايجه الذى يفصل بين شبه جزيرة البلقان من جانب وبين شبه جزيرة آسيه الصغرى من جانب آخر ينتشر فيه عدد كبير من الجزر التى تجعل من السهل الاتصال المستمر بين الشاطئين الأوروبى والآسيوى ، والتعاريج الكثيرة التى تتميز بها سواحله تشكل موانىء طبيعية من الطراز الأول تجعل التنقل البحرى بين هذه السواحل أمرا ميسورا ، هذا إلى جانب هدوء هذا البحر الذى تحده اليابسة من ثلاث جهات فى الغرب والشمال والشرق لتجعل منه فى حقيقة الأمر خليجاً كبيراً .

وقد أدى هـــذا إلى اتجاه اليونان شرقاً منذ أن أصبح لهم نشاط خارجى اقتصادى أو سياسى . فالهجرات اليونانية كانت على أكثفها على السواحل الغربية لآسيه الصغرى ، كما عرفت أعداد لابأس بها منهم

الاستقرار فى مصر منذ عهد الأسرة السادسة والعشرين (*) ، كذلك اتجهت بلاد اليونان فى تغطية حاجتها من الحبوب إلى شواطىء القسم الشرقى للبحر المتوسط أو المناطق المتاخمة لها ، سواء فى مصر أو فى سورية أو فى المناطق المطلة على البحر الأسود . فاذا تركنا المجال الاقتصادى إلى المجال السياسى وجدنا أول احتكاك لبلاد اليونان مع القوات السياسية الكبيرة يتم فى هذه المنطقة أثناء الثورة الايونية ثم أثناء الحروب الفارسية (فى العقود الاولى من القرن الخامس ق . م) التى وضعت بلاد اليونان لأول مرة فى تاريخها ، موضع الاشتراك الفعلى فى تيارات السياسة الدولية .

وقد ساعد على هذا الاتجاه الشرقى عند اليونان عامل آخر . هذا العامل هو وجود قوة فى القسم الغربى للبحر المتوسط كانت قد اتخذت منه مجالا لنشاطها التجارى والسياسى . هذه القوة هى قرطاجة التى أسسها المهاجرون الفينيقيون على الشاطىء الافريقى (مكان تونس الحالية) والتى استطاعت أن تفرض نفوذها الاقتصادى وزعامتها السياسية على بقية المدن التى أقامها المهاجرون الفينيقيون فى المنطقة . وقد كان وجود هذه السيادة القرطاجية وبخاصة فى المجال التجارى ، فى القسم الغربى للبحر المتوسط عاملا أدى ، دون شك إلى تأكيد اتجاه اليونان فى نشاطهم نحو الشرق - وهو الاتجاه

(*) عن الاغريق فى مصر راجع :

Drioton & Vandier ; op. cit., pp. 581-4, 594.

الذى وجده الاسكندر طبيعياً حين قام بحملته ضد الامبراطور الفارسى (٢) .

(٢) هذا لا يعنى أن اليونان لم يكن لهم نشاط فى القسم الغربى من البحر المتوسط إطلاقا . فقد كان لليونان نشاط تجارى واستعمارى (استيطانى) فى هذه المنطقة . بل لقد تفوقوا على منافسيهم من الفينيقيين والا تروريين فى هذين المجالين حتى أواسط القرن السادس ق. م وكان هذا التفوق يرجع إلى ثلاثة أسباب: التفوق العددى عند اليونان ثم قرب بلاد اليونان من مجال هذين النوعين من النشاط فى القسم الغربى للبحر المتوسط (وقد كانت هذه ميزة على منافسيهم من الفينيقيين الذين كانت نقطة انطلاقهم هى الساحل السورى) ، أما السبب الثالث فهو عدم تعرضهم، نتيجة لموقعهم ، للضغط العسكرى الذى تعرض له سكان الساحل السورى من جانب الآشوريين ثم البابليين بين القرنين التاسع والسادس ق . م .

ولكن الوضع سينعكس فى خلال القرن السادس ق. م فالمستعمرات أو المدن التى أقامها الفينيقيون فى القسم الغربى للبحر المتوسط (فى غربى صقلية وجنوبى أسبانية وشمال غربى إفريقية) ستتحد تحت زعامة قرطاجة ، وبخاصة من الناحية العسكريه ، للوقوف فى وجه التوسع اليونانى . كذلك فإن سقوط الامبراطورية البابلية فى٥٣٨ ق م. أمام قورش، مؤسس الامبراطورية الفارسية، قدحرر المدن الفينيقيه الأم (الواقعة على الساحل السورى) إلى حد كبير إذاتجه الفرس إلى إعطاء علاقتهم بهذه المدن طابع التحالف فتركوا لها مجال تقوية نفسها إلى حد لم تكن تعرفه من قبل . وقد كان من نتيجة هذا الوضع الفريد الذى تمتعت به هذه المدن أن انفتحت أمامها طرق التجارة إلى أواسط آسية كما أصبحت تحظى بنوع من الاستقرار الذى يعتمد على التدعيم العسكرى والسياسى الاقتصادى من جانب الامبراطورية الفارسية ـ وقد انعكس هذا الوضع القوى بطبيعة الحال على المدن الفينيقية فى القسم الغربى للبحر المتوسط، فالعلاقة كانت متصلة بشكل دائم بين الفينيقيين فى موطنهم الأصلى وفى مهجرهم الغربى وأخيرا فقد ساعد على توقف الاتجاه اليونانى نحو الغرب التحالف الذى عقده الفينيقيون الغربيون تحت زعامة قرطاجه مع الاترورريين ضد اليونان .

راجع :

Arnlod Toynbee : Hellenism , the History of a Civilization

صفحات ٦٠ ـ ٦٣ .

هذا الاتجاه الشرقى الذى سيطر على تكوين امبراطورية الاسكندر سيكون مقدمه طبيعية لانتقال مركز الثقل السياسى إلى البحر المتوسط ، وهو المكان المتوسط الذى يربط امبراطورية الاسكندر فى الشرق بمنطقة نفوذه فى بلاد اليونان . وسيتأكد هذا المركز الجديد للثقل السياسى بعد موت الاسكندر ، فالصراع الذى سيقوم بين قواده حول اقتسام امبراطوريته سيقوم فى هذه المنطقة والمعارك الرئيسية التى ستحسم هذا الصراع ستتم هناك . وفى هذه المنطقة ، بعد أن ينتهى الصراع ، ستقوم الدول التى يؤسسها هؤلاء القواد على انقاض امبراطورية الاسكندرية فى مصر وسورية وآسية الصغرى ومقدونية .

وسيكون انتقال مركز النشاط السياسى إلى هذه المنطقة مقدمة لانتقال ما تبقى من الحضارة اليونانية إليها ، وبخاصة بعد أن انتقلت إلى هذه المناطق موجات كبيرة العدد من اليونان ؛ سواء منهم الذين كانوا جنودا تحت إمرة الاسكندر أو الذين هاجروا فى أعقاب فتوحه ممن وجدوا فى هذه الممالك الجديده مجالا حيويا وحياة جديدة فيها من الفرص ماأصبحوا يفتقدونه فى بلادهم الأصلية . وطبيعى أن ينتقل مع هؤلاء اليونان المهاجرين ما عرفوه من عادات وتقاليد وعبادات وثقافة وخبرات ، لكى يصبح كل ذلك أحد التيارين (الشرقى والغربى) اللذين قامت نتيجة لالتقائهما حضارة العصر الجديد .

٢ ـ اللقاء الحضارى قبل هذا العصر

العصر الذى افتتحه الاسكندر ، إذن ، كان عصر لقاء بين حضارة الشرق ، ممثلة فى مصر وفى بقية المناطق التى كانت فى العقود الأخيرة من القرن الرابع ق . م تشكل ولايات الإمبراطورية الفارسية من جانب ،

وحضارة الغرب ممثلة فى بلاد اليونان أساسا (ومقدونية التى كانت تتبع الحضارة اليونانية) من جانب آخر . على أن هذا لايعنى بأية حال أن أجزاء المنطقة التى نحن بصدد الحديث عنها لم تكن على اتصال ببعضها ، أو أن النشاط الحضارى لم يتردد بينها قبل قيام امبراطورية الاسكندر ، فالأمثلة كثيرة على هذا الاتصال الذى قام فى اكثر من اتجاه وشمل اكثر من جانب وتم على اكثر من مستوى .

ولعل فى ذكر بعض الامثلة فى هذا المجال مايعطينا فكرة سريعة عن هذه الظاهرة . فالمصريون مثلا عرفوا شواطىء هذه المنطقة فى اكثر من فترة من فترات تاريخهم المبكر وبخاصة فى عهد الامبراطورية ، ففى ميدان السياسة نجد أنهم مدوا نفوذهم الى سورية وفلسطين ودفعوا هذا النفوذ فى الاسرة الثامنة عشرة إلى جزر بحر إيجه التى أقام تحتمس الثالث أحد قواده حاكما عليها . وفى مجال الاقتصاد تظهر لنا الرسوم الحائطية التى ترجع الى عهد هذه الاسرة النشاط التجارى بين الشواطىء المصرية واليونانية . وفى مجال الفن نجد الاثر المصرى ظاهرا بشكل واضح فى المراحل الاولى التى مر بها الفن الاغريقى ، قبل ان يتطور وتتكامل شخصيته ، من مراحل عمارة الأعمدة والأبهاء - التى ابتدأت عند المصريين منذ الألف الثالثة ق م - بما فيها من قنوات طولية انتقلت الى بلاد اليونان وظهرت أول ماظهرت فى أعمدة الطراز الدورى التى تشبه شبها تاما الاعمدة المصرية المبكرة . وفى النماذج الاولى التى وصلت الينا من فن النحت اليونانى نجد النقل عن النحت المصرى يكاد يكون تاما ، فالتماثيل اليونانية المبكرة تظهر فيها نفس الصلابة التى فى نظائرها المصرية ، كما تظهر

فيها نفس الاوضاع بالنسبة لأعضاء الجسم ، فالاذرع ملاصقة لجانبي الجسم ، والأيدى مقبوضة والقدم اليسرى تتقدم اليمنى والنظرة متجهة الى الامام. كذلك فى عالم الموسيقى نجد الناى المصرى ينتقل فى عصر مبكر الى جزيرة كريت ، ثم الى بلاد اليونان التى تطور فيها ليصل فى عصر الطغاة الى مستوى رفيع من الابداع الفنى (٣) .

والأثر المصرى لايقتصر على هذه النواحى بل يمتد الى جانب العقائد . فنحن نجد عبادة آمون مثلا تنتشر خارج مصر وبخاصة بين اليونان ، سواء منهم المقيمون ببلاد اليونان الاصلية أو الذين اقاموا فى مهاجرهم على شواطىء البحر المتوسط المختلفة ، فقد أصبح امون الها ابرقة كما يظهر لنا من نقوش العملة التى سكت فى هذه المنطقة فى الفترة السابقة لعصر الاسكندر . كذلك نجد لهذا الاله مكانته فى أثينة التى عرفت عبادته قبل ٣٧١ - ٣٧٠ ق م. وكان له بها معبد قبل ٣٣٣-٣٣٢ ق م. ومما يدل على هذه المكانة أننا نجد عددا من كبار الشخصيات اليونانية يتقدمون لاستشارة عرافيه فى أزمات ومواقف هامة فى جوانب حياتهم المختلفة ، ففى أحدى محاورات أفلاطون يحكى سقراط عما سمعه

---

(٣) عن السياسة راجع : J. H. Breasted : History of the Ancient Times, pp. 107-8

عن الفن راجع : Ibid., op.cit., pp 369 - 73 ، أنظر كذلك الصور المقارنة للاعمدة والتماثيل على صفحتى ٣٧١ و٣٧٣

عن التجارة أنظر: هوميروس،الأوذيسية، النشيد الرابع ، سطر ١٣٠ ومابعده

كذلك A. Lang : The world of Homer, p.19 .

عن الحرب بين أثينة واسبرطة من أن الاثينيين ذهبوا الى عراف آمون ليسألوه عن السبب فى خسائرهم المتتالية فى هذه الحرب ، كما يذكر لنا أنهم وضعوا هذا العراف فى مصاف أولئك الذين كانوا فى دلفى Delphi ودودونه Dodona ، وهى أماكن لها قدسيتها الكبيرة فى بلاد اليونان .(٤)

* * *

ولم تكن مصر وحدها هى الجهة التى انتقلت منها هذه المؤثرات الحضارية الى بقية المناطق المحدقة بالقسم الشرقى للبحر المتوسط ، فالفينيقيون الذين أستوطنوا الساحل السورى قاموا بدورهم كذلك فى هذا المجال . وهنا نجد أشعار الاوذيسية تظهرهم لنا وهم يبيعون الجوهرات لنساء اليونان و « الخيطون » أو الجلباب لرجالهم . وقد أقتبس اليونان هذا النوع من الملبس فى آخر عهد بداوتهم بعد أن كانوا لايعرفون سوى رداء خشن مصنوع من جلد الأغنام ، كما أطلقوا على الرداء الجديد نفس الاسم الذى عرف به عند الفينيقيين ولم تكن هذه السلع هى كل ما نقله الفينيقيون الى بلاد اليونان منذ أن بدأت أساطيلهم التجارية تغزو القسم الشرقى للبحر المتوسط حوالى ١٠٠٠ ق.م . بعد أن اختفت منه سفن مصر فى أعقاب انهيار الامبراطورية المصرية بعد ١٢٠٠ ق.م . فقد أنتقل معهم الى بلاد اليونان الفن الزخرفى المكون من مقومات مصرية أو سورية مثل أفرع النخيل وأزهار اللوتس ومناظر الصيد على النيل ، ومثل شجرة الحياة التى عرفت فى الرسوم الآشورية،

---

(٤) Plato ; Nomoi, 738 c, Aikib. II, 148 E- 149 B.

ارستوفانيس : الطيور ، سطور ٦١٩ ، ٧١٦

والمخلوقات الخيالية التى تفتق عنها الخيال الشرقى والتى تمزج بين الانسان والحيوان كأبى الهول والحصان ذى الأجنحة وغيرها ـ وكلها مقومات انتقلت الى الشواطىء الاوربية لتترك بعد ذلك فى عالم الفن الزخرفى فى اليونان ، ثم الغربى عموما ، طابعا لايزال واضحا حتى اليوم . كذلك انتقلت الى بلاد اليونان عن طريق الفينيقيين حروف الهجاء التى اقتبسها هؤلاء عن الهيروغلوفية المصرية مع من اقتبسها من الشعوب السامية حول ١٨٠٠ - ١٦٠٠ ق.م. (٥)

* * *

وغير المصريين والفينيقيين نجد شعبا ثالثا من شعوب هذه المنطقة يقوم بنشاط تجارى وحضارى بين شواطئها الثلاثة . فاليونان جابوا بقوافلهم التجارية أرجاء القسم الشرقى للبحر المتوسط بعد أن ورثوا فن الملاحة والتجارة عن الفينيقيين ، كما عرفت الاجزاء المختلفة لهذه المنطقة اكثر من موجة من موجات هجراتهم . وهكذا ظهر على الساحل الغربى لشبه جزيرة آسيه الصغرى عدد من المدن التى أسسها هؤلاء المهاجرون على نسق المدن اليونانية فى بلاد اليونان الأصلية ونقلوا اليها نظم تلك المدن وتقاليدها وعقائدها وثقافتها . وقد عرفت الموجات المتأخرة من

---

(٥) عن التجارة أنظر هوميروس : الالياذة ، نشيد ٢٣ ، سطر ٧٤٣ ومابعده

عن الفن راجع : Breasted : op. cit., p.19

عن الحروف الهجائية راجع نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٣ ، ط ٢ ، صفحات ٥٥ - ٥٨

هذه الهجرات الاراضى المصرية ولقيت تشجيعا من الفراعنة ، لسبب أو لآخر ، منذ أيام الأسرة السادسة والعشرين ، بل لقد أقام اليونان فى مصر ، قبل عهد الاسكندر ، مدينة نقراطيس (نقراش) ليعيشوا فيها على نمط الحياة التى عرفوها فى بلاد اليونان .(٦)

كذلك شهدت هذه المنطقة احتكاكات عسكرية وسياسية بين الامبراطورية الفارسية التى احدقت حدودها بشواطىء القسم الشرقى للبحر المتوسط (ومن بينها مصر التى دخلت فى دائرة هذه الامبراطورية فى فترة من الزمن) وبين المدن اليونانية الواقعة على ساحل آسية الصغرى والتى تعرضت بين الحين والحين لضغط الحكام الفارسيين لولايات شبه الجزيرة . كما قامت الحروب الميدية بين فارس وبلاد اليونان مدة عشر سنوات أعقبتها فترة طويلة امتدت عبر القرن الخامس وشطر من القرن الرابع ق م. عرفت فيها بلاد اليونان أنواعا من التدخل المباشر وغير المباشر من قبل الملك الفارسى فى العلاقات بين المدن اليونانية ، تمثلت فى مساعدته لمدينة ضد أخرى وتدخله ليفض المنازعات التى تثور بينها فى بعض الاحيان ، بعد أن يحدد جانبا على الاقل من شروط الصلح أو السلام ، كما حدث فى حالة سلم أنتلكيداس الذى عقد بين المدن اليونانية المتحاربة فى ٣٨٧-٦ ق.م. والذى اشتهر بسلم الملك إشارة الى أن الملك الفارسى كان القوة الموجهة فى الوصول اليه واقراره وفرضه بطريقة أو بأخرى على بلاد اليونان .(٧)

---

(٦) J. B. Bury : A History of Greece (3rd, ed.) pp. 86-120
Drioton & Vandier : Op cit., pp. 5871—4.

(٧) Bury;, op,cit , p. 552

واذن فقد كان هناك التقاء بين حضارات المناطق المطلة على شرق البحر المتوسط قبل مجيء الاسكندر بوقت طويل . ولكنه لم يصل الى الدرجة التى تؤدى إلى قدر ملموس ومستمر من الترابط ، أو حتى من التقارب ، وانما ظل مجرد التقاء تتسرب عن طريقه بعض التفاصيل الحضارية من جهة الى جهة وتنقل عنده منطقة عن منطقة أخرى جانبا من تجارة أو عقيدة أو فن أو ثقافة أو صناعة أو غير ذلك ، ولكنه ،كما ذكرت ، لايعدو هذا التسرب الحضارى بحال من الأحوال ليصل الى درجة الترابط أو التقارب فى النظرة الى القيم السياسية والاجتماعية والحضارية . فالأثر المصرى الذى ظهر فى بلاد اليونان مثلا اذا كان قد ترك فيها طابعا معينا فى مجالات الموسيقى أو النحت أو العمارة أو اضاف الى آلهتها إلها جديدا، فانه لم ينقل اليها نظرة المصرى الى حياته اليومية او العائلية أو فكرته عن الثواب والعقاب أو تقديسه للحاكم ووضعه فى مصاف الآلهة .

واليونان اذا كانوا قد هاجروا الى شواطىء آسية أو الى مصر ، فقد تبلور استيطانهم فى هذه المناطق على هيئة مدن يونانية يسكنها اليونان ويمارسون فيها حياة يونانية ، دون أن يتعدى ذلك الى الخروج بقيمهم الجماعية أو الفردية عبر حدود هذه المدن ليمزجوا بينها وبين القيم التى عرفها سكان المناطق التى هاجروا اليها والتى أصبحت تحيط بمدنهم . والفرس اذا كانوا قد اشتبكوا مع اليونان فى حرب امتدت عشر سنوات، وإذا كان أباطرتهم قد تدخلوا فى تصريف العلاقات السياسية والعسكرية بين المدن اليونانية فى اكثر من مناسبة طوال قرن ونصف تقريبا ، فان هذه الصلة الطويلة لم تصل يوما للدرجة التى تصبح معها نقطة تقارب

بين النظام السياسى أو الاجتماعى عند كل من الطـرفين . حقيقة عرف اليونان شيئا عن النظام السياسى الفارسى عن طريق هذا الالتقاء وكتب عنها وعلق عليه ادباؤهم وكتـــابهم ومفكروهم من أمثال ايسخلوس وكسونوفون وأرسطو وقارنوا بينـه وبين نظمهم السياسية ، ولـكنهم لم يتبنوا هذا النظام أو يعتنقوه أو يدمجوا فى نظمهم جزءا منه ، بل ظلوا دائما ينظرون اليه على أنه نظام لايليق بهم ولايتفـــق مع عقليتهم أو اتجاهم أو القيم التى تسيطر على حياتهم(*).

كان هذا قبل مجىء الاسكندر . ولـكن السنوات الإحدى عشر التى قضاها هذا الفاتح الشاب فى تـكوين امبراطوريته كانت نقطة تحول كبيرة فى تاريخ المنطقة التى نحن بصدد الحديث عنها ، فقـــد أفسحت الطريق أمام قدر من المزج لم تصل إليه أو تقـــاربه من قبل بين الجوانب الشرقية والغربية من الحضارات التى ظهرت فيها . وقد كان هذا القدر هو الاساس الذى قامت عليه حضارة العهد الجديد .

٣ ـ تعريف العصر الجديد وطبيعته

العصر الذى افتتحه الاسكندر ، إذن ،كان عصر انفتاح بين الشرق والغرب ، توفرت فيه فرص التداخل بين المقومات الحضارية التى ينطوى عليها كل من الجانبين أو بين ردود فعل هذه المقومات على أقل تقدير ، بحيث كان كل من الشرق والغرب ممثلا بطريقة أو بأخرى وقد تعارف

(*) انظر على سبيل المثال مسرحية Persae التى نجد فيها الشاعر المسرحى اليونانى ايسخلوس Aeschylos ينعت الفرس بالبربرية مرة (سطر ٢٥٨) ويقارن فيها مره أخرى بين الفرس الذين يخضعون لحاكم له السيادة والسيطرة واليونان الذين « لايستطيع إنسان أن يصفهم بأنهم عبيد أو رعايا لاحد » (سطور ٢٤٣-٢٤٤) وقد ظهرت هذه المسرحية التى قامت بين الفرس واليونان بين ٣٩٠-٤٨٠ق.م.

الغربيون على تسمية هذا العصر الجديد الذى تداخلت فيه العناصر الحضاريه الشرقية والغربية لتشكل حضارة من نوع جديد باسم «العصر الهلنستى» ، وهى تسمية أطلقها المؤرخ الألمانى يوهان درويسن Johann Droysen فى أواخر النصف الأول من القرن الماضى ليميز بها الحضارة الجديدة عن الحضارة اليونانية أوالإغريقية الكلاسيكية التى عاصر العالم المتحضر مرحلة نضجها فى القرنين الخامس والرابع ق. م. - والتى عرفت باسم الحضارة الهلينية - على أساس أن الحضارة الجديدة منتسبة لهذه الحضارة السابقة أو متأثرة بها ، كما تدل على ذلك نهاية كلمة هلنستى (Hellenistic, Héllénistique, Hellenistisch)التى تشير إلى الانتساب أو التأثر . (٨)

وكنت قد رأيت فى دراسة سابقة أن أشتق لفظا عربيا يفيد هذا الوصف ، فاخترت تسمية « متأعزق » لوصف العصر الجديد » و « متأغرقة » لوصف الحضارة التى سادت فيه والتى انتسبت إلى الحضارة الإغريقية الكلاسيكية وتاثرت بها ، وعلى وجة الخصوص بالجانب الثقافى منها ، كذلك كنت قد اتخذت لهذه التسمية مرادفا هو « العصر السكندرى » و « الحضارة السكندرية » على أساس أن الاسكندرية أصبحت منذ أوائل عصر البطالمة ، بما ظهر فيها من اتجاهات حضارية ، علما على عصر بأكمله ، له حضارته المميزة سواء تمثلت فى علومه أو أدبه أو فنه أو ثقافته بوجه عام .(٩)

---

(٨) ظهرت دراسة درويسن تحت عنوانGeschichte des Hellenismus وقد كان ظهور الجزء الأول منها فى عام ١٨٣٦ والثانى فى ١٨٣٣ .

(٩) لطفى عبد الوهاب يحى : مقدمة لحضارة الاسكندرية (الطبعة الثانية ١٩٥٩) صفحات ٥و١٣ و ١٤ .

وأود الآن أن أضيف إلى ماذكرت كلمة أو كلمتين فى ضوء بعض الاعتبارات التى جدت أو التى تراءت لى منذ أن أقدمت على هذا التعريف وأول هذه الاعتبارات شكلى ويتعلق بتسمية « هلنستى » المتعارف عليها بين الكتاب العرب هنا حتى الآن . واللفظة ، كما هو واضح ، صورة منقولة عن التسمية الأوروبية ، وتعليل استخدامها هو أنها قد تحولت إلى اصطلاح يمكن استخدامه كما هو دون تعديل . ولكنى أرى أنه إذا كان جذر هذه اللفظة يونانيا ويشكل اسم جنس بحيث يجوز لنا أن ننقله إلى العربية كما هو إذا أردنا ، فإن نهاية الكلمة ليست اسم جنس وإنما صورة نسبة فى اللغات الأوربية الحديثة (فيما عدا حرف الياء الذى يدل على النسبة فى اللغة العربية) ، بحيث يصبح القسم الأول من لفظة « هلنستى » يونانيا وقسمها الثانى أوروبيا حديثا (دون سبب يدعو إلى ذلك) ونهايتها عربية . وربما كان من قبيل التساهل فى إبقاء المتعارف عليه أن نترك هذه التسمية كما هى ، وفى رأيى أن تسمية « متأغرق » ، وهى المرادف العربى الحرفى للكلمة الاوروبية التى نحتها أو استحدثها المؤرخ درويسن ، أقرب إلى إرضاء المتثبت بالصورة العربية الكاملة كلما كان ذلك ممكنا .

والاعتبار الثانى يدور حول المفاضلة بين تسمية « متأغرق » وتسمية « سكندرى » فى وصف العصر الذى نحن بصدد الحديث عنه . وقد ظهر فى السنوات الأخيرة رأى مؤداه أن تسمية « متأغرق » تسمية غير دقيقة علميا . والرأى يقوم من ناحية على أساس أن الاغريق فى العصر الجديد (وهو عصر التداخل بين حضارتى الشرق والغرب) تأثروا

بالحضارة الشرقية أو « استشرقوا » ، أكثر مما تأثر الشرقيون بالحضارة الإغريقية أو « تأغرقوا » ، ومن ناحية أخرى على أساس أن الحضارة الإغريقية ، بمفهومها الكلاسيكى ، كانت قد أخذت فى الذبول ، فاختفى أبرز مظاهرها ، وهو نظام دولة المدينة ، وأصبحت هناك ممالك واسعة يسيطر عليها ملوك ليسوا من الإغريق أصلا ، وإنما من المقدونيين الذين أخذوا بقسط من الحضارة الإغريقية » (١٠) . أما الشق الثانى فهو أن تسمية « سكندرى » هى التسمية الدقيقة لهذا العصر على أساس أن الاسكندرية أصبحت مركز الثقل السياسى والاقتصادى والثقافى والفنى فى المنطقة التى انطبعت بالطابع الحضارى للعصر الجديد ، بعد أن أصبحت أكبر مراكز الالتقاء الحضارى بين الشرق والغرب . (١١)

* * *

وفيما يخص الشق الأول من هذا الرأى ، فلا أستطيع أن أنكر أن ظاهرة الاستشراق أو التأثر بالحضارة الشرقية فى المقام الأول كانت أمرا واردا فى العصر الجديد ، وهى ظاهرة تنبه إليها أكثر من مؤرخ ممن تناولوا بالبحث حضارة هذا العصر . ولكنها تقتصر على القسم الشرقى فحسب من المنطقة التى دخلت فى الدائرة الحضارية للعصر

---

(١٠) محمد عواد حسين : الاسكندرية عاصمة العالم الهلنستى (المحاضرة الرابعة عشرة من سلسلة المحاضرات العامة فى العام الجامعى ٦٣/١٩٦٤) ، ص ٦ .

(١١) محمد عواد حسين : نفس المرجع السابق ، ص ٩ - ٢٢

الجديد (١٢) . وهكذا ، إذا كانت مصر ، على سبيل المثال ، من المناطق التى تغلب فيها العنصر الحضارى الشرقى على العنصر الحضارى الإغريقى فان هذا لم يكن الحال فى المدن اليونانية فهذه المدن إذا كانت قد فقدت محورها الحضـــارى الذى قام على أساس من نظام دولة المدينة ، فانهـا لم تستبدل به نظاما شرقيا . والحقيقـة أن المنطقة التى انطبعت بالحضارة الجديدة واجهت تحديات العصر بصيغ أربعة اكتسبت كل منها أبعـادها حسب الظروف التى أحاطت بها .

وقد كانت الصيغة الأولى هى نظـام الدولة الكبيرة التى تقـوم على أساس من الفـكرة الشرقية التى تقترب بجهـاز الحـكم كثيرا من درجـة التقديس ، وترتفع بالحاكم الى مرتبة التـأليه أو ما يقترب من مرتبة التألية ، كما حدث فى مصر على سبيل المثال . والصيغة الثانية هى نظام الدوله الكبيرة التى تجمع بطريقة مابين مركزية الحكم وفردية الحاكم من جهة (وهو اتجاه إذا كان يمثل ما كان موجودا فى الشرق إلى حدما فإنه لم يكن شرقيا بالضرورة ، وإنما عرفه الغرب فى إحدى درجاته على

---

(١٢) راجع تعليقات المؤرخ Bell والمؤرخ Milne التى أوردها الدكتور عواد فى نفس المرجع ويلاحظ أنها تخص مصر بالذات . راجع كذلك ماذكرته المؤرخـة Claire Preaux فى مقـــالتها Les Egyptiens dans la Civilisation Hellénistipue d'Egypte (Chr. d'Egypte,xvll) pp. 148 - 60

وفيها تؤكد الأثر المتفوق للعناصر الثقافة المصرية على حضارة مصر فى العصر الذى نحن بصدد الحديث عنه (مقتبس فى : H. I. Bell : Eypt From Alexande. The Greatto the Arab Gonquest, p, 138,n.12

عهد الملكية الهومرية) وبين الاتجاه الشعبي الذى يتمثل فى إشتراك المواطنين فى تصريف بعض شئون الحكم من الجهة المقابلة ، ومقدونية هى مثالنا على ذلك . أما الصيغة الثالثة فهى نظام الاتحادات أو الجامعات (بالمفهوم السياسى لا الثقافى) التى قامت بين بعض المدن اليونانية فى محاولة من جانب هذه المدن لتحافظ على كيانها فى مجابهة الدول الكبيرة الصاعدة التى كانت تهدد هذا الكيان ، كما كان الحال مثلا فى جامعة المدن الآيتولية وجامعة المدن الآخية . والصيغة الرابعة هى المحاولات التى تمت فى عدد من المدن اليونانية لإضعاف أو القضاء على حدة النزعة الانفصالية والحواجز السياسية القديمة بينها والتى تجسدت فى صورة منح حقوق المواطنة من قبل مدينة لواحد أو أكثر من أبناء مدينة أخرى ، وهو إجراء كان يتسع فى بعض الأحيان ليتحول إلى مواطنة متبادلة يتمتع بها ، داخل حدود وشروط معينة ، كل المواطنين فى مدينتين تتفقان على ذلك - كما حدث مثلا حين أضفت أثينه حقوق المواطنة الأثينية على مواطنى بريينى Priene فى أوائل القرن الثالث ق م. ، وكما حدث بعد ذلك بين أثينه ورودس وبين مسينى Messene وفيجاليه Phygaleia وبين باروس Paros والاريه Allaria على سبيل المثال [١٣] .

---

(١٣) عن النظرية التى قامت عليها الصيغة الأولى (الملكية الشرقية) راجع :

C.W. Mc Ewan : The Orriental Origin of Hellenistic Kingship, (Studies in Ancient Oriental Civilization, XIII, Chicago, The Oriental Institute =

هذه هى الصيغ السياسية والحضارية الأساسية التى واجهت بها المنطقة التى انسحب عليها وصف الحضارة الجديدة تحديات العصر . وإلى جانبها وجدت صيغ أخرى لم تتمثل فى نظام سياسى محدد ، وإنما ظهرت فى أشــكال أخرى من بينها الاتفاقات التى كانت تقوم بين المدن اليونانية وبين ملوك الدول التى ظهرت على أثر تقسيم إمبراطورية الاسكندر على إعتبار منطقة ما منطقة مقدسة أو منطقة حراما asyla بحيث لا تجوز مهاجمتها أو إعلان

=

of Chicago, 1934)

Henri Frankfort : Kingship and the Gods (Chicago, 1948).

T S. Gaster ; Divine Kingship in the Ancient Near East (A Review of Religions, IX, 1944 — 5) pp. 267—281

عن التقاء الفكرة الشعبية مع النظرية الفردية فى الصيغة الثانية (مقدونية) راجع :

Geyer : Makedonia (Real -- Encyclopaedie der Class. Altertumswissenschaft, XIV) 712, 769—70

Tarn ; Cambridge Ancient History, VII. 201-2, 751

Julius Kaerst: Gesch. des Hellenismus, I, 181— 9

عن الصيغ الثلاثة الأولى راجع :

M.Hammond: City-State and World State, pp. 28-38

عن الصيغ كلها مندمجة فى ثلاث صيغ راجع :

W.W. Tarn (& G.T. Griffith). Hellenistic Civilisation (3rd. ed.), pp. 47-125

الحرب عليها . وقد كانت أولى المدن التى استفادت من هذا الوضع مدينة سمورنه Smyrna (حوالى ٢٤٠ ق.م) وتبعتها فى ذلك ماجنيسية Magnesia والابانده Alabanda وسيليتوس Miletos وخلقدون Chalkedon ومدن أخرى غيرها .(١٤)

وظاهر من كل هذا أن العصر الجديد إذا كان الاتجاه الشرقى قد مثل جزءا من حضارته أكد وجوده وتفوقه فى الملكيات التى قامت على شواطىء القسم الشرقى للبحر المتوسط ، فإن العنصر الغربى كان لا يزال سائدا فى بقية المنطقة بحيث يصبح اتجاه الاستشراف فيها أمرا غير وارد . ومن هنا تصبح القضية التى تخص المنطقة التى أنطبعت بحضارة العصر الجديد ليست قضية تغلب للمقومات الشرقية أو للمقومات الاغريقية بوجه عام ، فقد رأينا أن تغلب هذه أو تلك مرتبط بالظروف التاريخية والحضارية التى مر بها كل قسم فى أقسام المنطقة .

ولكن مع ذلك فقد كان هناك طابع مشترك بين كل هذه الأقسام فى المنطقة كلها . هذا الطابع هو انفتاح هذه الأقسام على بعضها وزوال أو

---

(١٤) Tarn (& Griffith) : op. cit., 82 - 4

على أن وجود هذه الطرق والصيغ المختلفة لا يعنى أن كل المدن اليونانية أعتنقت بالضرورة واحدة أو أخرى منها ، فقد ظلت هناك بعض المدن التى لم تحاول أن تنخرط فى أى من هذه الصيغ ، وإنما واجهت التحدى الجديد ، الذى مثلته القوى الكبيرة الصاعدة الطامعة فى السيطرة، بجمودها على ما كانت عليه من نزعة انفصالية وبشلل سياسى وحضارى أدى إلى ضياعها .

تخلخل الحاجز المكانى والحضارى الذى كان يفصل بينها إلى حد كبير حقيقة إن المنطقة لم تصبح وحدة سياسية واحدة ، كما أنها بالتأكيد لم تصبح وحدة حضارية واحدة لها نفس القيم وتشترك فى نفس النظرة إلى كل جوانب الحياة ولكنها إذا كانت لم تندمج فى نسيج حضارى واحد ، فإنها من الجانب الآخر لم تعد تمثل عالمين متباعدين أو منفصلين لا يتم التقارب بينهما إلا فى شكل تسرب حضارى عفوى . وانما أصبح الشرق والغرب فى المنطقة يمثلان قسمين من عالم واحد تقوم فيه كل إمكانيات الاتصال الايجابى السهل بين هذين القسمين .

وقـــد كانت همزة الوصل أو الامكانية التى تم من خلالها أو عن طريقها هذا الاتصـــال بين كافة أرجاء المنطقة هى الثقافة الاغريقية التى قامت على ركيزتين أساسيتين : الركيزة الاولى هى اللغة اليونانيـة التى أصبحت لغة الثقافة فى المنطقة بأكملها والتى أصبحت تمثل جـواز المرور لكل من يريد أن ينال حظا من ثقافة العصر سواء كان ما يبغيه علما أو أدبا أو فنا . بل لقد أصبحت هناك ، إلى جانب اللهجات المتعـددة التى كانت شائعة بين أبناء العالم اليونانى ، لهجة أو لغة أغريقيـة مشتركة أو عامة Koine من الممكن أن تحمل الانسان عبر المنطقة بأكملها من غربيها إلى شرقيها ، تماما كما تحمل اللغة الانجليزية السائح عبر الدول المختلفـــة الواقعة فى غربى أوروبه على سبيل المثال . وهـكذا نستطيع أن نقـول إن اللغة الأغريقية ، فى لهجتها هذه المشتركة أو العامة أصبحت لغـــة التفاهم أو التعامل الدولى إلى جانب كونها لغة لثقافة العصر .

أما الركيزة الثانية للثقافة اليونانية بالمعنى الواسع لهذه الـكلمة فهى

الأغريق أنفسهم الذين هاجروا ، فى أعداد غير قليلة ، إلى مختلف أرجاء المنطقة فى أعقاب فتوح الاسكندر وبخاصة بعد أن أقام خلفاؤه دولهم الجديدة على أنقاض إمبراطوريته . فقد حاول هؤلاء الخلفاء أن يجتذبوا أعداداً كبيرة من الاغريق سواء للاعتماد عليهم كجنود مرتزقة أو كفنيين فى كافة المجالات سواء كان المجال إدارة أو تجارة أو حرفا صناعية أو غير ذلك(١٥) لقد كان هؤلاء الاغريق دون شك عنصرا مشتركا متحركا فى المنطقـــة بأكملها ، سواء بوصفهم سكانا يمثلون ، كما كانت تمثل لغتهم ، همزة وصل بين أقسام المنطقة ، أو بما يشيعونه حولهم بالضرورة من قيم فى هيئـة عادات وتقاليد وعقيدة ، بصرف النظر عن المدى الذى وصل اليه تأثير هذه القيم فى الأقسام غير اليونانية من المنطقة ، فالقضية التى أمامنا هى مدى وضع هذه القـــيم كحلقة وصل موجودة فعلا بين كل أقســـام المنطقـــة ، وليست نسبة تأثيرها فى كل قسم من أقسام المنطقـة على حـــدة .

---

(١٥) يدل على هذا فى حالة مصر ، على سبيل المثال ، العدد الكبير من الخطابات التى كان يرسلها المهاجرون الاغريق إلى أبولونيوس ، وزير المالية فى عهد بطلميوس الثـــانى ، يطلبون اليه فيها قطعة من الأرض يقومون بزراعتها أو قرضا يعـــدون بسداده . راجع برديات :

P. Cairo Zen. , 59284; P. Col. Zen., 41; P ich. Zen., 33, 46.
Claire Preaux : Les Grecs en Égypte, .p 84

وعلى هذا الأساس ، ومن هذه الزاوية التى تمثل « نقطة اشتراك » لا تقتصر على قسم من المنطقة دون قسم وإنما تنتظم أقسام المنطقة بأكملها ، نستطيع أن نقول إن المسحة أو الصبغة الاغريقية التى تجسدت فى صورة الثقافة الاغريقية « المشتركة » ، وليست تلك القاصرة على بلاد اليـــونان فقط ، بركيزتيها المذكورتين وهما اللغة التى أكتسبت لهجة جديدة مشتركة بين كل أقسام المنطقه ، والاغريق الذين أصبحوا ، هم الآخرون ، عنصرا مشتركا بين كل هذه الأقسام ـ هـــذه المسحة أو الصبغة الإغريقية أصبحت هى العنصر المشترك ، مهما كانت نسبته فى الأقسام المختلفة فى المنطقة التى نحن بسبيل الحديث عنها ، فى ذلك العصر . وهـكذا نستطيع أن نقول إن الصفة الأساسية للعصر هى أنه « العصر المتأغرق » .

ولعل فى ذكر مثال فى هذا الصدد على سبيل المقارنة ، ما يلقى شيئا من الضوء على هذه التسمية . والمثال الذى أود أن أورده هو ما حدث بعد الفتوحات العربية فى القرن السابع الميلادى فى المنطقة التى شملتها هذه الفتوح (وقد كانت من بينها بعض أجزاء المنطقة التى شملها فتـــوح الاسكندر قبل ذلك بنحو الف عام ـ وهى مصر وسورية) . لقد عـرب الفاتحون من الجزيرة العربية المنطقة التى يمتد عبرها العالم العربى الآن . ولـكن مع ذلك فان المقومات الحضارية لشبه الجزيرة العربية لم تطغ على المقومات الحضارية فى المناطق المفتوحة التى استعربت ، فلم تذب الحضارة المصرية مثلا فى حضارة جديدة غازية ، ولم يحدث ذلك فى سورية أو على طول الساحل الأفريقى الشمالى . وانما الذى حدث هو أن أقسـام المنطقة التى غزاها عرب شبه الجـــزيرة ، انفتحت على بعضها واصبحت هناك امكانية للاتصال الحضرى الايجابى بينها عبر الثقافة العربيـــة التى قامت ، على نسق الثقافة الاغريقية فى المنطقة التى شملتها فتوح الاسكندر ،

على ركيزتين هما اللغة والعرب المهاجرون ، بحيث أصبحت اللغة العربية هي لغة الثقافة وأداة الاتصال الايجابي بين حضارات المنطقة ، وأصبح العرب المهاجرون من شبه الجزيرة العربية ، سواء بأشخاصهم أو بما أشاعوه من قيم وعادات وتقاليد ، بصرف النظر عن مدى الاثر الذى تركته هذه القيم والعادات والتقاليد على الحضارات التى كانت موجودة فى المنطقة ، يمثلون عنصرا مشتركا متحركا ، بحيث أصبح من الامور العادية أن يولد الشخص مثلا فى الحجاز ويتعلم فى القيروان ويستقر فى مصر أو الشام ثم يموت فى بغداد ، تماما كما كان الإغريقى فى العصر المتأغرق يولد فى أثينه مثلا ثم ينزح ليتعلم فى جامعة الاسكندرية ويستقر فى أنطاكية ويموت فى رودس .

* * *

ثم يبقى الحديث عن النقطة الثانية التى تتعلق بتسمية العصر المتأغرق بالعصر السكندرى . وقد ذكرت فى مناسبة سابقة أنى كنت قد استخدمت منذ سنوات ، هذه التسمية كرادف ، وليس كبديل ، لتسمية « العصر المتأغرق » . والتسمية بهذا المعنى واردة فى كتابات الذين عالجوا حضارة العصر الذى نحن بسبيل الحديث عنه فى واحد أو أكثر من جوانبها ، سواء فى ذلك الجانب التاريخى أو الأدبى أو الفنى أو غيرها ، وإن كانت هناك خلافات جانبية حول تحديد الجوانب الحضارية التى يمكن أن تنطبق عليها هذه التسمية من جهة وحول نقطة أو تاريخ ابتداء العصر السكندرى وتاريخ نهايته من جهة أخرى . (١٦)

---

(١٦) راجع على سبيل المثال فى مجال الادب :

J.W. Mackail: Lectures on Greek Poetry ، وهو يرى =

والاسكندرية لعبت دون شك دورا أساسيا ، وفى بعض الأحيان الدور الأول ، فى العصر المتأغرق فى أكثر من مجال . ففى عهد البطالمة

= أن العصر السكندرى يبدأ بوفاة الاسكندر فى ٣٢٣ ق.م. وينتهى بضم سورية إلى أملاك الجمهورية الرومانية (٦٥ ق.م.) كذلك Knack ; Alexandrinische Litteratur, Real Encyclopaedie I, 1399 الذى يرى أن تسمية «العصر السكندرى» يبررها اهتمام حكام البيت المالك البطلمى بثقافة العصر ، ووضع الاسكندرية كمركز أساسى للفنون والعلوم آنذاك ، وإن كان يرى أن هذه التسمية لاتؤدى إلى أن تفقـــد تسمية « العصر المتأغرق » أهميتها أو مبررات وجودها .

كـذلك : Legrand: La Poesie Alexandrine,p, 14

الذى يرى أنه تسمية العصر السكندرى تبدو فى غير موضعها كوصف للعصر الذى نتحدث عنه فى مجال الدراسات التاريخية العامة ، ويجب أن تحل محلها فى مجال هذه الدراسات تسمية « العصر المتأغرق » ، ولـكنها تصبح فى موضعها تماما فى مجال تاريخ الادب .

وقد وردت الإشارة إلى هذه المراجع فى الدراسة التى قام بها الدكتور السلاموني حول تحديد « العصر السكندرى » فى مجال الادب الاغريقى راجع :

M.M. El- Salamouni ; An Attempt for defining the "Alexanprian Period" as an Independent Era of Greek Literature, pp. 3-5 nn. 1-7

راجع كذلك تحديد العصر السكندرى ، من الناحيةالزمنية، بالفترة التى كانت فيها الاسكندرية عاصمة لمصر فى :

لطفى عبد الوهاب يحيى : مقدمة لحضارة الاسكندرية ، الطبعة الثانية ، ص ٦ .

الأوائل كانت الاسكندرية ، كعاصمة لمصر ، هى منطلق السياسة التوسعية التى عرفت طريقهـــا إلى أغلب شواطىء المنطقة التى انطبعت بالطابع المتأغرق ، وإذا كانت الفترة التالية من حكم البطـــالمة قد بدأت تشهد تدهورا ثم ضياعا فى المركز السياسى للبطالمة أمام تدخل رومه التدريجى وسطوتها فى شرق البحر المتوسط ، فان عهد كليـوباتره السابعة ، آخر حكام البيت البطلمى ، قد قفز بالاسكندرية مرة أخرى لتصبح المحـــور الذى تعلق به لفـترة متوترة من الزمن مصير مصر من جـانب ومصير الجمهورية الرومانية من الجانب المقابل ، أثناء الصراع الرهيب الذى قام بين القـــائدين الرومانيين اكتافيوس وأنطونيوس ، على الانفراد بمركز السيادة فى الجمهورية الرومانية وممتلكاتها على شواطىء البحر المتوسط ، والذى حاولت كليوباترة ، من مركزها فى الاسكندرية ، أن تستغله لصالحها، بأن تجتذب إلى صفها أحـد الخصمين ، وإن كانت الظروف قد لعبت ضدها فكانت الهزيمة من نصيب القائد الذى اجتذبته إلى صفها ـ وعلى أى الأحوال فإذا كانت موقعـة أكتيـوم (٣١ ق ٠ م) هى التى فتحت طريق النصر أمام أكتافيوس ، فان هذا النصر لم يحسم إلا فى موقعـة الاسكندرية فى العام التالى .

ولم يقتصر دور الاسكندرية فى العالم المتأغرق على الجانب السيـاسى فحسب ، بل تعداه إلى الجوانب الأخرى وبخاصة الجانب الثقافى عموما ، الذى تجسد فى ظهور جامعة الاسكندرية بكل من اشترك فى أبحـاثها من العلماء الذين أتو من كافة أنحاء العـــالم المتأغرق ومن بينهم أسماء احتل

أصحابها مركز الطليعة فى أفرع المعرفة التى عالجوها ، طبا كانت أم فلكا أم رياضة أم فيزياء أم غيرها ، وفى صورة مكتبة الاسكندرية التى كانت أكبر مكتبة وأول مكتبة عامة فى العالم القديم، والتى تحايل البطالمه بكافة الطرق حتى يغذوها بأندر وأكـــبر قدر من الكتب الموجودة فى زمنهم (١٧) .

كذلك ظهر طابع الاسكندريه فى الأدب ليس فقط فى الإسكندرية ، وإنما ظهر أثر هذا الطابع فى المراكز الأدبية الاخرى فى العـــالم المتأغرق وبخاصة تحت حكم البطالمة الثلاثة الأول الذين يقع ضمن عـهدهم أوج العصر السكندرى . وقد بلغ من قوة هذا الأثر أن الشعراء الاغريق فى الانحاء المختلفة للعالم المتأغرق لم يكن بوسعهم أن يتجاهلوا النقد الأدبى لأدباء الاسكندرية وأبرزهم كان كاليماخوسKallimachos الذى أخذ مكانه كعميد النقاد الأدبيين فى عصره ، بحيث أصبحت دائرة الادباء السكندريين هى العامل الحاسم فى نجاح أى شاعر فى أى قسم من أقسام المنطقة المتأغرقة، ومن ثم تركت طابعها على الشعر الاغريقى كله فى العصر المذكور (١٨) .

---

(١٧) W.L. Westermann The Library of Ancient Alexdndria pp. 2-16

لطفى عبد الوهاب يحى : الاسكندرية فى العصر البطلمى ، (فى تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور) صفحات ٣٥ - ٤٣

(١٨) El-Salamouni ; op. cit., pp. 11-13 & n. 28 (Koerte:The Hellenistic poetry الترجمة الانجليزية p. 91)

ولا أريد هنا أن استرسل فى بيان الدور الذى قامت به الاسكندرية فى هذا المجال أو فى بعض المجالات الاخرى ، وبخاصة فى الجانب الاقتصادى فى العصر المتأغرق فسيأتى هذا فى حينه فى سياق هذه الدراسات وقد كان هذا الدور كبيرا دون شك وغير قاصر على هذه المدينة كعاصمة لمصر ، وإنما كانت أبعاده تمتد لتشمل دائرة العالم المتأغرق أوقسما لابأس به من هذه الدائرة (١٩). وهو دور يجيز لنا ، وبخاصة من الناحية الثقافية والادبية على وجه التحديد كما أسلفت ، أن نطلق على العصر المتأغرق تسمية العصر السكندرى .

ولكن مع ذلك فإن هذه التسميه لا يمكن إلا ن تدور داخل مفهوم معين لاينطبق فى كافة جوانبه على كل أقسام العالم المتأغرق ولا على كل فتراته . فمن الناحية السياسية الخارجية مثلا ، إذا كانت الاسكندرية قد شغلت العالم المتأغرق فى عهد البطالمة الاوائل وإذا كانت قد شغلت رومه أثناء احتكاكها بالعالم المتأغرق فى عهد كليوباتره السابعه ، فإنها لم تكن تمثل فى الفترة المتوسطة من تاريخ البطالمة إلا فترة ضياع ثم تبعية فى هذا المجال . وكذلك من الناحية السياسية الداخلية فإن نظام الحكم الذى كان سائدا فيها ، وهو نظام حكم يمثل فى أحد شقية عاصمة دولة تسير على النظام الفردى المركزى ويمثل فى شقه الآخر مدينة لها إطار دولة المدينة ولكنها تفتقد محتواه ـ أقول إن نظام الحكم الذى كان سائدا فى الاسكندريه إذا كان يمثل وضع بعض المدن فى الدولة السلوقية التى قامت فى سورية مثلا فانه لم يكن ممثلا للعالم المتأغرق كله بأية حال .

---

(١٩) يجد القارىء موجزا شاملا لهذا الدور فى:
محمد عواد حسين : نفس المرجع ، صفحات ١٢ - ٢٣

وفى ضوء هـــذا الظرف يتحدد المفهوم الذى يجب أن تدور فى نطاقه تسمية العصر المتأغرق بالعصر السكندرى بوجـــه عام . وفى حدود هذا المفهوم نستطيع أن نقول إن العصر قد طبعته حضارة الاسكندرية فى مجال الثقافة وبخاصة فى مجالى الأدب والبحوث العلميـة ، كذلك كانت الاسكندرية فى مجال الاقتصاد أثرها الظاهر فى العالم المتأغرق وإن كان هذا يقتصر على الجانب التجارى فحسب ، أما الفن فربما شهد أكثر من مركز أساسى وأكثر فى طابع إلى جانب الطابع السكندرى ، وأخيراً ففى مجال السياسة كانت هناك التحفظات التى أشرت اليها فيما يخص السياسة الخارجية والداخلية .

وتبقى كلمة أخيرة فى هذه الصدد تخص الحدود الزمنية للعصر السكندرى بمفهومه هذا ، وهل هو ينطبق على العصر المتأغرق بأكمله ، بمعنى أنه يبدأ من الوقت الذى أتم فيه الاسكندر فتوحاته ومن ثم اكتملت له السيطرة على المنطقة (فى صورة زعامة إجبارية على اليونان وفى صـورة سيادة إمبراطورية على القسم الذى كانت تقوم فيه الامبراطورية الفارسية قبل ذلك) ، وينتهى باتمام روما سيطرتها على آخر قسم من أقسام المنطقة المتأغرقة ، وهو مصر ، فى ٣٠ ق.م. ، أم أنه يختلف عنه فى هذه الحدود الزمنية (٢٠).

(٢٠) التحديد الذى أقدمه هنـــا للعصر المتـأغرق لا يمـكن إلا أن يـكون تحديدا عاما ، شأنه فى هذا شأن أى تحديد يقدم فى هذا المجـــال (سواء كانت بدائية هى بداية فتوح الاسكندر أو انتهاء الاسكندر من فتوحه أو موت الاسكندر فى ٣٢٣ ق م. أو تدعيم خلفـــاء الاسكندر لمركزهم كملوك للأماكن التى قسموا اليها إمبراطوريته) =

وأورد فى هذا المجال رأيا ظهر مؤخرا وهو ، وان كان يقتصر على جانب النشاط الأدبى من حضارة العصر ، إلا أنه يقدم اتجاها يصلح كنموذج يمكن تطبيقه فى الجوانب الحضارية الأخرى ، بعد أن نأخذ فى الاعتبار الظروف الخاصة بكل جانب [٢١] . والاتجاه الذى يقدمه هذا الرأى هو أننا لا نستطيع أن نقول إن العصر السكندرى بدأ إلا بعد أن بدأت « الثمار الأولى للعمل الثقافى السكندرى فى الظهور ، وبعد أن بدأت الزهرات الاولى للشعر الوطنى فى التفتح » ومن ثم أصبح من الممكن أن يكون لها أثر فى العالم المتأغرق . وقد ظهرت السمات المميزة للشعر السكندرى لأول مرة فى القصائد التى كتبها الشاعر كاليماخوس Kallimachos ، وهى السمات التى أثرت فى أدب العصر المتأغرق بعد ذلك . وكان أول إنتاج لهذا الشاعر هو النشيد الذى كتبه تحت عنوان « إلى زيوس » (كبير آلهة اليونان) حوالى ٢٨٠ - ٢٧٥ ق.م. ومن هنا ، تمشيا مع هذا الرأى ، فان العصر السكندرى يجب أن يبدأ من هذا التاريخ . وهكذا يمكننا أن نقول إن « العصر المتأغرق » ، من حيث انطباقه أو عدم انطباقه

= فالجو التاريخى الذى بدأ فيه العصر قد وجد حتى قبل فتوح الاسكندر ، ومقومات هذا العصر امتدت حتى بعد أن دخلت المنطقة المتأغرقة رسميا تحت سيطرة رومه ، بل لعلنا لا نبتعد كثيرا عن الصواب اذا قلنا إن الذى حدث لفترة هو أن رومه تأغرقت فى المجال الثقافى بعد أن سقط العالم المتأغرق سياسيا فى يدها .

(٢١) El— Salamouni : op. cit, pp. 8 — 9, 13 — 16

على « العصر السكندرى » ، ينقسم إلى قسمين : القسم الأول هو « ماقبل العصر السكندرى » وهو يشمل فترة ما قبل ٢٨٠ - ٢٨٥ ق.م. والقسم الثانى ، وهو « العصر السكندرى » الذى يغطى بقية العصر المتأغرق بعد هذا التاريخ .

والرأى فى الواقع يمثل تحديدا علميا دقيقا للعصر السكندرى فيما يخص جانب الأدب . والاتجاه الذى يمثله يمكن أن يطبق ، بتحديدات زمنية أخرى (من حيث البداية) فيما يخص جانب الفن أو جانب الاقتصاد أو أى جانب آخر من الجوانب التى تشتمل عليها حضارة العصر . ولكن مع ذلك فهناك نقطة أود أن أضيفها فى هذا المجال . هذه النقطة هى أن الفترة الأولى من العصر المتأغرق لم تكن فى الواقع فترة إستقرار وإنما كانت مرحلة دفع وجذب وتأسيس وتكوين استمرت فترة غير قصيرة بعد وفاة الاسكندر ، وعبر فترة الصراع الذى قام حول مصير الامبراطورية التى كونها ، وبعد أن استقر خلفاؤه فى المناطق التى شهدت قيام حكمهم . ومن هنا فالفترة التى وقعت بين موت الاسكندرية والعقود الاولى من القرن الثالث ق م. نستطيع أن نقول إنها لم تشهد نشاطا إنتاجيا حضاريا فى أكثر الجوانب . إلا فى أضيق الحدود ، وإنما كانت فى أغلبها مرحلة تكوين ـ وهكذا فإن تسمية الفترة الأولى من العصر المتأغرق بفترة ما قبل العصر السكندرى تصبح تحديدا زمنيا نظريا دون أن يكون لها محتوى حضارى عملى ذو أبعاد أو اتجاهات محددة .

وهكذا نستطيع أن نقول ، فى حدود هذا الرأى وفى ضوء الآراء والاعتبارات السابقة ، وإذا نظرنا من ناحية النتاج الحضارى الذى أصبحت

له سمات وملامح محددة - إنه كان هناك عصر سكندرى تقع بدايته بعد العقود الأولى من القرن الثالث ق.م ، وهو من ناحية المـــادة والأثر الحضاريين ينطبق بشكل تام على العصر المتأغرق أما من الناحية الزمنية فانه يبدأ متأخرا عن العصر المتأغرق بحوالى نصف قرن يقع عـبر العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الرابع ق.م. والعقدين الأولين من القرن الذى يليـه على وجه التقريب ، إذا اتخذنا موت الاسكندر كبداية رسمية للعصر المتأغرق ، ولـكنا نستطيع أن نقول إن هناك تطابقا زمنيا تقريبيـا بين العصرين إذا أهملنا الفترة الأولى من العصر المتأغرق على أساس أنها كانت ، كما أسلفت ، فترة اضطراب ليس ليس لها وزن كبير فى حسـاب النتـاج الحضارى الايجابى .

الباب الثانى

الشرق واليونان والعصر الجديد

١ — اتجاه الحضارة الشرقية

العصر المتأغرق، إذن، كان عصر انفتاح بين عناصر أو مقومات حضارية شرقية، وأخرى غربية (وهى يونانية فى المقام الاول). وقد التقت هذه العناصر أو المقومات بدرجات متفاوته فى المناطق المختلفة التى شملتها حضارة العصر الجديد. وسأدير الحديث عن هذه العناصر من ثلاث زوايا: هى القاعدة أو النظرية التى يقوم عليها نظام الحكم فى كل من الشرق وبلاد اليونان، ثم الاتجاه الذى اتخذه هذا النظام فى الشئون الداخلية، وأخيرا الاتجاه المناظر فى الشئون الخارجية.

ولنبدأ بالشرق الذى كانت تمثله حتى الوقت الذى نحن بصدد الحديث عنه، الامبراطوريات والملكيات التى ظهرت فى المناطق المتاخمة للقسم الشرقى للبحر المتوسط. ولتكن مصر، التى ستكون موضوع هذه الدراسات، مثالا لنوع الحياة الذى كان يمثل الاتجاه الحضارى الشرقى. وهنا نجد فى المجال الداخلى أن ملكية الأرض استقرت فى يد طبقة كبار الملاك الذين سخروا بقية أفراد الشعب فى زراعة هذه الأرض كأجراء أو أنصاف أرقاء، ولم يكن أمام هذه الغالبية المحكومة ما يتيح لها الادراك الايجابى الواعى لهذا الوضع الاقتصادى غير المتكافىء، فمن جهة لم تكن هناك

فرصة مقارنته بتنظيم اجتماعى آخر مقارنة تشير إلى ما هو عليه من نقط الضعف . فالبلاد واسعة والطبقة المحكومة متناثرة فى الريف بعيدة عن أى مصدر من المصادر التى تطلعهم على أحوال المجتمعات الأخرى . ومن جهة أخرى لم تكن لديهم فرص المساومة الطبقية الاجتماعية مع الطبقة الحاكمة ، فالبلاد تعتمد أساسا على الزراعة ، وعليه فامتلاك هذه الطبقة للأراضى الزراعية يضع فى قبضتهم وحدهم المورد الاقتصادى الأساسى الذى يتحكمون عن طريقه فى حياة الطبقة المحكومة دون أن يكون أمام هذه الأخيرة أية فرصة المساومة الاجتماعية ، وهكذا استطاعت الطبقة الحاكمة من كبار الملاك الزراعيين وعلى رأسهم الفرعون ، المالك الزراعى الأكبر ، أن تسيطر على الشعب وان تفرض عليه بكافة الطرق المباشرة وغير المباشرة ، لإرساء هذه السيطرة على أساس أدبى أو شرعى راسخ ، تفسيراً جعل من الملك ، وهو ممثل طبقة الملاك ، إلها أو سليلا للآلهة ، وجعل من حكمه حقا أو تفويضاً الهيا ينزل من أفراد الشعب منزلة التقديس وينطبع الانحناء له بطابع التدين العميق ، ويدخل التذمر منه أو التمرد عليه فى نطاق المروق الدينى بكل ما يستوجبه هذا من عقاب فى الدنيا وعذاب فى الآخرة (٢٢).

هذا التفسير الذى يفرض السيطرة التامة من الطبقة الحاكمة ويستلزم الخضوع التام من الطبقه المحكومة ويضفى على هـذا الوضع كل صفات

---

(٢٢) لطفى عبد الوهاب يحيى : مقدمة للفكر السياسى ، ص ٢٦

التقديس والتنظيم الالهى الأزلى الذى لا يقبـــل اعتراضا ولا يسمح بمراجعة ، نرى صداه واضحا فى الأدب المصرى القديم فى جميع مراحله . ولنستمع فى هذا المجال إلى صفات امنمحات الثالث (١٨٤٤ - ١٧٩٧ ق م.) التى ضمنها أحد كبار الطبقة الحاكمة إحدى قصائده [٢٣] وفيها نرى الفرعون إلها يمنح رعايا الحياة ويملك عليهم حق الموت ويبعث فى الأرض من فضله خصبا تنبت به رزقا يهبه من يشاء ويحرم منه من يشاء ، بل أن النور الذى يغمر الـكائنـات ويهدى الناس نعمة من نعمه يوليهم إياها ويتجلى بها عليهم .

« إنه يدرك ما يدور فى القلوب » ويرى بنظرته الفـــاحصة كل إنسان ، وهو الإله رع الذى يرسل أشعته هدى للناظرين .

إن النور الذى ينبعث عنه ليغمر الأرضين (الوجهين) أقوى من ضياء الشمس ، والخصوبة التى يضفيها عليها أكثر من تلك التى يأتى بها النيل عند الفيضان ، لقد ملأ الأرضين بنضرة والحياة .

أنه يهب القوة من يقومون على مصالحه ، ويمد بالقوت أولئك الذين يسعون فى خدمتـه ، وهــــو القوة العارمة والحيـاة النابضة لرعاياه المخلصين . أنه يتعهد بالنماء كل وليد ، وله قوة الاله خنوم الذى يرعى الأجنة فى الأرحام .

---

(٢٣) A. Erman : The Literature of the Ancietn Egyptians
(الترجمة الانجليزية قام بها M. Blackman) صفحات ٨٤ - ٨٥

« إن رحمته ورعايته من روح الإلهة باستت التى تحمى الأرضين ، وأولئك الذين يحترمون سلطانه لن يصيبهم ضير ، ولكن له شراسة الآلهة سخمت حين يجرؤ أحد على عصيان أمره .

كافح لرفع اسمه ، ولدرء السوء عن بابه ، تنج من كل أذى ، فمن يكن صديقا الملك يصبح الشرف خدنه وحليفه ، بينما لن يقوم لمن يعاديه حتى الجدث الذى يضم رفاته » .

ومايقال عن سلطة الفرعون الإدارية يقال عن سلطاته العسكرية والحربية ، فهنا كذلك نجد التفويض الإلهى رائدا للملك فى كل ما يقوم به أو يقدم عليه يظهر ذلك فى الأناشيد أو الترانيم التى كانت تصاغ بأمر من الحكومة أو الكهنة لتنقش على آثار الملوك مخلدة أعمالهم . ولنأخذ كمثال على ذلك ، أبياتا من نشيد يعدد انتصارات تحتمس الثالث ، وهى فى صورة خطاب من الإله آمون إلى هذا الملك (٢٤) .

« هذا قول آمون رع سيد الكرنك : إنك تأتى إلى مقعها بالسرور حيث ترى طلعتى البهية يا « من خبروع » (الاسم الرسمى للملك) ، ولدى الذى يحمى حماى ، والذى له الحياة الأبدية .

إنى أشرق على الناس من أجل حبى لك ، ويغمر فؤادى الحبور حين تحضر إلى المعبد يحف بك البهاء والجلال ، وبيدى أدفع عنك السوء وأسبغ عليك الحياة » .

---

(٢٤) Ibid. ; op. cit. , pp. 54 sq.

ثم يمضى الاله ليعدد المعـــارك التى انتصر فيها الملك ، والبلاد التى أخضعها لسلطانه فى شتى أرجاء العالم المعروف ، كل ذلك بعونه ورعايته وتدبيره ، حتى ينهى النشيد بقوله لتحتمس :

« انى أرعاك واحوطك بحمايتى أى بنى العزيز ، يا حورس ، أيها السيد العظيم الذى يشرق بطلعته فى طيبه ، أى ولدى الذى أنجبته من صلبى ، تحتمس الذى له الخلود ... إنى انصبك على عرش حورس لملايين السنين حتى يكون لك الحكم الأبدى على الأحياء »

هذا هو وضع فرعون ، الممثل الأول للطبقة الحاكمة ، فى مصر القديمة ، هو إله أو من سلالة الآلهة . والآله بعد هذا وفوق هذا ليس بالقـوة البسيطة أو الاعتبار التافه ، بل هو قادر مقتدر يسيطر بقوته التى لاحد لها على العالم ومن فيه . ولنأخذ مثلا على ذلك ابياتا قليـلة من المزمور الأول من نشيد آمون العظيم .

« الحمد لك يا آمون رع ، يا سيد مدينة الشمس ، يا سيد الـكرنك والمسيطر على طيبة .. ياذا الباع الطويل والخطا السديدة ، صاحب المقام الأعلى فى مصر العليا ، وسيد أرض الماتوى (النـوبة) وأمير بونت . يا أعظـــم من فى السماء وأول من فى الأرض وسيد كل المخلوقات ، الذى نفخ من روحه فى الكائنات . أنت سيد الخليقـــة وابو الآلهة الذى خلق الانسان والوحش والشجر والعشب الأخضر .

أنت الذى خلق الأناسى على الأرض وابدع الاجرام فى السماوات ، الذى يضىء الارضين .. وبيده سيادة البلاد فى الشمال والجنوب .

يا سيد الأرضين ، يا صاحب القوة والعظمة ، ياسيد الليل وخالق الكون ، لك الابتهال والتسبيح يا من خلق الآلهة ورفع السماء ودحا البسيطة — الخ . »

وقد كان طبيعيا فى ظل هذا الحق الإلهى للملك أن تتجمع كل خيوط السلطة فى يد الحاكم والبطانة التى يعتمد عليها بشكل لا يسمح بمناقشة ما يجب أن يقوم بين الحاكم والمحكوم من حقوق وحدود . وهكذا لا نجد فى الأدب المصرى القديم ، فيما يتعلق بهذا الجانب من الحياة العامة ، سوى انعكاسات لسلطة غير محدودة من جانب الطبقة الحاكمة تقابلها انطباعات لطاعة غير محدودة من جانب الطبقة المحكومة ، دون أن يكون بين النقيضين مجال للدفع والجذب . ولننظر ، مثلا ، إلى النصائح التى تلقاها الملك مرى كارع من والده ، والتى كانت لا تزال نموذجا أدبيا حيا فى الأسرة الثامنة عشرة ، رغم أنها ترجع إلى الفترة التى شهدت انتهاء الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى ، ففى جانب من هذه النصائح يقول الملك لابنه (٢٥) :

« أما عن ذلك الذى يجمع حول نفسه الاتباع ويحظى ، عن طريق معاملته الحسنة ، بولاء من يعملون فى خدمته ، أو الذى يميل إلى الاكثار فى المناقشة والكلام ، فنصيحتى لك ، هى أن تقضى عليه . اذبحه وامح اسمه نهائيا من الوجود ثم اقتلع ذكراه وذكرى أتباعه الذين يحبونه ويلتفون حوله » .

---

(٢٥) Ibid. : op. cit., pp. 283 sq.

وهذا التسلط والجبروت من جانب الفرعون نلمس اعترافا وتسليما به من جانب الشعب . ولنستمع ، فى هذا المجال ، إلى النصائح التى تنسب إلى بتاح حتب والتى وضعت فى فترة مبكرة من التاريخ المصرى القديم ، ثم أعيدت كتابتها فى الدولة الوسطى وظلت شائعة بعد أن قامت الأسرة الثامنة عشرة والكلام هنا يخص مسألة معاملة الرؤساء (٢٦) :

« انحن خضوعا لمن هو أعلى منك ، لرئيسك الحكومى فى الإدارة الملكية ، لكى يظـــل بيتك عامرا ومرتبك جاريا ، أما مقاومة صاحب السلطان ، فذلك شر مستطير ، فان حياة المرء رهن بانحنائه لرغبات رؤسائه » .

وهى نغمة نسمعها فى كافة جوانب الأدب الحكومى والشعبى ، فها هى نصائح آنى أحد الكتبة فى الدولة الحديثة تردد نفس الفكرة فى ألفاظ أخرى حين يقول (٢٧) :

« لا ترد على تقريع يوجهه اليك رئيس فى سورة غضبه ، ولا تقف فى طريقه . وإذا كان فى كلامه لأحد الاشخاص شدة أو احتداد ، فليكن ما تقوله له عذبا لطيفا . واجتهد فى تهدئته ، فان ردود التحدى لا تجلب عليك سوى الاذى والعقاب الذى يرهن من قوتك . فانك أن تحليت بهذا الهدوء لن يلبث (رئيسك) أن يعود ليمتدح

---

(٢٦) Ibid. : op. cit., p. 75

(٢٧) Ibid. : op. cit., p. 62

شمائلك حين تهدأ سورة غضبه ، والألفاظ المسالمة تجد سبيلها إلى القلب . . لذ بالصمت وروض نفسك على الخضوع لكل ما يقرر من أمور » .

* * *

أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية : فقد عرف المصريون ، شأنهم فى ذلك شأن الدول الشرقية التى ظهرت قبل مجىء الاسكندر ، فكرة الامبراطورية التى تستهدف السيطرة على أراضى وشعوب من أجناس غير جنس الدولة الحاكمة ، بما يستتبعه ذلك من تنظيم وتفصيل فى العلاقة التى تربط هذه الدولة بالدول أو الشعوب المحكومة . وفى هذا المجال إذا كان دارا الأول ، الامبراطور الفارسى ، قد أعلن منذ القرن السادس ق . م أنه « ملك الملوك ، وملك الدنيا الواسعة » ، وإذا كان بعض ملوك آشور قد أخذوا لانفسهم قبل ذلك بخمسة قرون لقب « ملك العالم » فإن فكرة الامبراطورية والسيادة على أرض غير الأراضى المصرية قد عرفت لدى ملوك مصر هم الآخرون . ولنستمع فى هذا المجال إلى أجزاء من النشيد الذى أسلفت الاشارة إليه والذى يمثل خطاب الإله آمون إلى تحتمس الثالث :

« انى أهبك القوة ، وأمكن لك النصر على كل الجنود ، وأعلى اسمك ، وأنشر الرهبة من سطوتك فى جميع البطاح ، وأدخل لصيحة الحرب التى تطلقها صدى بين شعوب العالم التسع .

أنك تجمع فى قبضتك رجالات البلاد الاجنبية وأنا نفسى أشد لك

وثاقهم بيدى ، وأجمع فى الأسر بدو الصحراء بعشرات الألوف ، وسكان الشمال بمئات الألوف ، تماما كما تجمع أعواد القمح .

أنى أحمل اعداءك على أن يحنوا لك الجباه ، ويجثوا عند نعليك ، كما أمنحك الأرض بطولها وعرضها .

انك تعبر البلاد الأجنبية من مكان إلى مكان بقلب يفعمه السرور ، وحيثما امتد سلطانك لا يجرؤ على الوقوف فى وجهك أحد ، فأنا رائدك حتى تضع يدك على أعدائك .

لقد عبرت الفرات فى نصر وقوة اسبغتها عليـــك . إنهم هناك يسمعون صيحة الحرب التى تطلقها مدويه ، فيهرعون إلى جحورهم . لقد حرمتهم نسمات الحياة وملأت قلوبهم رعبا منك » .

٢ — اتجاه الحضارة اليونانية

هكذا ، إذن ، كانت فكرة الحكم عند الشرقيين ، قاعدة من الحق الالهى تمثل الملك الها أو متصرفا بوحى من الآلهة ، يقوم عليها حق السلطة المركزية المطلقة فى تصريف الأمور داخل البلاد ، وحق الامبراطورية أو السيطرة على الشعوب والاجناس الأخرى خارج البلاد . والآن سأحاول أن أعرض بشكل سريع لما كان يقابل ذلك عند بلاد اليونان ، ولنبدأ هنا كذلك بالقاعدة التى يقوم عليها الحكم.

---

(٢٨) Ibid. : op. cit. , p. 240

لقد عرف اليونانيون فى بدء حياتهم السياسية فكرة الحق الالهى ، وقد ارتكن اليه الملوك اليونان فى بداية الفترة التى ظهرت فيها المدن اليونانية ، وفى هذا المجال تظهر الالياذة أحد اتباع أجاممنون وهو يصفه بأنه ابن آتريوس ، أجاممنون ملك الرجال ، الذى أعطاه زيوس (كبير الالهة) السلطان وحق الفصل فى أمور الناس ، (٢٩) . كما تظهر الاذيسية الملك أوذيسيوس وقد عمد بعد عودته إلى إثاكه إلى تدعيم ملكه باحتفال دينى تقدم فيه القرابين حين وجد أكثر من واحد من النبلاء ينازعه سلطانه (٣٠) .

ولكن الوقت الذى يتكلم فيه هوميروس عن هذه الحوادث كان قد بدأ يشهد اضمحلال النفوذ الدينى كدعامة للحكم فى بلاد اليونان ، وحين وزعت سلطة الملك بين طبقة الاستقراطيين اختفى الداعى لوجود هذا النفوذ . حقيقة أن التمسح بما يتصل بالدين ظل قائما بعض الوقت ، فبيزستراتوس سينشر عبادة ديونيسيوس ، وأحد أبنائه سيقيم معبد الهكاتومبيدون للالهة أثينة ، ولكن الآلهة التى عرفها اليونان حتى حين كان الملوك يحكمون بوحى من نفوذها الروحى كانت من نوع آخر غير الذى عرفه المصريون أو غيرهم من الشعوب الشرقية . لقد كان آلهة اليونان شديدى الشبه بعبادهم ، تحركهم ، كما تحرك بنى الانسان ، العواطف والانفعالات الانسانية بما فى ذلك الغيرة والحقد والغضب والمكر والخداع والميل إلى المجون واشتهاء الملذات ، كما كانوا يتمتعون ،

---

(٢٩) هوميروس : الالياذة ، النشيد التاسع ، ٩٦

(٣٠) هوميروس : الاوديسية ، النشيد الرابع عشر ، ٤٨٣ - ٤٥٦

كبنى الانسان أيضا ، بالطعام والشراب وإن كان طعامهم وشرابهم يخالف ما أعتاده الآدميون ، بل هم حين يحاربون يجرحون وتسيل دماؤهم تماما كما يحدث عند المحاربين اليونان ، وإن كان دمهم بطبيعة الحال من نوع أصفى وأنبل ، ولعل القول فى هـذا المجال بأن الآلهة اليونانية لم تصور اليونانيين على شاكلتها ، وإنما صورها اليونانيون على شاكلة أنفسهم لا يخلو من جانب من صدق الحكم على الأشياء .

ولننظر الان إلى بعض الأوصاف التى وصف بها اليونان آلهتهم لنرى إلى أى حد ابتعدت هذه الآلهة عن القداسة اللازمة لقيام أى حق ألهى يعهد به فى شئون الحكم . أن الآلهة التى يتكلم عنهـا هوميروس مثلا لم تخلق العالم فقد وجـدت الأرض قبل أن توجـد الآلهة ، وهى لا تملك السيطرة على مصائر الناس بشكل كامل وإنما يسيطر القدر على هذه المصائر ويخضع الآلهة هم الآخرون له . وهم يسلـكون لتحقيق أهـدافهم كافة الطرق الآدمية المعروفة سوية أو ملتوية . فالاله زيوس مثلا ، وهو كبير الآلهة اليونانية ، يريد أن ينتقم من اليونان استجابة لدعاء ثيتيس ، فيعمد لتحقيق هدفه هذا إلى الـكذب والخداع الصريح ، وذلك بأن يوعز إلى إله الأحلام أن يتراءى لأجاممنون ، قائد اليونان ، فى صورة صديق له يحضه على الاستيلاء على طروادة ويعده بالنصر ، بينما يدبر فى الخفاء فترة طويلة من الالم والأسى لـكل من اليونان والطروادبين .

ثم هو لا ينحدر إلى الدرك الانسانى فى هذا الجانب فحسب ، وإنما نجده كذلك يستسلم سريعا لمـا تدفعـه اليه فورة الشباب فهو يميل للنساء بشكل ظاهر ولا يجـــد من نفسه المقدرة على مقاومة اغرائهن ، وهو

يعاملهن معاملة لا تختلف عما يقوم بين البشر من معاملات فيها الحب والهجر والغيرة والكراهية ، ونحن نلمس كل هذه الصفات فى أشعار هزيودوس التى تضمنت قائمة حافلة بزوجات هذا الاله وحبيباته ، وهى قائمة شملت إلى جانب الالهات طائفة من نساء البشر ، بل هى تضم إلى جانب النساء أحد الشبان ، وكان زيوس قد فتن بجماله فاختطفه لكى يتخذه ساقيا له فوق جبل الالمبوس ؛ وهكذا لا يختلف كبير الآلهة عن بقية البشر من اليونانيين فيما اشتهر عنهم من ميلهم فى مجونهم إلى الجنسين على السواء .

وهؤلاء الآلهة لا يقتصر نزولهم إلى مستوى البشر على معاملاتهم مع بنى الانسان ، بل يظهر كذلك فى معاملاتهم فيما بين أنفسهم ، وفى هذا المجال نجد الالهة أثينة تضمر كراهية شديدة للاله آريس الذى يفكر فى الحرب والقتال ويتسبب فى الخراب والدمار دون وجه حق ، وهى لذلك تحض البطل ديوميديس على قتال هذا الاله ولا تفتأ تشجعه حتى يسدد لآريس سهما نافذا يخترق جسمه ويحطم كبرياءه ، ولا تكتفى بذلك بل تصر على مقاتلته بنفسها حتى تلحق به هزيمة أخرى (٣١) .

هذه إذن هى الالهة اليونانية ، لها وجودها وعبادتها ، ولها معابدها وطقوسها واحتفالاتها ، وهى آلهة شديدة الشبه ببنى الإنسان ولا يحيط

---

(٣١) عن وضع الآلهة وصفاتهم راجع :

Will Drant : The Life ofGreece (The Srory of Civilizotion, ll , pp. 177 -187) . كذلك، محمد صقر خفاجة: هوميروس صفحات ٦٧-٧٣

بها الغوض الذى يحيط بالهة المصريين أو البابليين ، وهى قبل كل هذا لها حدود لا بد أن تعرفها وتقف عندها ، فهى لا تتدخل فى شئون الحكم التى انتزعها اليونان من نطاق النفوذ الدينى منذ أن انتهى عهد الملوك فى أواخر العصر الهومرى ، وقد كان لكل هذا دون شك ، أثره البالغ على نظرية أو قاعدة الحكم عند اليونان الذين فصلوا فى كثير من الوضوح بين شئون الدولة وشئون الدين .

لم يكن الحق الالهى ، إذن ، أساسا لفكر الحكم عند اليونان منذ أن عبروا مرحلة الحكم الملكى فى تاريخهم المبكر ، وباختفاء هذا الحق اختفت بالضرورة فكرة الحكم الفردى المركزى المطلق لتحل محلها فكرة الحكم الجماعى التى وصلت إلى ذروة نضوجها ، فى بعض المناطق اليونانية ، فى صورة الحكم الشعبى . حقيقة إن هذه لم تتحقق إلا على عدة مراحل ، ولم تتخذ فى كل الأحوال نفس المستوى من النضوج فى الدويلات اليونانية المختلفة ، ولكنها وجدت بشكل ما فى النهاية ، والأهم من هذا أنها قضت على فكرة تركيز السلطات التى يمثلها الحكم الفردى لتحل محلها فكرة توزيع السلطات على القاعدة الشعبية وإن اختلف تقييم هذه القاعدة من دويلة إلى دويلة .

وقد كان ذلك نتاجا لظرفين طبيعيين أحاطا ببلاد اليونان من بداية تاريخها . ويتعلق أول هذين الظرفين بالوضع الاقتصادى الذى ساد القسم الأكبر من هذه البلاد . وهنا نجد أن هذا الوضع كان مختلفا فى جوهره عما عرفته مصر أو نظائرها من الملكيات أو الامبراطوريات الشرقية ، فبينما اعتمدت اقتصاديات هذه الدول أساسا على مورد رئيسى واحد هو الأراضى الزراعية أو الرعوية فى أغلب الأحيان ـ الأمر الذى أدى إلى

تركيز موارد الإنتاج فى يد طبقة واحدة لم تجد من يقف أمامها فى مجال المساومة الإجتماعية بين الطبقات ، ومن ثم تمكنت من السيطرة التامة على مقدرات المجتمعات الشرقية على نحو ما رأينا ، نجد من الجانب الآخر أن الظروف فى بلاد اليونان اختلفت كثيراً عن هذا الوضع . حقيقة اعتمدت أغلب المجتمعات اليونانية فى بداية تطورها على الزراعة كمورد إنتـــاجى أساسى ، ولكن التربة الفقيرة والسطح الوعر لهذه البلاد حددا هذا الانتاج من البداية بحيث لم يكن من الممكن أن يساير تزايد السكان أو تطور مستواهم المعيشى . وهكذا عرفت بلاد اليونان التجارة فى فترة مبكرة من تاريخها ، ولم تلبث هذه أن أصبحت تشكل قسما أساسيا من موارد الإنتاج سواء كانت تجارة داخلية بين المدن أو المناطق اليونانية وبعضها أو امتدت إلى خارج بلاد اليونان لتصل إلى الشواطىء الأخـــرى المطله على البحر المتوسط . وبطبيعة الحال استتبعت التجارة قيام الصناعة التى كان لا بد أن تتزايد من مرحلة إلى مرحلة بقدر اتساع دائرة التبادل التجارى بين بلاد اليونان وجيرانها، وأدى هذا بدوره إلى قيام طبقة من أصحاب الحرف سيطرت بدورهـا على قسم من موارد الإنتاج .

وهكذا نجد أن سيادة أصحاب الأراضى الزراعية أو الرعوية لم تكن ترتكز ، كما كانت فى الدول الشرقيـة ، على أساس بالغ فى الرسوخ ، إذ كانت هناك موارد إنتاجية أخرى فى ميادين التجارة والصناعة لا تدخل ضمن نطاق سيطرتهم . وقد أعطى ذلك الطبقات المحكومة نوعا من السند المادى فى موقفهم من الطبقة الحاكمة ، وهو وضع يهىء الجو لظهور أية طبقة من بينهم ، إذا واتتها الظروف ، ظهورا تنافس به الطبقة الحاكمة فى سيطرتها

على موارد البلاد ، ومن ثم تنفسح أمام الطبقات المحكومة فرص المساواة فى ميدان الحقوق السياسية ـ وهو الذى حدث فعلا فى بلاد اليونان من مرحلة إلى مرحله حتى انتهى الأمر إلى الحكم الشعبى .

أما الظرف الآخر الذى أدى إلى وصول بلاد اليونان إلى هذا النوع من الحكم بشكل سريع فهو طبيعة البلاد الجغرافية التى تخترقها الجبال فى كافة اتجاهاتها بحيث قسمتها إلى مناطق صغيرة تكاد كل منها تكون منعزلة عن الأخرى . وليست الجبال هى العائق الوحيد بين هـذه المناطق التى تنقسم اليها بلاد اليونان . فان الممرات الموجوده عبر هذه الجبال ، وهى التى يمكن أن تسهل الاتصال بين المناطق وبعضها ، يقع أغلبها على جانب كبير من الارتفاع يقف عقبة فى سبيل الاتصال السهل إلى جانب أنه يجعل هذه الممرات مغطاة بالثلوج طيلة فصل الشتاء ويفقدها بالتالى قيمتها كوسيلة للاتصال فى هذا الفصل . أما الوسيلة الثالثة للاتصال الداخلى بين هـذه المناطق ، وهى الأنهار ، فقليل منها هو الذى يصلح للملاحة لمسافات معقولة ، وحتى مع ذلك فليس فى كل فصول السنة(٣٢) . ومن هنا كانت المجتمعات اليونانية التى قامت فى هذه المناطق المنعزلة عن بعضها تقريباً والتى أصبحت قوام الدويلات اليونانية المستقلة عن بعضها ، مجتمعات صغيرة تتم وتظهر فيها التطورات الإجتماعية والسياسية بشكل سريع ، وهذا إلى جانب الظرف السياسى الذى اشرت اليه ، وهو الذى عجل بانتقال فكرة الحكم

---

(٣٢) M. Cary : Geographical Background of the Greek and Roman History , p. 47.

من المركزية الفردية التى عرفتها بلاد اليونان فى عهد الملكية إلى الجماعية التى تقوم على توزيع السلطات فى عصر الحكم الشعبى .

* * *

ولنأخذ إحدى المدن أو الدويلات اليونانية كمثال لنرى إلى أى حد أبتعدت بلاد اليونان عن فكرة الحكم التى عرفتها مصر والدول الشرقية فى هذا الصدد ، ولتكن أثينة هى مثالنا فهى التى نعرف عنها أكثر مما نعرف عن غيرها من جانب ، وهى من جانب آخر تمثل فكرة الحكم الشعبى فى ذروته التى توزع كافة جوانب السلطة بين جميع المواطنين ، مما يزيد اتضاح المقارنة التى نحن بسبيلها . لقد كانت السلطة التشريعية مثلا تقع أساساً فى يد الجمعية الشعبية أو المجلس الشعبى ، وكان تكوين هذا المجلس يمثل الفكرة الشعبية فى أوسع نطاق يمكن أن تصل اليه ، فهو لم يكن يضم ممثلين ينوبون عن الشعب حسب المفهوم الحديث لفكرة الحكم الشعبى ، كما قد يقفز إلى أذهاننا لأول وهلة ، وإنما كان أعضاؤه هم كل المواطنين دون قيود أو حدود ، ولم تكن سلطاته تشمل جانبا من أمور الدولة دون الآخر وإنما كانت تنتظم كل ما يتصل بها . فأعضاء هذا المجلس هم الذين يناقشون القوانين ويضعونها ويعدلونها وينقحونها أو يلغونها ، لا يحتاجون فى ذلك إلى للحصول على أغلبية أصوات الحاضرين ، وفى يدهم كان عقد المعاهدات والمحالفات واعلان الحرب والمهادنة والصلح ومحاكمة السفراء والقواد وفرض الضرائب وتحديد قيمتها وهكذا .

والاتجاه ذاته ينطبق على السلطة التنفيذية للدولة التى كانت لها كل المقومات التى تبعدها عن التركيز فى أيدى أفراد قلائل من الممكن أن

تتاح لهم ، لسبب أو لآخر ، فرصة التحكم فى الجهاز الادارى الدولة ، بقدر ما تقربهم من الفكرة الشعبية التى أحاول إيضاحها . فالموظفون لا يعينون وإنما يقترع عليهم من بين أسماء الذين يتقدمون لشغل الوظائف (فيما عدا حالات قليلة جـــدا كان شغل الوظائف فيها يتم عن طريقة الانتخاب) ، وهم لا يشغلون وظائفهم هذه بصفة دائمة أو لمدد طويلة ، وإنما لمده سنة فحسب (فيما عدا أمثلة محـــددة كانت المدة فيها تمتد إلى أربع سنوات) وبذلك تنعدم أمامهم أية فرصة لتكوين بناء طبقى أو لتنمية مصالح طبقية ، ثم هم لا بد أن يقدموا لمجلس العامة فى آخر السنة الإدارية ، كل فى وظيفته ، قائمة عما حققوا أو ما قصروا فى تحقيقه مما وكل اليهم من مهام ، وهكذا يظلون طيلة الوقت تحت سمع الشعب وبصره بحيث يصبح الشعب ، ممثلا فى المجلس الشعبي هو الحاكم الحقيق - وهكـــذا تتحقق فكرة توزيع السلطة بين أفراد الشعب تحقيقاً كاملا .

فاذا انتقلنا إلى السلطة القضائية نجد أن الرغبة فى الابتعاد عن فكرة التركيز تظهر فى نظام قضائى شعبي من نوع لا يمكن أن نفهمه أو نقدره فى ظل المفهوم القانونى وحده للعدالة ، ولكنه يتضح لنا إذا نظرنا اليه فى ظل الاعتبار الشعبي الذى ذكرته فالقضاة فى المحكمة الواحدة كان عددهم يصل إلى المئات ، وهم لا يعينون وإنما يشغلون أماكنهم عن طريق الاقتراع وحتى هـذا الاقتراع لا يتم إلا فى صبيحة اليوم الذى تعتقد فيه جلسات القضايا التى يراد الفصل فيها ، أما أحكامهم فيصلون اليها عن طريق أغلبية الأصوات . وواضح من كل ذلك أن الغرض الأساسى هو أن يمثل هؤلاء القضاة قطاعا عريضا شعبيا لا يعطى فرصة لتركيز السلطة القضائية

فى يد افراد قلائل أو لوضع مجريات التحقيق تحت تأثير أفراد قلائل حتى ولوكان ذلك على حساب الكفاية القانونية التى كان المفروض أن تكون الركن الأول للعدالة .(٣٣)

* * *

وإذا كان الاتجاه اليونانى قد اختلف عن الاتجاه الشرقى فى تصريف الأمور الداخلية فان اتجاههم فى السياسة الخارجية كان مختلفا هو الآخر . وفى هذا المجال نجد أن فكرة السيادة أو السيطرة على أراضى غير الأارضى اليونانية واخراج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ فى اطار ادارى له أصوله وتفاصيله ومقوماته التى عرفتها الامبراطوريات الشرقية ـ أقول إن هــذه الفكرة لم تترسب فى اذهان اليونان كمبدأ سياسى أصيل خليق بأن يتبعوه . فما عرف فى التــاريخ مثلا بالامبراطورية الأثينية لم يكن يزيد فى الوقع عن زعامة مستبدة لحلف يونانى هو حلف ديلوس الذى تكون فى اعقاب الحروب الفارسية لصد أى خطر جديد من هذه الناحية ، وهو حلف كان أعضاؤه يقفون من الناحية الرسمية على قدم المساواة . وإذا كانت أثينة قــد استغلت زعامتها له لتحقيق مصالحها الشخصية فان ذلك يدخل فى دائرة الانحراف فى الزعامة دون أن ينتقل بهذا الحلف إلى المفهوم السياسى للامبراطورية . والوصف ذاته ينطبق على زعامة اسبرطة التى لم تكن هى الأخرى تزيد عن أن تكون زعامة مستبدة للحلف البلوبونيزى ، وحتى فى حالة إمبراطورية ديونسيوس

(٣٣) Aristoteles : Ath. Pol. XLIII-LXIX
راجع كذلك دراستنا عن « الديمقراطية الأثينية » القسم الثالث ، ١١٧ - ١٥١

التى خرجت عن حدود بلاد اليونان الأصلية نجد أنها تبلورت حول المدن اليونانية التى أسسها المهاجرون اليونان فى صقلية وجنوبى ايطاليه.

* * *

على هذا الاساس، إذن، قام النظام السياسى عند اليونان، تحده حدود المدينة، ويعالج مشاكلها بطريقة لايمكن تحقيقها إلا فى مجتمع صغير أساسه سكان منطقة صغيرة هى فى غالب الاحيان مدينة واحدة والأراضى المحيطة بها، ويعتمد أساساً على مجالس (أو جمعيات) شعبية أعضاؤها هم كل المواطنين الذين بلغوا سن الرشد وعلى هيئة تنفيذية يختار أعضاؤها بطريق الاقتراع المباشر من بين المواطنين جميعا. وبهذا الأساس الاجتماعى والسياسى ارتبطت الجوانب الحضارية المختلفة عند اليونان، فالمفكرون يبلورون أفكارهم حوله ويناقشونه ويحللونه ويفصلون فى جوانبه المتعددة، والفنانون يستلهمون هذه النزعة المدينية الضيقة لتطبع كل مايبدعونه بطابعها الخاص، والادباء والشعراء وكتاب المسرحيات فى تعبيرهم عن عواطفهم وانتقائهم لافكارهم واختيارهم لشخصيات راوياتهم والمواقف التى تظهر بها مرة ضاحكة عابثة ساخرة، وأخرى جادة رصينة وثالثة محزنة باكية إنما ينقلون عن واقع الحياة اليومية التى يضطرب بها هذا المجتمع الصغير بظروفه السياسية والاجتماعية وبمشاكله التى تنبثق عن هذه الظروف. (٣٤)

---

(٣٤) من الصور المعبرة فى هذا المجال ماكتبه الشاعر المسرحى الساخر ارستوفانيس عن الحرب والسلام والموظفين والقواد والمجلس الشعبى (أو الجمعية الشعبية) والنظام الديمقراطى بوجه عام فى مسرحياته :
Ekklesiazusae, Hippeis, Acharnae

٣ — الشرق واليونان فى فجر العصر الجديد

هكذا إذن اختلف الاتجاه اليونانى عن الاتجاه الشرقى فى النظرة إلى فكرة الحكم ، كجانب من جوانب الحضارة التى عرفها كل من الجانبين. ولكن إذا كان هذا الاختلاف قد وقف حائلا دون التقاء النقيضين حتى الشطر الأخير من القرن الرابع ، فان كلا من الجانبين كان يحمل البذور التى قدر لها أن تخلخل السياج الحضارى المانع الذى كان يحيط بكل منهما ويحول بالتالى دون التقائهما ، بحيث تهيأت فرص الانفتاح ، ومن ثم اللقاء ، بين النظرتين الحضاريتين بمجرد انفجار الظرف التاريخى المناسب .

وقد ظهرت بذور التخلخل فيما يتعلق بالجانب الشرقى فى حالة التدهور التى أصبحت عليها الإمبراطورية الفارسية فى أكثر من ناحية خلال القرن الرابع ق. م. ففيما يخص الإدارة المركزيه لهذه الامبراطورية وعلاقتها بولاياتها نجد أنها كانت تعانى من التفكك بشكل واضح . فالعرش الامبراطورى كان يحيط به قدر غير قليل من المؤامرات وهو الاضطراب الذى تستتبعه بالضرورة ، وقد كان آخر هذه المؤمرات ، قبل سقوط الامبراطورية على يد الاسكندر ، تلك التى انتهت باغتيال الامبراطور أرتا خشاترا Artaxerxes (أوخوس) فى ٣٣٨ ق. م. وسنوات الفوضى التى أعقبتها قبل اعتلاء دارا الثالث عرش الامبراطورية فى ٣٣٥ ق م.

والتباعد والتفكك الذى ساد العلاقة بين الولايات وبين الحكومة الامبراطورية يظهر لنا من خلال العدد الكبير من الثورات التى قامت

ضد الحكم الفارسى سواء فى آسية الصغرى أو قبرص أو فينيقية أو مصر ، وقد زاد من هذا التباعد والتفكك المتعجرف والتعسف اللذين اتصفت بهما الإدارة الفارسية فى الولايات ، كما حدث فى مصر مثلا فى عهد الامبراطور أوخـــوس الذى استعاد مصر بعد أن كانت قد خرجت على السيطرة الفارسية ، فقد عمد هذا الامبراطور إلى إهانة العقيدة الدينية فى مصر حين أغرق العجل المقدس حابى (أبيس) وبالغ فى سخرية بهذه العقيدة فجعل الحمار هو الحيوان المقدس فى مصر . وقد كانت نتيجـة هذا الموقف من جانب الادارة المركزية الفـارسية أن شاع عدم الولاء بين الامبراطورية وولاياتها ، ويـكفى للتدليل على هذا الوضع أن نتذكر أن منطقة واسعـة من مناطق الامبراطورية ، هى آسيه الصغرى ، سقطت أمام قوات الاسكندر فى معركتين اثنتين تفصل بينهما سنة واحدة فقط ، كانت المعركة الأولى منهـما هى التى دارت فى ٣٣٤ ق. م. على شواطىء نهر جرانيقوس على الباب الأمامى لشبه الجزيرة من ناحية بلاد اليونان ، والمعركة الثانية هى إسوس ، على بابها الخلفى من ناحية سورية ، وأن ولاية مثـل مصر نظر سكانها إلى الاسكندر كمحرر من النير الفارسى وليس كمستعمر .

أما عن القوة العسكرية الفارسية فقد كانت متخلفة عن التطورات التى عرفها اليونان فى مجال الحرب بنصف قرن . حقيقـــة إن الفرس كانوا يعتمدون فى بعض الأحيان على الجنود المرتزقة اليونان ، ولـكن ذلك لم يـكن له أثر جوهرى على الوضع العام للجيش الفارسى . فالقادة الفرس لم يـكونوا يفـكرون فى دراسة التـكتيك الحـــربى الذى يتبعه أعداؤهم والتوصل إلى طرق فعالة لمجابهته . كذلك لم يـكونوا يدخلون المعركة بخطة

حربية مسبقة ، وإنما كانوا ينتظرون مبادأة العدو ثم يكيفون مجابهتهم على أساسها معتمدين أساسا على كثرة أعدادهم وعلى ما قد يبديه محاربوهم من شجاعة فردية وعلى العجلات الحربية بصرف النظر عن ملاءمتها أو عدم ملاءمتها للمعركة .

وأخيرا فإن الامبراطورية الفارسية ، فى الفترة التى قدر لها أن تلتقى فيها بقوات المغرب فى صدام مصيرى ، كان يجلس على عرشها ويقود جيشها رجل ، إذا كان يتمتع بالفضيلة ودماثة الخلق ، وهما صفتان قربتا اليه أتباعه إلى حد كبير ، فقد كان يفتقر بشكل ظاهر إلى حدة الذكاء وقوة الشكيمة ، وهما الصفتان اللتان توفرتا بشكل ظاهر فى الرجل الذى وقف على الطرف المقابل فى هذا الصدام المصيرى (٣٥) .

هذا الظرف الذى وجدت فيه الإمبراطورية الفارسية جعل من المناطق التى كانت تتكون منها هذه الامبراطورية مناطق منهكة إلى حد كبير من الناحيتين الإدارية والعسكرية ، بينما فقدت جانبا كبيرا من الايجابية الحضارية التى كثيراً ما تشكل سياجا قويا يقلل فرص التفاعل مع التيارات الحضارية الآتية من الخارج أو التأثر بها . وهكذا أصبح المجال

---

(٣٥) عن حالة الإدارة والجيش وشخصية الامبراطور فى فارس راجع :

J. B. Bury : A History of Greece, pp. 748-9

عن حالة مصر وموقفها راجع :

Drioton & Vandier : L'Egypte, pp. 612-14

مفتوحا ، فى غياب هذا السياج الحضارى ، أمام أية قوة تقدم إلى الشرق تيارا أو عنصرا حضاريا جديدا .

* * *

أما الظرف الآخر الذى شهده الشطر الأخير من القرن الرابع ق.م. فقد كان يخص بلاد اليونان ، وهو ظرف ترك هذه المنطقة فى وضع يشبه إلى حد كبير ما وصلت اليه الإمبراطورية الفارسية من حيث تدهور السياج الحضارى (وإن اختلفت التفاصيل) ، بحيث أصبح المجـــال ، هنا كذلك ، مفتوحا أمام أية قوة تشكل همزة وصل حضـــارية بين بلاد اليونان وأية منطقة أخرى . وقد تجسد هذا الظرف فى صـورة تخلخل النظام الذى عرفته بلاد اليونان منذ ظهورها على مسرح التاريخ ، والذى يقوم على أساس من الدويلات الصغيرة التى تدور حول نفسها وتتبلور حول المدن التى تشكل القوام الرئيسى لها .

وفى الواقع فان هذا النظام لم يكن ليستمر على ما هو عليه إلا طالما ظلت بلاد اليونان بعيدة عن المجال الدولى الذى تظهر فيه الدول الكبيرة بامكانياتها الواسعة فى الجوانب السياسية والاقتصادية والحربية وكل ما يتصل بهذه الجوانب من اتجاهات نحو فرض السيطرة ومد النفوذ . وقد بدأت المدن اليونانية تلمس جانبا من هذا المجال الدولى فى الحـروب الفارسية التى واجهت فى أثنائها لاول مرة فى تاريخها خطر الغزو الخارجى ، وفى الفترة التى تلت هذه الحروب لتمتد عبر القرن الخامس وخلال شطر من القرن الرابع ق م والتى شهدت فيها بلاد اليونان أنواعا من التدخـل

الفارسى فى صوره الجانبية أوالمقنعة . ولكن إذا كان الفرس قد قصروا تدخلهم على الشئون الخارجية كلما وجد الملك الفارسى فى ذلك تأمينا للمنطقة الواقعة على حدود أملاكه فى آسيه الصغرى ، فان قوة كبيرة أخرى ، هى مقدونيه ، كانت قد بدأت تظهر فى أواسط القرن الرابع ق. م. فى شبه جزيرة البلقان إلى شمالى بلاد اليونان مباشرة ، ولم تكن هذه القوة الجديدة قانعة بما قنع به الفرس ، وانما كان هدفها هو ادخال المدن اليونانية فى دائرة نفوذها واخضاعها لسيطرتها اخضاعا تاما .

وفى الصراع الذى كان لا بد أن ينشب بين المدن اليونانية التى درجت على الاستقلال التام وبين القوة الكبيرة الناشئة التى كانت تعمل جاهدة على التوسع ، كان من الطبيعى أن يفقد نظام دولة المدينة توازنه وان تنهار مقوماته الواحدة تلو الأخرى . فقدونية ، كدولة كبيرة ، كان لها من اتساع المساحة ما يضمن اكتفاءها الذاتى من الناحية الاقتصادية ، وكان لها من وفرة السكان ما يضمن قيام جيش كبير من ابنائها ، وكان لها من التماسك التام بين بلادها ومدنها المختلفة ما يجعل لكلمتها وزنا فى ميدان السياسة الخارجية . وعلى عكس ذلك كانت بلاد اليونان ، فمن الناحية الاقتصادية كانت الدويلات اليونانية أبعد ما تكون عن الاكتفاء الذاتى ، فهى بلاد فقيرة من حيث الزراعة وبخاصة فى إنتاج الحبوب ، ولا بد أن تعتمد إلى حد كبير على التجارة الخارجية لاستيراد ما يلزم لتغطية ما تحتاجه من الخبز اليومى . ولنأخذ مثالا على ذلك منطقة أتيكا. وهى تمثل من حيث كمية الانتاج الزراعى قطاعا متوسطا فى بلاد اليونان . فهى منطقة جافة لا يزيد منسوب المطر فيها عن ٤٠ سم فى العام ، ثم

هى إلى جانب جفافها على جانب كبير من الوعورة فى سطحها ، فساحة المناطق الجبلية فيها تبلغ ٦٣٫٧٪ من مساحة أراضيها مجتمعة . أما الاماكن الباقية وهى الصالحة للزراعة نسبيا فليست على جانب كبير من الخصوبة ـ حقيقة أن لها انتاجا لا بأس به من الكروم والزيتون ، ولكن تربتها من النوع المقصـــير فى انتاجه للحبوب ، التى لم تكن تغطى إلا نحو ربع حاجة السكان (٣٦).

ولم تكن الامكانيات الدفاعية بأكثر قوة أو وفرة من الامكانيات الاقتصادية ، فالقوات اليونانية لأيه مدينة ، مهما بلغ عددها ، كانت بطبيعة الحال أقل مما تستطيع أن تقدمة دولة كبيرة مثل مقدونية ، التى كانت قد بدأت تظهر كقوة صاعدة على الحدود الشمالية لبلاد اليونان منذ أواسط القـــرن الرابع . ولعل هذا كان أحد الأسباب التى دفعت بالدويلات اليونانية فى القرن الرابع إلى الاعتماد على الجنود المرتزقة بشكل متزايد . ولنأخذ كمثال لذلك نفس المدينة التى عرفنا شيئا عن إمكانياتها الاقتصادية ، حتى تكون الصورة العامة أكثر اظهارا للحقيقة . لقد بدأت أثينه فى القرن

---

(٣٦) Struck : Zur Landeskunde von Griechenland, Kulturgeschichte und Wirtschaft. p. 167 ; Jardé : Les Çéréales dans l'Antiquité Grèques, p. 72 & n. 2.; Boeckh : Staatshaushaltung der Athener, I, pp. 571 sq. راجع كذلك دراستنا عن « أثر العامل الجغرافى فى تاريخ أثينا » ط ٢ ، صفحات ٦ - ٧ .

الرابع ، الذى كان حافلا من بدايته بالنشاط الحربى والسياسى ، فى استخدام هذا النوع من الجنود بشكل فيه كثير من التردد ، كما يدلنا على ذلك ما يصفهم به كسينوفون من أنهم « الأجانب المحاربون فى كورنثه » ولكنها لم تلبث أن تساهمت كثيرا فى نظرتها اليهم ، بل لقد أقدمت على استخدامهم فى كثير من التهافت حتى إذا وصلنا إلى أواسط القرن ، وهو الوقت الذى بدأت فيه مقدونيه تظهر فى أفق السياسة اليونانية ، وجدنا الاسم الذى يطلق على هؤلاء المرتزقة هو « الجنود » وهو وصف يدل على أنهم أصبحوا العماد الأول للقوات الأثينية ، بل أصبحت أثينة تعتمد فى بعض الأحيان على هذا النوع من الجنـــود فحسب ، كما يظهر من كلام ديموسثنيس فى ٣٤٩ ق.م. الذى يوبخ فيه أبناء أثينة « الذين يقبعون فى عقـــر دارهم منتظرين أن تصلهم الأخبار بأن الجنود المرتزقة الذين يحاربون تحت قيادة فلان أو غيره قد كسبوا نصرا لأثينة فى ميدان القتال » (٣٧) .

أما عن الناحية السياسية فقد سيطرت عليها النزعة الإنفصالية التى لم تمكن المدن اليونانية من تكتيل جهودها سواء فى ميدان الموارد الاقتصادية أو القوات الدفاعية تكتلا يستطيعون معه الوقوف أمام الخطر المقدونى الزاحف . حقيقة ظهرت بين المدن اليونانية من حين لآخر اتجاهات نحو التكتل ، كما تدل على ذلك مثلا الأحلاف التى كانت تقوم بين وقت وآخر

---

(٣٧) Xenophon : Hellenika, IV, 5, 11-18; Demosthenes : IV, 24; XIII, 35.

بين المدن اليونانية ، مثل حلف ديلوس (أو الحلف الأثيني الأول) الذى كونته وتزعمته أثينة ابتداء من ٤٧٩ ق. م. والحلف الأثيني الذى كونته فى النصف الأول من القرن الرابع ، وحلف بويوتيه وحلف أركادية الذى ظهر فى ٣٧٠ ق. م. وحلف تساليه الذى تميز بأن أعضـــاءه كانوا يشكلون مجموعات إقليمية هى فى حد ذاتها مجموعات من المدن . كذلك كان من الاتجاهات التى تقترب من التكتل ظهور الزعامات التى كانت تربط إلى حد ما بين المدن اليونانية مثل زعامة أسبرطه بعد انتصارها على أثينة فى ٤٠٤ ق.م. وزعامة طيبة بعد انتصارها على اسبرطة فى ٣٧١ ق.م. وسيادة ديونيسيوس الاول فى صقلية وجنوبى ايطالية .

ولكن رغم كل ذلك فقد ظلت النزعة الانفصالية التى ذكرتها باقية وقوية . وقد كان لهذا أثره حتى على الأحلاف والتكتلات التى شهدها القرن الرابع ، فهذه لم تمتد ، بعد قيامها ، خارج الحدود الإقليمية الضيقة التى ابتدأت فيها ، وكل ما أمكن أن تصل اليه فى هذا المجـــال هو أن يصبح الحلف البويوتى مثالا يحتذى فى الوقت الذى تزعمت فيه طيبة بلاد اليونان . ثم هى لم تعمر طويلا ، بل تفككت فى مناسبة أو فى أخرى . وفى هذا المقام إذا كان حلف تساليه قد استمر حتى نهـــاية تاريخ هذه البقعة كوحدة سياسية ، فان حلف خالكيديكى لم يلبث أن سقط أمام عدوان اسبرطه التى كانت تعمل دائما على عدم قيام أى حلف ـ فيما عدا الحلف البلوبونيزى الذى تتزعمه ـ بينما انقسم حلف أركاديه . ولما يمض على تكوينه عشرة سنين ، إلى كتلتين منفصلتين متعاديتين . كما ظهر الشعور الانفصالى فى فى صور أخرى . فسلم انتاكداس مثلا ، نص على أن تكون جميع المدن

اليونانية حرة - فيما عدا لمنــوس وامبروس وسكيروس (التى احتفظت أثينة بالسيطرة عليها) وقد نفد هذا المبدأ بالفعل حين انحلت الجامعة البويوتيه على أثر الصلح إرضاء لاسبرطه ، كما ظهر هذا التيار الانفصالى مرة أخرى فى ٣٥٧ - ٣٥٥ ق.م. أثناء حرب الحلفاء التى تزعمتها بيزنتيون ضد أثينة .

هذه النزعة الانفصالية التى وضعت المدن اليونانية فى مجابهة بعضها كانت قد وصلت ، منذ أواسط القرن الرابع إلى نقطة اللاعودة ، إذا جاز لى أن استخدم هذا الوصف ، بمعنى أنه لم يعد هناك أمل فى أن تتراجع هذه المدن عن هذه النزعة مهما كان هناك خطر خارجى يهدد كيانها ، ولعل أقوى دليل على هذه الدرجه فى الاتجاه الانفصــالى فى الفترة المذكورة أنه حين هددهم الخطر الفارسى فى العصور الأولى من القرن الخامس اتحد عدد لا بأس به من المدن اليونانية لمواجهته (وإن كان هذا لا ينفى أن قسما منهم لم يأخذ مكانه فى الصف المتحد) ، أما فى أواسط القرن الرابع فان الخطر المقدونى لم يؤد إلى هذه النتيجة ، بل إن الذى يقرأ خطب ديموسثنيس ، السياسى الأثينى ، فى تلك الفــترة لا يملك إلا أن يرى بوضوح مدى مدى امعان المدن اليونانية فى الابتعاد عن بعضها كلما زاد إمعان الملك المقدونى فى تضيق الخناق على هذه المدن وإدخالها تحت نفوذه الواحدة تلو الأخرى (٣٨)

(٣٨) راجع على سبيل المثال خطب ديموسثنيس الثلاثة التى حاول فيها أن يحث الأثنيين على مساعدة أولنثوس ضد تهديدات فيليب لها ، كذلك خطبه الثانية التى حاول فيها أن يظهر أبعاد الخطر المقدونى على المدن اليونانية .
Dem : I -- X I .

وهكذا نستطيع أن نقول إن بلاد اليونان فى الغرب ، شأنها شأن الإمبراطورية الفارسية فى الشرق ، كانت قد وصلت فى الشطر الأخير من القرن الرابع ق. م. إلى درجة الإنهاك الذى أشرت إلى أنه خلخل السياج أو الإطار الحضارى الصلب الذى كان يحيط بها ويحول دون لقائها مع الحضارة الشرقية ، بحيث لم يتبق الا قيام الظرف التاريخى المناسب ليتم هذا اللقاء .

الباب الثالث

مقدونيه والاسكندر وقيام العصر الجديد

١ ـ ظهور مقدونيه والسيطرة على اليونان وعلى الشرق

رأينا أن المنطقة التى كانت تقوم فيها الامبراطورية الفارسية من جهة والمنطقة التى كانت تشكل العالم اليونانى من الجهة المقابلة ، كانت كل منها قد وصلت فى الشطر الأخير من القرن الرابع ق . م ، إلى الوضع الذى يمكن من لقاء حضارى بينهما إذا توفر الظرف التاريخى اللازم لتحقيق هـــذا اللقاء . وقد قام هذا الظرف فعلا فى تلك الفترة ، وتجسد فى ظهور مقدونيه كقوة صاعدة فى القسم الشمالى لشبه جزيرة البلقان ، واتباع هذه القوة لسياسة تستهدف السيطرة على المدن اليونانية وتتطلع إلى السيادة على الشرق .

وقد بدأت هذه السياسة تظهر بشكل واضح على يد فيليب ، ملك مقدونية ، منذ أوسط القرن الرابع ق . م . فقد أدرك هذا الملك مدى التفرق الذى أعملته الروح الانفصالية بين المدن اليونانية ، وخطط سياسته إزاء هذه المدن على أساس الانتفاع بذلك كل الانتفاع .

وهكذا وجه فيليب ضرباته إلى أسس نظام المدينة ، التى قد تصمد فى صراع يقوم بين مدينة وأخرى ولكنها لا يمكن أن تصمد فى صراع يقوم بين هذه المدن بما هى عليه من تفرق ، وبين قوة كبيرة كمقدونية فهو

يضغط عسكريا على مدينة فى الوقت الذى يهادن فيه مدينة أخرى ، وهو فى انتقائه لضحاياه يتوخى المناطق التى تطل على الطرق البحرية التى تمر بها المراكب المحملة بالقمح إلى بلاد اليونان ، ومن ثم تسيطر على مصادر الخبز اليومى لهذه المدن . بل هو يدفع استغلال هذه الظروف الاقتصادية إلى أقصى حد ، فيخاطب مصالح الطبقات التى تعتمد على التجارة الخارجية لتموين المدن ، تارة عن طريق الذهب وتارة عن طريق الوعد بتأمين طرق الملاحة لهم ، وبذلك يضم أفراد هذه الطبقات إلى جانبه ويتسرب بهذه الوسيلة إلى داخل المدن اليونانية ليفرض نفوذه من الداخل ممهدا بذلك لاخضاعها النهائى لسيطرته . وهكذا تسقط أمامه أمفيبوليس Amphipolis (٣٥٧ ق . م) ، وبيدنه Pydna وبوتيدايه Potidaea (٣٥٦ ق . م) وخالكيديكه Chalkiaike (٣٤٩) وأولنثوس Olynthos (٤٣٨) وغيرها ، وأخيراً تنهار القوة الباقية فى بلاد اليونان أمام قواته فى موقعه خايرونيه Chaeronnea (٢٣٨ ق . م) التى ينتصر فيها على القوات المشتركة لأثينة وطيبة ، ثم ينهار فى نفس السنة النظام السياسى للمدن اليونانية من أساسه ، وإن ظل محتفظا بشكله ، بعد أن يجبرها فيليب على تكوين الحلف اليونانى ، أو حلف كورنثة تحت زعامته التى لا تختلف فى جوهرها عن أية سيطرة إمبراطورية .[٣٩]

هكذا إذن انهارت مقومات نظام المدنية الذى كان بمثابة الاطار الذى

---

(٣٩) Dem : I, II, III Iv, vI. IX, X, XI, XII.
Bury : op. cit. . pp. 701-731.

قامت بداخله الحضارة اليونانية والذى ربط بين أجزائها المختلفة وأبقى على تماسكها بالدرجة التى تحول دون اندماجها بشكل كامل مع العناصر الحضارية المنبثقة من الشرق . وقد كان هذا الانهيار فى حد ذاته عاملا من شأنه أن يمهد السبيل أمام امتزاج الحضارة اليونانية مع أية حضارة أخرى تتصل أو تلتقى معها .

ولم يكتف فيليب بالسيطرة على بلاد اليونان وإنما يمم ناظريه نحو الشرق . ففى السنة التالية لتكوين الحلف اليونانى (٣٣٧ ق . م.) يعقد أعضاء هذا الحلف ، بزعامة فيليب اجتماعا فى كورنثة يقررون فيه أن يحاربوا الامبراطورية الفارسية (إنتقاما لما قام به الفرس ضد أجدادهم على أيام خشيارشاه Xerxes) وقد تم انتخاب فيليب فى هذا الاجتماع قائدا أعلى للقوات اليونانية ، وتم الاتفاق على حجم القوات وعدد السفن التى ستشترك بها كل مدنية . وهكذا يبدأ فيليب فى الاستعداد لغزو آسية (وإن كان من المرجح أنه لم يكن يفكر فى هذا المجال فى أبعد من حدود آسية الصغرى) ويرسل فى ٣٣٦ ق . م عددا من القوات بقيادة بارمينيو Parmeneo وأمينتاس Amyntas وأتالوس Attalos بغرض السيطرة على مضيق الهلسبونتوس (مداخل البحر الاسود) وأحرز بعض المواقع على شواطىء هذا المضيق فى شبه جزيرة آسية الصغرى ، على أن يتبع هو هذه الحملة الطليعية بالقوة الرئيسية بعد فترة ، ولكن القدر لا يمهله فيسقط صريعا على يد أحد رعاياه فى نفس السنة .

هكذا إذن أستطاع فيليب أن يخلخل الإطار السياسى والحضارى للعالم اليونانى ، وبدأ محاولته للسيطرة على الشرق ، وإن كان موته قد

حال دون تحقيق ذلك . وقد خلف الاسكندر أباه فيليب على عرش مقدونية كما خلفه فى زعامـة الحلف اليونانى الذى كان ، كما رأينـا ، أداة لسيطرة مقدونية على المدن اليونانية والتدخل فى شئونها وإن لم يـكن كذلك من الناحيه الرسمية . ولـكن الاسكندر لم يـكتف بهذه الزعامة التى ورثها عن أبيه ثم وطدها بالفيالق المقدونية حين أرادت إحدى هذه المدن ، وهى طيبه ، أن تظهر تذمرها وتتمرد على هذا الحلف ، وإنما نجده يرمى ببصره إلى المنطقة التى حالت الظروف دون امتـداد النشاط السياسى والعسكرى لفيليب إليها وعبر النطاق التقليدى الذى عرفه اليونان فى المجال الدولى منذ أن أصبح لليونان سياسة خارجية دولية فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس ق . م . وهكذا يقدم ، وهو بعد فى العشرين من عمره ، على مغامرة عسكرية قدر لها أن تنتهى بسيطرته على المنطقة التى تمتد من الساحل الغربى لآسية الصغرى غربا حتى شواطىء المحيط الهندى شرقا والتى كانت تضم أملاك الامبراطور الفارسى . وبذلك يفجر الظرف التـاريخى اللازم للاندماج الحضارى بين الشرق والغرب بعـد أن شملت منطقة نفوذه العالم اليونانى والشرق معاً .

إن الاسكندر سيبدأ مغامرته هذه فى ربيع ٣٣٤ بموقعة نهر جرانيقوس التى تفتح له أبواب آسية الصغرى ، ثم تنهـار أمامه المدن الليدية مثـل سارديس والمدن اليونانية مثل إفسوس وميليتوس وهاليكارناسوس ، وهو يستمر بعد ذلك فى غزو بقية شبه الجزيرة لتسقط أمامه مدن أقسامها الأخرى وهى ليقية وبامفيليه وفريجيه وينتهى سيطرته على هذه المنطقة بأن يدحر قـوات الملك الفارسى فى إسوس Issos على حـدود سورية فى

٣٣٣ ق . م . ويستمر الاسكندر الأكبر فى طريقه جنوبا فيستولى على مدن فينيقية التى استسلمت جميعها ، فيما عـــدا صور وغزة اللتين كان لا بد أن يأخذهما عنوة ، ثم ينحدر إلى مصر التى دخلها فى ٣٣٢ ق . م . دون معركة، كمحرر لها من النير الفارسى . وفى ٣٠ سبتمبر من نفس السنة يقضى على الجيش الثانى للامبراطور الفارسى فى جوجميله بأعالى نهر دجلة ويفتح له انتصارة هذا أبواب العواصم الآسيوية الكبرى : صوصة وبرسوبوليس ، ويعقب هذا فى ٣٣٠ بالاستيلاء على عاصمة ميدية والجلوس على عرش فارس ، ثم يوسع دائرة فتوحه فيصل إلى شواطىء بحر قزوين وإلى بارثيه ثم إلى باكتره فى ٣٢٩ وإلى حدود الهند فى ٣٢٧ ويعود بعد ذلك إلى بابل حيث يموت فى ٣٢٣ ق . م . بعد إحدى عشرة سنة من حياة المعركة جعلت من صاحب السيطرة على اليونان سيدا للنصف الشرقى من العالم المعروف .

٢ ـ شخصية الاسكندر

ولكن هـذه الفترة لم تكن مجرد سنوات من الغزو والفتح ، وإنما قدر لها أن تشهد عنصراً آخرى غـــير النشاط العسكرى الذى ارتفع بالاسكندر إلى الذروة ، وكان هذا العنصر هو النظرة الجديدة للحاجز الذى كان قائماً حتى ذلك الوقت بين الغرب والشرق ـ بين بلاد اليونان والمنطقة التى كانت تمتد فوقها الامبراطورية الفارسية . لقد ظلت هذه النظرة موضع تساؤل حتى هذه اللحظة ، واختلف تفسيرها بين من ينادى بأن الاسكندر أراد أن يقيم نظاما عالميا يمزج فيه مزجا تاما بين حضارة الشرق وحضارة الغرب فى كافة الجوانب السياسية والثقافيـة والاجتماعية ، وبين من يقول

إن الاسكندر لم يقصد الى شيء من هذا ، واذا كان قد ظهر من بين أعماله ما يشير الى هذا الاتجاه فانما كان من باب الدهاء أو الاضطرار السياسى دون أن يقوم على أساس من الايمان بفكرة أو مبدأ(٤٠).

ولست هنا بسبيل الخوض فى حقيقة ما كان يقصد اليه الاسكندر فى هذه الجوانب ، ولكنى أريد أن أناقش ما حدث فعلا فى جانب واحد ، وهو الذى يتعلق بالنظرية أو القاعدة التى أراد الاسكندر أن يقيم عليها حكمه وبالطريقة التى اتبعها فى تطبيق هذه النظرية فى الادارة الداخلية وفى تصريف الشئون الخارجيـــة ، وهى النقط التى أثرتها فى بداية الحديث لتكون موضع مقارنة بين النظام اليونانى والنظام الشرقى ، لنرى إلى أى حد كان عصر الاسكندر نواة للعصر المتأغرق ، أو عصر الاسكندرية ، الذى تداخل فيه النظامان أو وجدا جنبا إلى جنب فى عالم تربط بين أجزائه رابطة حضارية واحدة ، هى الثقافة الإغريقية .

ولنبدأ بالكلام عن القاعدة . وسيكون محور الحديث هنا هو إلى أى حد اقترب الاسكندر من فكرة الحق الالهى ليسير على النمط الشرقى أو ابتعد عنها ليسير على النمط اليونانى . وفى هذا المجال نستطيع أن نميز مناسبات ثلاثة فى حياة الاسكندر السياسية يمكن أن نعتـــبرها علامات

---

(٤٠) راجع على سبيل المثال :

P. Jouguet : Trois Etudes sur l'Héllénisme, pp. 42 sq.
W.W. Tarn : Alexander the Great, II, 378 sq.

لمراحل ثلاثة مرت بها فكرة الاسكندر عن نظرية الحكم . أما المناسبة الاولى فهى زيارة الاسكندر لمعبد آمون بواحة سيوه . وقد نوقشت هذه الزيارة على نطاق واسع واختلفت الاراء فى حقيقة مادار بين الاسكندر وكاهن آمون وفيما قيل عن بنوة الاسكندر لهذا الاله ، وهل كان الاسكندر يعتقد حقا فى هذه البنوه ، كما ظهر من يحاول أن يربط بين هذه الزيارة وبين ما يروى عن زيارة هراكليس Herakles وبرسيوس Perseos ـ وهما من أجداد الاسكندر ـ لمعبد آمون فى سيوه من قبل ، وما يروى عن ميلاد الاسكندر نتيجة لاتحاد جزئى بين والدته أوليمبياس Olympias وبين هذا الإله (٤١).

ولست هنا بسبيل مناقشة هذه التفسيرات ، ولكنى أود أن أشير إلى موقف أو موقفين لهما صلة بهذه المرحلة ولهما علاقة بما قاله الاسكندر أو قام به فعلا . لقد ذكر الاسكندر فى مناسبتين قبل زيارة سيوه (كانت ثانيتهما وهو فى الطريق اليها) أن العناية الالهية كانت ترعاه فيما

---

(٤١) Jouguet : op. cit., pp. 21-6; Tarn : op. cit., p. 353 والذى أثار المناقشة نص ورد فى Arrianos, III, 3 ينقل فيه عن Kallisthenes (fr. 14) ما مؤداه أن الغرض من زيارة الاسكندر لسيوة هو تقليد برسيوس وهراكليس ، وهما من أجداده ، اللذين زارا سيوه من قبله . ثم يمضى فى نفس الجملة ليقول « كذلك كان ينتسب الاسكندر جزءا من مولده إلى آمون كما تنسب الأساطير جزءا من مولد كل من برسيوس وهراكليس الى زيوس »

يقدم عليه من تصرفات . حقيقة إنه ربما كان يعنى فى المناسبة الأولى ـ التى كانت قبل أن يصل إلى مصر ـ الها غير آمون ، قد يكون زيوس مثلا أو غيره من الالهة اليونانية ، ولكن المناسبة الثانية تشير فى كثير من الترجيح إلى أن آمون كان هو الاله الذى يعنيه الاسكندر . وعلى كل حال ، فسواء أكان المقصود هو آمون أو غيره ، فهذا لا يغير شيئا من الحقيقة ، وهى أن الاسكندر كان يعتقد أن هناك نوعا من التوجيه الالهى لما يقوم به من أعمال . أما الموقف الثانى الذى يؤكد هذه الفكرة فهو أن الاسكندر أعلن بعد زيارته لآمون ، أن هذا الاله نصحه بخصوص الآلهة التى يجب أن يقدم الاسكندر اليها القرابين ، كما أعلن أنه سأل آمون عن مدى النجاح الذى سيحرزه فى حملته على أملاك الامبراطور الفارسى ، وأن الاله أسدى اليه النصح فى هذا المجال (٤٢).

وقد يكون أهم من هذين الموقفين ، موقف آخر يصور لنا الاسكندر وهو يقول إن آمون هو أبو البشر جميعا ولكنه يجعل خيرهم أو أفضلهم أبناء مقربين اليه . وهكذا نرى أن الاسكندر كان يعتقد أن بينه وبين آمون صلة أقوى من تلك التى بين الاله وبين عامة البشر (وان كان من الممكن بطبيعة الحال أن يشاركه هذا الامتياز غيره من المقربين) وأنه ، كان ينظر اليه على أنه حاميه ومرشده وناصحه بل ربما كان الاسكندر

---

(٤٢) عن المناسبة الأولى قبل أن يصل الى مصر أنظر : Arr. : VI, 3, 1 ، وعن المناسبة الثانية (المطر فى الطريق إلى سيوه) Ibid. : III, 3, 4

ينظر الى هذه العلاقة على أنها كانت أكثر من هذا ، وأنها كانت نوعا من البنوه الروحية ، وان كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك مادمنا لا نعرف مادار بينه وبين كاهن آمون (٤٣) .

ولكن على أى الأحوال ، فان موقف الاسكندر واضح من خلال المرحلة بأكلها ، وهو يشير الى حقيقة واضحة هى أنه بدأ ينظر الى تصرفاته فى الشئون العامة على أنها بتوجيه من الآلهة أو على الأقل تحت رعايتهم . ولكن لعل الذى يهمنا من الناحية العملية أكثر من هذه المواقف جميعا هو حقيقة ثابتة مؤداها أن الاسكندر نصب رسميا كفرعون لمصر على أساس هذا الحق الالهى . فالآثار التى تشير الى هذا التنصيب تظهر لنا هذا العنصر الالهى بشكل واضح . فهو « ابن رع » وهو بصفته ملكا للوجهين القبلى والبحرى « حبيب آمون والمقرب الى رع » ، وهو « حورس » ، الأمير القوى وحامى مصر . حقيقة إن كهنة آمون كانوا يضفون هذه الألقاب على كل من يصبح فرعونا لمصر ، ولم يختصوا بها الاسكندر لذاته ، وكذلك ربما لم يؤمن الاسكندر اطلاقا ، أو لم يؤمن ايمانا كاملا ، بصلته بالآلهة المذكورة بالشكل الذى ذكرت به . ولكن هناك حقيقة لايمكن إلا أن تظل ثابتة من خلال هذه الشكوك : وهى أن الاسكندر قد قبل هذه الالقاب بصفة رسمية ، وأكثر من هذا أنه قبلها

(٤٣) عن نصائح آمون للاسكندر أنظر Arr. : VI, 19, 4 . عن أن آمون أبو البشر جميعا ولكنه يقرب اليه أفضلهم Plut. : Alex., XXVII

وهو يعرف أن جنوده من المقدونيين واليونان لابد ان يعلموا بذلك ، وهذا امر له أهميته فى مجال تحديد النظرية كان الاسكندر يريد أن يقيم حكمه على أساسها ، إذ لا يمكن بحال أن نقول أن الاسكندر قبل ذلك لمجرد التمشى مع التقاليد السياسية فى مصر فحسب وأنه كان يخشى ان يتجاهلها أو يخرقها خوفا من إثارة مصاعب فى سبيل سيطرته على مصر ، لأنه بقبولها كان قطعا يتجاهل ويخرق تقاليد اليونان والمقدونين فى نظرتهم إلى الحاكم وطبيعة سلطته ، وهو أمر كان من المحتمل أن يثير أمامه بعض المصاعب كذلك على أساس أنه ربما أثار جانبا من الشك فى نفوس هؤلاء الجنود فيما يختص بعلاقته المستقبلة بهم ، التى ربما نحا فيها نفس النهج الذى انتحاه مع المصريين . وهكذا نستطيع أن نقول إن إيمانه بنظرية الحق الالهى (حتى ولو لم يكن يعتقد فى هذه المرحلة فى الوهية نفسه) كان من الرسوخ بحيث جعله يتجاهل هذا الاعتبار الأخير .

المناسبة الثانية التى تميز مرحلة جديدة فى مجال فكرة الاسكندر عن أساس الحكم تظهر فى باكتره Bactra حين حاول أن يدخل بين الطقوس السياسية طريقة السجود Proxynesis أمامه ، وهى الطريقة التى كان الفرس يتبعونها عند مقابلتهم للشاه ، وهو المنصب الذى أصبح الاسكندر يحتله الآن . وأهمية هذه المناسبة هى أنها كانت خطوة أكثر جرأة من الذى حدث فى مصر . ووجه هذه الجرأة أنه إذا كان أعطاؤه نوعا من القدسية الالهية كفرعون أمرا يمس المصريين فحسب مساسا مباشرا بينما لا يمس المقدونين واليونان إلا بشكل غير مباشر باعتبار ما يحتمل أن يحدث

فى المستقبل كما أسلفت ، فان الموقف فى باكترة كان غير ذلك ، إذ أن الاسكندر هنا يحاول أن يحمل رعاياه جميعا ، فرساً ومقدونيين ويونانيين ، يسجدون أمامه ولا يقتصر هذا على الفرس فحسب ، كما قصر قداسته الرسمية كفرعون لمصر ، على المصريين . وحقيقة إن هذا السجود كان لا يعنى عند الفرس أى نوع من التأليه للملك ، ولكن الأمر كان غير ذلك عند المقدونيين واليونان ، فعند هؤلاء كان السجود يتصل أساسا بالعبادة وكان بوصفه هذا حق للآلهة فحسب ولا يمكن أن يتم إلا لهم وأمامهم .

وقد أبدى المقدونيون واليونان من جنود الاسكندر شعورهم هذا بكل وضوح حين أقدم الاسكندر على محاولته ، فالمقدونيون أظهروا غضبهم ، بل لقد حدث ما هو أنكى من ذلك إذ انفجر أحد القواد ضاحكا فى سخرية إزاء هذه المحاولة ، أما عن اليونان فان أول من دعى منهم ليسجد أمام الاسكندر ، وهو كالثسنيش Kallisthenes رفض أمر الاسكندر ، وقال للاسكندر مشيرا إلى فكرة السجود هذه ، ما مؤداه أن العادات الآسيوية يجب أن تظل قاصرة على الاسيويين (٤٤) .

حقيقة أن الاسكندر لم يقدم على هذه المحاولة مرة ثانية ولكن المحاولة مع ذلك كان لها مغزاها الذى لا يمكن تجاهله فى مجال الحديث

---

(٤٤) أنظر مناقشة الفكرة ومصادرها فى :

Tarn, op. cit. p. 359

عن فكرته عن نظرية الحكم . فالاسكندر كان يدرك كل الادراك مغزى السجود عند المقدونيين واليونان ومدى الأثر الذى كان يمكن أن تتركه فيهم رغبته فى هذا الصدد ، تدلنا على ذلك الطريقة التى قدم بها رغبته والتى كانت تنطوى على كثير من الحذر والتدبير ، وعلى هذا فان إقدامه على موقفه رغم إدراك هذه الصعوبة يشير إلى مدى جدية رغبته فى أن يقيم حكمه على أساس من الحق الالهى فى المنطقة التى تقع فى دائرة نفوذه ، سواء فى إمبراطوريته فى الشرق أو فى مقدونية وبلاد اليونان التى كانت تحت سيطرته فى الغرب . بل إن التفسير الوحيد لما حدث فى الواقع هو أنه بمحاولته هـــذه التى لم تقتصر على الفرس وإنما جمعت معهم المقدونيين واليونان ، كان يهدف إلى أن يكون إلهـا للامبراطورية إذ أن إله الامبراطورية (بصفته هذه السياسية أساسا) هو الاله الوحيد الذى كان يمكن ، لو نجحت المحاولة ، أن تقبله هذه العناصر الثلاثة جميعا .

* * *

كانت هذه إذن هى فكرة الاسكندر التى تجسدت فى محاولته فى باكترة ، وهى محاولة لن تبدو لنا على شىء كبير من الغرابة إذا أدخلنا فى اعتبارنا الأفكار المتعلقة بنظرية الحكم والتى وقع الاسكندر تحت تأثيرها أو التى كانت شائعة فى العصر الذى وجد فيه ، وهى أفكار تبدو على تناسق تام مع فكرة إله الامبراطورية التى نحن بصدد الحديث عنها . وأول هذه الافكار كان مصدره الخطيب السياسى ايسكراتيس Isokrates الذى كان من أنصار غزو آسية والذى كتب إلى فيليب ، والد الاسكندر ، ذات مرة يقول له إنه إذا انتصر على الامبراطور الفارسى وغزا أملاكه فلن يتبقى

أمامه إلا أن يصبح إلها ومن المحقق أن الاسكندر قرأ هـذه الرسالة التى نشرها ايسكراتيس وعرفها كل اليونان فى ذللق الوقت , بل أكثر من هذا لقد كان لدى الاسكندر الاستعداد لاتباع آراء هذا السياسى فهو قد اتبع نصيحته فعلا فى مسألة أخرى كان ايسكراتيس قد كتب بخصوصها إلى فيليب كذلك ، وهى تخص إنشاء مدن على النمط اليونانى فى آسية ـ بعد أن يغزوها الملك المقدونى ، وقد أسس الاسكندر فعلا عدداً كبيرا من هذه المدن كانت من بينها الاسكندرية ، بعد أن غزا أملاك الامبراطور الفارسى (٤٥) .

أما الفكرة الأخرى التى لا بد أن يكون الاسكندر قد تأثر بها فى هذا المجال فهى فكرة الملكية التى ذكرها أرسطور فى كتاب السياسة ذكرها ، وهو بسبيل عرضها ، أن منزلة الملك ، كنزلة الاله بين البشر ، hosper theos en anthropois رفى هذا المجال يقول أرسطو ، إننا لا نستطيع أن نقول إن مثل هذا الشخص يصح أن يخضع لارادة الآخرين (يقصد رأى الشعب أو الاغلبية) إذ نكون فى هـذه الحال كمن يقول إن زيوس (كبير الالهة) يجب أن يخضع لحكم الآميين فى ظل نظام يقوم فيه الحكم على أساس من التناوب بينهم وبينه ـ وهكـذا لا يصبح أمامنا إلا أمر واحـد هو الطريق الطبيعيـة ـ وهو أن يطيعه الآخـرون دون

---

(٤٥) Isokrates : Ep. III Phil. 106.
Wilcken : Alexnder der Grosse , p. 578 , d.3 أنظر تعليق

نزاع وعن طيب خاطر (٤٦) .

وقد حاول و . و . تارن أن يثبت أن أرسطو كان يعنى الاسكندر فعلا وهو يتكلم عن الملك الذى يجب أن يكون كالاله بين البشر » ، واعتمد فى ذلك على شواهد لغوية تتعلق بنوع الالفاظ التى استخدمها أرسطو ، وعلى شواهد أخرى استنتاجية تتصل بالظروف التى كانت قائمة فى الوقت الذى وجد فيه الاسكندر والذى كتب فيه المفكر الكبير (٤٧) . وربما كان أرسطو يعنى الاسكندر ، وربما كان لا يعنيه ، وأنا شخصياً أرى أن الادلة التى ساقها تارن على رأيه هذا ليست على جانب كبير من القوة وأن أرسطو كان بسبيل الحديث عن أحكام عامة ليس إلا ولكن سواء كانت هذه أو تلك ، فان الافكار السياسية التى نادى بها أرسطو كانت معروفة للاسكندر ، بل أكثر من هذا إن الاسكندر لم يكن بحاجة إلى قراءتها فى كتاب « السياسة » الذى شرحها فيه أرسطو ، إذ من المحقق تاريخيا أن الاسكندر عرف هذه الافكار أثناء تلمذته على أرسطو فى ميزا Mieza وهى الفترة التى لقن فيها الاستاذ تلميذه نظريات السياسة والاخلاق . ومادام الأمر يتعلق بتعليم السياسة فان نظرية الحكم الملكى لم تكن بالشىء الذى يمكن أن يهمله المفكر الكبير أو يتجاهله ،

---

(٤٦) Ariototeles : Politika, III, 13, 1284 a, sq.

أنظر المناقشة V. Ehrenberg; Alexander and The Greeks

الباب الثالث ، وبخاصة ص ٧٤

(٤٧) Tarn : op. cit. , pp. 359 sq.

بل إن الطبيعى والمنطقى أن تكون هـذه الفكرة فى مقدمة الأفكار السياسية التى لا بد أن يتلقنها وارث فيليب على عرش مقدونية على يد معلمه ومربيه .

هذا ولم يكن الأمر قاصرا على نظريات أيسكراتيس وأرسطو اللذين عرف الاسكندر أفكارهما وتأثيرها ، بل لقد كانت فكرة الملكية بالشكل الذى عرضه هذان المفكران قد بدأت تشيع إلى حد ما فى أفق التفكير السياسى اليونانى . فنحن نجد فى هذا المجال مفكرا مثل ديوتوجينيس Diôtogenes الذى كان ينتمى إلى مدرسة فيثاغورس يثير ، مرة أخرى ، الفكرة التى نادى بها أرسطو فيما يتعلق بوضع الملك ، ويعلق عليها برأى مؤداه أن موقف الملك من الشعب مثـل موقف الله من العالم ومن ثم لا يجب أن يقدم حسابا عن أعماله لأى شخص ، ثم يبلور نظريته بقوله « وحيث أن الملك هو تجسيم للقانون الذى يسود الدولة فاننا يجب أن ننظر إليه كما ننظر للإله بين البشر » (٤٨) .

هكذا إذن كان لا بد أن يتأثر الاسكندر بالافكار التى أحاطت به فيما يتعلق بفكرة الحكم . وقد حاول ، كما ذكرت ، أن يضع هذه الفكرة موضع التنفيذ فى باكتره ، وان كان قد أقدم على محاولته فى شىء من

---

(48) Stobaeos: lv, 7, 61

عن تاريخ كتابة ديوتوجينيس أنظر : Tarn Alexander the Great and the Unity of Mankind (Proc . of Bitish Acad., 1933) , p. 152 n. 33.,

الحذر والتردد وبشكل غير مباشر ، يجعل فيه رعاياه يقومون نحوه بما يقوم به العباد نحوه إلههم دون أن يطلب منهم صراحة أن يعترفوا به كإله . على أن هذا الوضع لم يستمر طويلا ففى ٣٢٤ ق.م . جاءت المناسبة الثالثة التى أقدم فيها الاسكندر على هذه الخطوط . ففى هذه السنة أصدر الاسكندر مرسومين يتعلق أحدهما بعدد من المنفيين السياسيين الذى كان يود اعادتهم إلى المدن اليونانية التى نفوا منها ، والآخر يطلب فيه إلى هذه المدن فى صراحة أن يعترفوا بألوهيته (٤٩) .

وقد أثار طلب الاسكندر هذا أكثر من رد فعل بين مواطنى هذه المدن ، كما كان هناك أكثر من ظرف يبرر هـــذا الطلب على الأقل من الناحية الشكلية ويفسر الموقف الذى اتخذته المدن اليونانية ازاءه . فقد قيل مثلا إن ديموسثينيس دعا الآثينيين إلى اجابة مطلب الاسكندر فيما يتصل بفكرة الألوهية كوسيلة لمساومته على عدم اجابة المطلب السياسى الآخر ، كما حكم الآثينيون بالاعدام على ديماديس ، المواطن الآثينى الذى قدم الاقتراح ، بمجرد أن واتتهم الفرصة بعد وفاة الاسكندر . كذلك نجد الاسبرطيين فى تهكمهم المعتاد يقولون « فليصبح الاسكندر الها إذا كان

---

(٤٩) Diod. xvlll, 8, 4.

عن موقف اليونان من هذا المطلب أنظر : Athen: vl, 25, 13,

Plut. Lakon. Apophteg., 219 E-F, Hypereid. Cont. Dem.

عن مناقشة هذا الموقف أنظر : Jouguet, op. cit., pp.45-6

Tarn : op. cit, 37 sq.; A. D. Dock : Noies on the Ruler Cult, J.H.S: XL Vlll, pp. 21—43

يريد أن يكون الها » . كذلك من الممكن أن نقول إن المدن اليونانية وافقت على تألية الاسكندر بدافع من خوفهم منه وإنها لم تكن تملك إلا الاستجابة لكل ما يتقدم به الزعيم المستبد لحلف كورنثة من مطالب، كما نستطيع كذلك أن نقول إن إضافة إله جديد إلى مجموعة الآلهة التى عرفها اليونان لم يكن بالأمر العسير لدى قوم لم يعرفوا التوحيد وإنما كانوا ينظرون إلى تعدد الآلهة وتزايد عددهم على أنه أمر طبيعى .

ولكن مهما كانت الظروف أو الأسباب فهناك حقيقتان ثابتتان فى هذا المجال : إحداهما تخص موقف الاسكندر والأخرى تخص موقف المدن اليونانية من هذه المسأله ، وكلتا الحقيقتين تشير إلى اتجاه سياسى . أما عن موقف الاسكندر فيبدو فيه المزج واضحا بين الدين والسياسة على أساس أن الأول دعامة للثانية ، فهو من الناحية الرسمية كان لا يستطيع أن يطالب إلى المدن اليونانية ، كزعيم لحلف كورنثه ، أن يسمحوا للمنفيين السياسيين بالعودة ، لأن هذا كان يعتبر تدخلا فى الشئون السياسية الداخلية لهذه المدن وهو مالا يتفق ونصوص هذا الحلف . ولكن إذا كانت نصوص الحلف ملزمة له كملك للمقدونيين بعدم التدخل ، فانها لم تكن ملزمة له كإله لليونانين له الحق أن يتصرف كما يشاء . أما من جانب المدن اليونانية ، فمها قيل فى تفسير أو تبرير موافقتها على مطلب الاسكندر، فان هذه المدن كانت تدرك كل الإدراك أن تأليه الاسكندر لا يمكن أن يكون خلوا من المغزى السياسى ، وأن الاسكندر الإله لا يمكن أن يكون شخصا منفصلا عن الاسكندر الزعيم السياسى .

هذا عن قاعدة الحكم التى تبلورت فى الفترة التى قامت فيها امبراطورية الاسكندر وعن الظروف والتى أحاطت بها ، ونحن نستطيع أن نميز فيها اتجاها واضحا من جانب الاسكندر نحو العنصر الشرقى الذى يتمثل فى نظرية الحق الالهى للحاكم ، وإن كنا نلمس فى نفس الوقت شيئا من التردد والحذر فى خطواته قبل أن يفصح نهائيا عن فكرته بشكل صريح مباشر .

وقد رأينا أن السبب فى هذا التردد كان موقف اليونان والمقدونيين الذين كانوا أبعد ما يمكن عن هضم هذه الفكرة ، وإن كانت المدن اليونانيه قد بدأت فى النهاية تسلم بالأمر الواقع تحت وطأة السيطرة الفولاذية من جانب الاسكندر ، وهى سيطرة لم يستطيعوا ، رغم أكثر من محاولة ، أن يجدوا منها فكاكا .

وقد كانت فكرته عن السياسة الداخلية على اتساق مع فكرته عن قاعدة الحكم . حقيقة أن الاسكندر كان يرى فى أثينه معقد الأمجاد اليونانية وكان يعتقد أنها وصلت إلى الذروة فى مجال الحضارة اليونانية التى كانت تنزل من نفسة أكبر منزلة ، وكان يكن لأثينه ، تبعا لذلك قدرا كبيرا من الاحترام والاعجاب . ولكن كل هذا لم يؤثر فى نظرته إلى الحكم الديمقراطى أو الشعبى الذى كان يسودها والذى كانت تمثله خير تمثيل . فهو كملك كان حكمه يميل بالضرورة نحو السلطة الفردية ولو بشكل جزئى ومن ثم لم يكن متحمسا للنظام الشعبى الذى كان يمثل ذروة الفكرة الجماعية التى وصلت اليها بلاد اليونان فى ميدان نظم الحكم ، وإنما كان اعجابه ببلاد اليونان يقترب من التعلق العنصرى العاطفى بقدر

ما يبتعد عن التقدير السياسى الواقعى ، فهو يعــــرف الكثير عن عصر الأبطال الذى تتجاوب أصـداؤه فى الأشعار الهومرية وهو يحمل معـه أثناء حملته نسخة من الالياذة صححها أرسطو وراجعها أناكسارخوس وكالسثنيس ، وهو يصف هذه الحملة بأنها تهدف إلى الانتقام من الفرس الذين غزوا بلاد اليونان ونهبوا أماكنهـا المقدسة قبل ذلك بمائة وخمسين عاما ، وهو حين يصل إلى آسيا الصغرى يحج إلى طروادة ويزور فى خشوع مقبرتى أخيليوس وباتروكاوس ويقدم التضحيات للبطل بروتيسيلاس ، وهو أول يونانى سقط فى ميدان المعركة على الشواطىء الآسيوية عندما كان اليونان بسبيل غزو طروادة (٥٠).

هذه هى بلاد اليونان التى كان الاسكندر يعجب بها ، بلاد تمثـــل الأمجاد الهومرية والأبطال الهومريين والجو الهومرى بوجـه عام ، وهو جو يبتعد كثيراً فى تنظيمه السياسى عن ذلك الذى وصلت اليـــه بلاد اليونان فى الفترة التى عاصرت ظهور الاسكندر ، ويسوده تنظيم ملكى فى طريقه إلى تنظيم أرستقراطى ، وكلاهما يبتعد عن النظام الشعبى الأثينى بقدر ما يقترب من نظام الحكم الفردى. ولعل هـــذا الوضع السياسى الهومرى كان أقرب إلى نفس الاسكندر وإلى تفكيره كحاكم بسبب قربه من الوضع السياسى فى مقدونية ، الذى كان الملك فيه ، بعد مبايعة القوات المقدونية المحاربة له ، يتمتع بقدر كبير من فردية التصرف ، إذ لم يكن لهذه القوات المحاربة . كممثلة للشعب ، أى صوت سياسى خارج

---

(٥٠) Arrian . : I, 11.

المسائل المتعلقة باعتلاء العرش والخيانة الوطنية التى يكون الملك طرفا فيها (٥١) . هـــذا عن موقفه من المدن اليونانية ، ولا حاجة بى إلى الحديث عن موقفه من الإمبراطورية فقد كان حكمه فيها إمتداداً للحكم الفردى المطلق الذي عرفته تحت السيطرة الفارسية .

* * *

بقى ميدان السياسة الخارجية ، وهنا أيضا نجد الاسكندر يقـــترب كثيرا من النظـام الشرقى الذى ظهرت فيـــه فكرة الامبراطورية وما يتصل بها بالضرورة من السيطرة على عناصر وأجناس مختلفة . وفتوح الاسكندر وإمبراطوريته أوضح دليل على تبلور هذه الفكرة عند الاسكندر وقد أفصح الاسكندر عن فكرته هذه فى مناسبتين بما لا يدع مجالا للشك فى أعتناقه لفكرة الإمبراطورية بمدلولها الذى أشرت اليه . أما المناسبة الأولى فكانت عندما وصل الاسكندر إلى مدينة صور على الساحل السورى ، وهنا يذكر لنا المؤرخ أريانوس أن دارا ، الامبراطور الفارسى ، أراد أن يصل مع الاسكندر إلى صلح يجعل من نهر الفرات حداً فاصلا بين أملاكهما . وهنا يقول بارمينيو ، أحد أتباع الاسكندر « لو كنت أنا

(٥١) فيما يخص النظام السياسى فى مقدونية راجع عن سلطات الملك :

F. Haypl : Der Koenig der Makedonen

وعن سلطات القوات المحاربة راجع :

F. Granier ; Die Makedonische Heeresversammlung

الاسكندر لقبلت ، فيجيبه الاسكندر « كذلك كنت أقبل ، لو كنت بارمينيو »(٥٢) مشيرا بذلك إلى أنه ـ أى الاسكندر ـ لا يمكن أن يقف عند هذه الحدود وإنما لا بد أن يصل بامبراطوريته إلى حدود العالم المعروف ومن ثم يفرض سيطرته على كافة الشعوب والأجناس المعروفة .

أما المناسبة الأخرى فهى الخطاب الذى أرسله إلى دارا فى ٣٣٣ ق.م. وفيه يصف نفسه بأنه « سيد آسيه » ثم يستمر فى مخاطبة دارا قائلا « لقد تغلبت على قوادك وولاتك فى المعركة ، والآن انتصرت عليك وأصبحت أمتلك أراضيك بفضل الآلهة . وهكذا يجب أن تراسلنى الآن على أنى ملك آسيه العظيم ، وحاذر من أن تكتب إلى كما تكتب لندلك ، ولكن اذكر دائماً عندما تلتمس مطلبا منى أنى سيد كل ما تملكه » (٥٣) وهكذا مرة أخرى ، يسمع بجلاء ، نبرة الامبراطورية والسيطرة على الأجناس المختلفة التى تقطن آسية وكل المناطق التى يملكها الملك الفارسى .

ولكن إذا كان الاسكندر قد نظر إلى نفسه على أنه امبراطور على المناطق التى كان يملكها الملك الفارسى ، فقد كان موقفه مختلفاً فى بلاد اليونان ـ فهو رغم سيطرته الفعلية إلى حد كبير على المدن اليونانية كان لا يزال يعتبر نفسه من الناحية الرسمية مجرد زعيم لهم اختاروه من بينهم. يظهر ذلك فى بداية رسالته التى أرسلها إلى دارا والتى أشرت اليها منذ قليل حيث يستهلها بقوله « إن أسلافك قد أغارو على مقدونية وبقية بلاد

---

(٥٢) Diod. : xvll, 54; Arrian . ll, 24.

(٥٣) Arrian ; ll, 14 - 15.

اليونان وأصابونا بالضير بغير وجه حق . وقد عينني اليونان قائدا وزعيماً لهم وإني أعبر (البحر) إلى آسيه لكي أنتقم لهم » .

وقد أشرت في مناسبة سابقة إلى أن الاسكندر لم يلتزم الحدود الرسمية أو التقليدية لهذه الزعامة ، فطغى عليها في غير مناسبة كانت من بينها المناسبة التي طلب فيها إلى المدن اليونانية إعادة المنفيين السياسيين على نحو ما فصلت في مكان سابق . وهكذا يتأرجح الاسكندر مرة أخرى بين المفهوم اليوناني والمفهوم الشرقي لفكرة السياسة الخارجية وإن كان تأرجحه هذا يميل بشكل ظاهر نحو الجانب الشرقي .

٣ ـ نهاية الاسكندر وقيام حكم خلفائه

هكذا كانت شخصية الاسكندر ، تتأرجح بين المفهوم الحضاري الشرقي وبين المفهوم اليوناني ، وفيها تأثر بنشأته في بيت حاكم مقدوني يسير على نمط سياسي يجمع إلى حد ما بين المفهومين ولا يستطيع أحد أن يعرف ماذا كان يمكن أن يتم ، حضاريا ، في المنطقة التي امتد عليها نفوذه لو أن الأجل قد طال بالاسكندر ، وهل كان التيار الشرقي هو الذي سيتغلب على نظيره الغربي أو العكس ، أو أن نظاما عالميا تذوب فيه التيارات في تكوين حضاري واحد كان سيقوم في المنطقة . ولكن الذي حدث هو أن الاسكندر مات في ٣٢٣ ق. م. ، وبموته تحددت معالم العصر الجديد الذي انفتح فيه الشرق على الغرب في الحدود التي أسلفت الإشارة إليها والتي كانت شخصية الاسكندر وسيطرته في الغرب وفتوحاته في الشرق هي أداتها .

وقد كانت امبراطورية الاسكندر عند موته تمتد فوق مناطق تنتمى ثلاث قارات . ففى أوربه كانت مقدونيه هى مقر الامبراطورية نزها وفى آسية كانت الامبراطورية تشمل الإمتداد الأراضى الذى يحده إيجه غربا ومنطقة البنجاب الهندية فى الشرق بينما يحده فى الشمال خط يمتد تقريبا بين منطقة القوقاز وبحر الخزر وتتاخمة فى الجنوب شبه جزيرة العرب ، ولا يخرج من كل هذا الامتداد من الأراضى عن سيطرة الاسكندر إلا بعض مناطق فى شبه جزيرة آسية الصغرى هى أرمينيـــه والشريط الشمالى لشبه الجـــزيرة ، وكانت مصر هى المنطقة التى تمثل امتداد الامبراطورية فى القارة الإفريقية . هذا بينما كانت أغلب المدن اليونانية فى شبة جزيرة البلقان تدين له بالسطرة كأعضاء فى الحلف اليونانى (أو حلف كورنثة) الذى كانت تتزعمه مقدونيـة ، كما كانت المـدن اليونانية الواقعة فى آسية الصغرى ، فيما عـــدا تلك الواقعة على الساحل الجنوبى للبحر الاسود حلفاء له خارج نطاق الحلف اليونانى .

ولنحاول الآن أن نرى ماذا تم عند موت الاسكندر . وهنا نجد أن قادة هـذا الفـاتح الشاب اجتمعوا فى بابل فى هيئة مؤتمر ليحددوا مصير الامبراطورية على الطريقة المقدونية التى أشرت اليهـا فى مناسبة سابقة والتى يشكل الجيش فيها جمعية شعبية تعالج المسائل المتعلقة بالعرش. وفى هذا المؤتمر (٣٢٣ ق. م.) استقر القواد بعد مداورات ومناورات جانبية ، على أن تبقى الامبراطورية فى بيت فيليب وأن ينتقل العرش إلى فيليب ارهيدايوس Arrhtdaeos (الذى أصبح الآن فيليب الثالث) وهو أخ غـير شقيق للاسكـدر ، على أن يشاركه فيه مولود الاسكندر من

زوجته الفارسية روكسانى Roxane إذا جاء ذكرا (وقد جاء المولود بعد وفاة الاسكندر بأشهر وكان ذكرا وأصبح بذلك شريكا لفليب الثالث تحت اسم الاسكندر الرابع) . كما اتفقوا على تقسيم الامبراطورية إلى أربعة وعشرين ولايه يحكم كل منها قائد من قواد الاسكندر بصفته واليا satrapes من قبل البيت الامبراطورى ، بينما جعلوا كراتيروس Krateros وصيا على العرش وبرديكاس Perdikkas قائدا عاماً للجيش (chiliarches) (٥٤)

(٥٤) لم يكن التقسيم الذى تم فى مؤتمر بابل هو التقسيم الوحيد ، فقد أعقبه بعد سنتين تقسيم آخر تم فى مؤتمر عقدة قواد الاسكندر فى تريباراديوس Triparadisos (الجنات أو الحدائق الثلاثة) فى سورية عام ٣٢١ ق.م. بعد أن تحالف بعض هؤلاء القواد ضد برديكاس حين رأوا أنه يهدف إلى السيطرة على أمور الامبراطورية وهزموة وانتهى الأمر بقتله . وقد أصبحت الامبراطورية ، تبعا للتقسيم الجديد ، تضم اثنتين وعشرين ولاية منها عشرة تغير ولاتها عما كان عليه الحال فى تقسيم مؤتمر بابل كنتيجة طبيعية لتنحية أنصار برديكاس أو أصدقائه من الولاة السابقين .
مصادر التقسيم الذى تم فى مؤتمر بابل هى :

Diod. : XVIII, 3 ; Arrian. & Deixippos ap. **Photios**;**Iust.**, XIII, 4; Q. Curt , X, 10.

مصادر التقسيم الذى تم فى تريباراديسوس هى :

Diod. : XVIII, 30 ; Arrian. : Alex. Diad., 34

من المراجع الحديثة أنظر ! Lehmann-Haupt : R E., Satrapie ==

ولكن الأمور لاتستقر على هذا النحو ، فان برديكاس لايلبث أن يظهر نواياه نحو التحكم فى شئون الامبراطورية كلها . فيسيطر على شئون العرش المقدونى ، ويضع الملكين تحت سيطرته ، وبذلك تنفجر الشرارة التى أضرمت الوضع بعد موت الاسكندر لسنوات عديدة بين قواده السابقين ـ وهو الوضع الذى كان مسرحا لعدد من التيارات والأطماع المتضاربة المتداخلة فى صراعها حول مصير الامبراطورية التى أقامها هذا الفاتح .

* * *

وقد تميز هذا الصراع بظهور ثلاثة تيارات رئيسية . وكان أول هذه التيارات يستهدف الابقاء على وحدة الامبراطورية تحت حكم بيت فليب ، وهو البيت الحاكم الذى ينحدر منه الاسكندر ، ممثلا فى الملكين اللذين اتفق عليهما فى مؤتمر بابل ، وهما ، كما ذكرت فى مناسبة سابقة ، فيليب الثالث الأخ غير الشقيق للاسكندر ، والاسكندر الرابع ، ابن الاسكندر . وكان من بين أنصار هذا التيار ، سواء منهم المخلصون لبيت فيليب أو الذين يظهرون هذا الاخلاص بينما تراودهم أطماع خاصة : يومينيس Eumenes القائد اليونانى الذى كان يعمل سكرتير اللاسكندر قبل موته ، وبرديكاس الذى عين قائداً للجيش فى مؤتمر بابل وأنتيباتروس Antipatros وبوليبر خون

= ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ط٢ ، ج١ ، صفحات ٤١-٤٤ عن تقسيم مؤتمر بابل وصفحات ٦٣-٦٤ عن مؤتمر تريباراديسوس

Polyperchon اللذين كانا ، فى فترة أو فى أخــــرى ، أوصياء على العرش .

أما التيار الثانى فكان يتزعمه أنتيجونوس Antigonos وابنه ديمتريوس Demetrios ، وكان هـــذان القائدان يرميان إلى الابقـاء على وحـدة الامبراطورية ، ولـكن تحت حكم بيت أنتيجونوس لا بيت فيليب . وأخيرا فقد كان أنصار التيار الثالث يرون أن تقسم الامبراطورية إلى عدة ممالك يتربع على عرش كل منها واحد من قواد الاسكندر ، وإن لم تـكن حدود هذا التقسيم واضحـــة فى أذهان بعضهم . ومن بين هؤلاء سليوقوس Seleukos الذى سيصبح فيما بين ملكا على سورية وبطلميوس Ptolemaios (بن لاجوس Lagos) الذى سيؤسس دولة البطالمة فى مصر . وقد التقى التياران الثانى والثالث ، لفترة من الوقت ، فى الوقوف أمام التيار الأول الذى كان أنصاره يعملون على تماسك الامبراطورية تحت حكم آل فيليب ، ولـكن هذا الالتقاء كان فى فترات متقطعة ، كما كانت له بالضرورة صفة مرحلية محضة .

وليس من أهدافى فى هذة الدراسة أن أدخل فى تفاصيل هذا الصراع ولـكنى سأكتفى لغرض التوضيح بتقسيمه ، من الناحية الزمنية ، إلى مراحل ثلاثة (وإن كانت قد تداخلت فيما بينها فى عديد من المناسبات) . (٥٥)

---

(٥٥) يجد القارىء العربى تفصيلا وافيا لهذا الصراع فى :
إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطـالمة (ط ٢ ، ج ١) ، صفحات ٤٥ - ٤٧ و ٥٧ - ٦٠ و ٦٢ - ٦٤ و ٦٦ - ٨٩ .

ويمكن تحديد المرحلة الأولى بوجه عام بين ٣٢٣ و ٣١٦ ق. م. ورغم كثرة الصدامات والتحالفات والمؤامرات فى هذه المرحلة فنحن نستطيع أن نتبين فيها طابعا عاما هو أن حق بيت فيليب فى حكم الامبراطورية بصفته البيت الحاكم الشرعى فى مقدونية، كان لا يزال عميق الجذور فى النفوس بحيث لا يمكن تجاهله بسهولة. وقد كان هذا الوضع هو السبب الكامن وراء أكثر من ظاهرة فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها. من هذه الظواهر مثلا أن المتصارعين من ذوى الأطماع من قواد الاسكندر لم يكونوا يجهرون بنواياهم الحقيقية، سواء كانت الاستقلال بالولايات التى كانوا يحكمونها أو كانت الطمع لدى بعض هؤلاء القواد فى العرش المقدونى ذاته. ومن هنا كان تمسح هؤلاء الأخيرين ببيت فيليب كأوصياء على العرش أو كمتحدثين باسم هذا البيت أو كمدافعين عن مصالحه.

كذلك هناك ظاهرة ثانية سببها هذا الوضع، وهى الأهمية الكبيرة التى كان يعلقها الطامعون فى العرش على ما يمكن أن تتخذه بعض النساء المنتميات إلى بيت فيليب، صاحب الحق الشرعى فى عرش الامبراطورية، من مواقف أو ما يمكن أن يدبرنه من متاعب استنادا إلى وضعهن فى الأسرة الإمبراطورية كأمهات أو زوجات أو بنات لهن حقوق أو مطالب أو مطامع فى السلطة. ومن بين هؤلاء النساء على سبيل المثال أوليمبياس Olympias أم الاسكندر، وكانت امرأة قوية الشكيمة تهدف إلى النفاذ إلى دائرة السلطة للسيطرة غير المباشرة على عرش الامبراطورية ولاتتورع عن الإقدام على أى عمل فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية، ومن بينهن كذلك يوريديكى Eurydike (التى كانت تعرف قبل ذلك باسم آديه Adela) فقد كانت هذه حفيدة للملكين جلس كل منهما، فى وقت

أو فى آخر على عرش مقدونية ، أحدهما ، عن طريق أمها ، هو فيليب الثانى أبو الاسكندر ، والآخر هو بِرديكاس الثالث ، كما كانت خطيبة فيليب أرهيدايوس أحد وريثى الاسكندر ، ومن هنا فقد كان وضعها هذا ، إلى جانب ذكائها ، من الأسباب التى أدت إلى الخوف منها فى ضوء ما كان يتمتع به بيت فيليب من حق معترف به فى العرش ، بل أكثر من ذلك فإن امرأة مثل روكسانى ، الأميرة الفارسية الجميلة ، إبنـــة أحد ولاة آسية الصغرى التى أحبها وتزوجها الاســكندر والتى أصبحت بعد موته بأشهر قلائل أما لابنه وأحد وريثيه ، رغم أن شيئا لم يصلنا عن أى أطماع لها أو حتى عن شخصية قوية لها ، فإن مجـــرد وجودها كأم لأحد الملكين وزوجة للامبراطور الراحل كان يثـــير المخاوف من جانب الطامعين فى عرش مقدونية .

وفى ضوء هاتين الظاهرتين يمكن أن نفهم ظاهرة ثالثة اتسمت بهما هذه الفترة ، وهى اللجوء إلى التخلص من الشخصيات المتصلة بالعـــرش بطريقة أو بأخرى على اعتبار أن طامعهم ، أو حقهم أو حتى مجرد وجودهم فى بعض الأحيان ، قد يسبب متاعب لأنصار تيار أو آخر من التيارات التى أحاطت بمصير الامبراطورية فى أعقاب موت الاسكندر .

وقد كان من بين ضحايا هذا الاتجاه فيليب الثالث ، أحد الملكين ، ويوريدكى ، وقد تم اغتيالهما بتدبير من أوليمبياس أم ، الاسكندر ، فى ٣١٧ ق.م. ، كما كان من ضحاياه كذلك أوليمبياس نفسها التى أعدمها كسندروس Kassandros فى السنة التالية بعد أن أصبح صاحب السلطة الفعليـــة فى مقدونيه . وقد أتبع كسندروس ذلك بسجن الاسكندر الرابع هو وأمه روكسانى . كما شهدت هذه السنة كذلك مقتل يومينيس ، الذى اعـــدمه

أنتيجونوس ، ألد أعداء بيت فيليب وأظهرهم إعلانا لعدائه ، بعد أن وقع في قبضته نتيجة خيانة جنوده له أثناء حروبه في آسيه التي حقق فيها أكثر من نصر على أنتيجونوس .

وبموت أوليمبياس ويومينيس نستطيع أن نقول إن هذه المرحلة من الصراع حول مصير الامبراطورية قد انتهت لغير صالح بيت فيليب ، فقد كانت أوليمبياس هي الرأس المدبرة الماكرة وراء التيار الذي يستهدف الإبقاء على وحدة الامبراطورية تحت هذا البيت ، وكان يومينيس أخلص أنصار هذا التيار . وإذا كان قد بقي من أفراد هذا البيت ، من القريبين من العرش ، الاسكندر الرابع وأمه روكسانى ، قبل أن يتم إعدامهم على يد كسندروس بعد بضعة سنوات (٣١٠ - ٣٠٩ ق.م.) ، فإن هذا في الواقع لم يكن يشكل امتدادا لهذا التيار بقدر ما كان عملية احتياط لتجنب عودته .

أما المرحلة الثانية فيمكننا أن نضع حدودها بين ٣١٦ و ٣٠٦ ق.م. والظاهرة الأساسية في هذه المرحلة هي النشاط الواسع الذي قام به أنيتجونوس وابنه ديمتريوس في محاولة شاملة للسيطرة على كل الامبراطورية والإبقاء على وحدتها تحت حكم بيت أنيتجونوس كما ذكرت آنفا . وستكون نتيجة هذا الاتجاه أن تحدث عدة صدامات حربية بينه وبين القواد الآخرين من أمثال سليوقوس وبطلميوس الذين كانوا يهدفون إلى تقسيم الامبراطورية كما عرفنا . وكان من أمثلة هذه الصدامات المسلحة معركة غزة في ٣١٢ ق.م. التي انتصر فيها بطلميوس على ديمتريوس بن انتيجونوس ، والمثل الآخر هو موقعة سلاميس في قبرص عام ٣٠٦ ق.م وقد انتصر فيها ديمتريوس وقد أعقب ذلك اعلان انتيجونوس لنفسه ولابنه ملكين على الامبراطورية . ولكن الانتصار مع ذلك لم يكن انتصارا حاسما

بالمعنى الدقيق إذ أن كل قائد من قواد الاسكندر استطاع أن يعلن نفسه ملكا على المنطقة التى عهد إليه يحكمها تحت لواء الامبراطورية . وهكذا أصبح كسندرون ملكا وسليوقوس ملكا لسورية وبطلميوس ملكا لمصر بعد أن كانت صفته حتى ذلك الوقت هى صفة الولاة الذين يتقلدون مناصبهم من قبل البيت الامبراطورى .

وأخيرا نستطيع أن نحدد المرحلة الثالثة بين ٣٠٦ - ٣٠١ ق. م. وقد كانت فى حقيقتها استمراراً للمرحلة السابقة فيما عدا أن قواد الاسكندر من أنصار التقسيم قادوا معاركهم بصفتهم الجديدة كملوك يدافعون عن المناطق التى أقاموا ملكهم فيها بينما لم يصبح انتيجوس وابنه فى ضوء هذا الظرف الجديد ممثلين لمبدأ الوحدة وإنما أصبحوا من الناحية الشكلية معتدين على دول قائمة من الناحية الرسمية لا الفعلية فقط . وستشهد هذه الفترة محاولات يائسة من جانب انتيجونوس وابنه لتوحيد الامبراطورية تحت سيادتها ولكن هذه الجهود تنتهى فجأة فى عام ٣٠١ ق. م. بعد موقعة إبسوس Ipsos فى فريجيه فى آسية الصغرى وهى الموقعة التى سيقضى فيها على انتيجوس ، بينما يهرب ابنه ديمتريوس بصفة مؤقتة ، لتنتهى معها فكرة وحدة الامبراطورية انتهاء تاما (٥٦) .

(٥٦) إذا كان الصراع بين قادة الاسكندر السابقين سيستمر بعد ذلك حتى عام ٢٨٣ ق. م. الذى سيشهد نهاية ديمتريوس ،فإن الفترة الواقعة بين ٣٠١و٢٨٣ لم تكن تمثل فترةصراع حول وحدة الإمبراطورية أو تقسيمها، بقدر ما كانت تمثل ما يمكن أن نسميه تذييلا للفترة السابقة كان كل من الملوك فيه (وبخاصة بطلميوس وسليوقوس) يحاول أن يدعم مملكته ، فيما عدا ديمتريوس الذى كان لا يزال يتابع مغامراته متأرجحا بين حلم الوحدة القديم وواقع التقسيم الجديد حتى مات فى الأسر عام ٢٨٣ .

وبانتهاء فكرة وحدة الإمبراطورية أصبح الطريق ممهدا لكى تقوم على أنقاضها ممالك متأغرقة أو مصطبغة بالصبغة الإغريقيــة تحكمها أسر حاكمة أسسها قواد الاسكندر الذين صمدوا فى الصراع الكبير ، ومن بين هـذه الممالك الإمبراطورية السلوقيـة التى قامت فى سورية وانتهت فى ٦٤ ق. م. والمملـكة الأنتيجونية التى قامت فى مقدونية والمملـكة البطلمية التى أسسهـا فى مصر بطلميوس بن لاجـوس والتى انتهت فى ٣٠ ق. م. بانتحار آخر حكامها ، كليوباترة السابعة فى أثنـــاء صراعها مع رومه ، لتصبح مصر بعد ذلك ولاية تدور فى فلك الإمبراطورية الرومانية (٥٧) .

---

(٥٧) ليس معنى هـذا أن هـذه الممالك استقرت بصفة نهـائيـة منذ ذلك التاريخ (٣٠١ق م.) وقد كانت أسرع هذه الممالك إلى الاستقرار تحت حكم البيوت الحاكمة الجديدة هى مصر ، تليهـا سورية ، بينما كانت مقدونية أكثرها تعثراً على طريق الاستقرار. فقد أعلن كسندروس نفسه ملـكا عليها فى ٣٠٦ ولـكن قدر لهذه المنطقة أن تمر بفترة طويلة من الاضطـرابات وتنازع السلطة وتقسيم النفوذ قبل توحيدها . وقد ظهرت فى فترة الاضطراب على مسرح هذه المملـكة شخصيات متعددة ، من بينها ، غير كسندروس ، ليسيماخوس Lysimachos وديمتريوس ، وبيروس Pyrrhos وكان استقرارها النهـائى فى ٢٧٦ ق . م . على يـد أنتيجونوس جوناتاس Antigonos Goanataa الذى أسس البيت الأنتيجونى فيها ، وهو ابن ديمتروس الذى مر بنا ذكره، وحفيد أنتيجونوس قائد الاسكندر الذى رأيناه يتزعم تيار توحيد الامبراطورية تحت بيته متحديا بيت فيليب .

القسم الثانى

دولة البطالمة: القاعدة والدعامات

الباب الرابع

قاعدة الدولة الجديدة

انتهت امبراطورية الاسكندر، إذن ليشهد الاقاليم المطل على القسم الشرقى للبحر المتوسط صراعا مديدا مريراً بين قواد الاسكندر وخلفائه، تمخض فى النهاية عن ميلاد ممالك جديدة أسسها هؤلاء القواد وأصبحوا حكاما عليها. وكانت مصر، كما رأينا، هى المنطقة التى أقام عليها بطلميوس بن لاجوس، أحد هؤلاء القواد، دولته وملكه الجديد. وقد كان طبيعيا أن يعمد بطلميوس إلى تدعيم هذا الملك الذى لم يطمئن إلى قيامه إلا بعد رحلة شاقة من الكفاح المتصل عبر العقود الأخيرة من القرن الرابع ق م. وبواكير القرن الذى يليه، كما كان طبيعيا أن يتجه خلفاؤه من البطالمة الاوائل، وبخاصة بطلميوس الثانى، فى نفس الاتجاه.

ولكن قبل أن أتحدث عن الدعامات التى مكن بها البطالمة لدولتهم وحكمهم أرى من الخير أن أتحدث عن القاعدة، أو الفرشه القاعدية التى قامت عليها هذه الدعامات. وسأنظر إلى هذه القاعدة من ثلاث زوايا: الأولى تخص الأرض التى أقام البطالمة دولتهم عليها، والدور الذى هيأته ميزات موضعها وموقعها لتقوم به فى إرساء قوائم هذه الدولة، والثانية تخص الظروف التى أحاطت بقيام الدولة الجديدة والتى كانت لا بد أن تؤثر بالضرورة على اتجاهات هذه الدولة، والثالثة تخص الشخص الذى

وقع على كاهله العبء الأول والأكبر فى تأسيس الدولة الجديدة ومن ثم سكنت شخصيته وأفكاره من الانتفاع بالأرض التى أقام عليه ملكه وبالظروف التى أحاطت بها .

١ — ارض الدولة الجديدة :

ولنبدأ باستعراض سريع للأرض التى قامت عليها دولة البطالمة . وفى هذا المجال نجد أن مصر كانت لها المقومات الاقتصادية والدفاعية والادارية والسياسة الكافية فى ذلك العصر (وفى الواقع فى عصور أخرى سابقة ولاحقة) لايجاد حياة سياسية مستقرة . فمن الناحية الاقتصادية كان انتظام الفيضان وخصوبة الأرض عاملين قويين لدعم الموارد الزراعية بينما كان موقع مصر المتوسطبين القارات الثلاثة عاملا مواتياً إلى حد كبير لتكون قاعدة لنشاط تجارى من الطراز الأول كطريق للتجارة بين أوربه وآسيه وأفريقية .

ولم تكن ميزات مصر الدفاعية بأقل من ميزاتها الاقتصادية ، فقد حبتها الطبيعة بسياج دفاعى منيع يكاد يحيط بها احاطة كاملة فى وقت لم يعرف فيه العالم الا الطرق البدائية للتنقلات العسكرية . ففى الشرق تقع مساحة واسعة من الصحراء الجرداء ينتهى طرفها الشرقى عند سلسلة الجبال التى يصل ارتفاعها إلى ١٨٠٠ مترا والتى تنحدر بشدة وبشكل مباشر الى الساحل الصخرى المقفر للبحر الأحمر ، وتتصل عند طرفها الشمالى الشرقى بصحراء سيناء التى تنتهى حيث تبدأ الصحراء السورية من جانب وصحراء شبه الجزيرة العربية من الجانب الآخر . والحدود فى الغرب

لا تختلف كثيرا عنها فى الشرق ، فالصحراء الليبيـة تمتد من الوادى الضيق حتى حدود مصر الغربية ، وهى فى أقفارها لا تقل عن الصحراء الشرقية إذا استثنينا عددا قليلا من الواحات التى تمتد قرب الحدود الغربيه من خط عرض سيينى Syene (أسوان) نحو الشمال الغربى حتى واحة سيوه . وحتى هـــذه السلسلة من الواحات لا تؤثر فى الوضع كثيرا إذ أن منابع المياه فى هذه الصحراء قد تبتعد عن بعضها بمـا يقرب من ٢٩٠ كيلو متراء وعلى أية حال فالواحة الوحيدة التى استرعت أنظار القدماء (ربما لقيمتها الدينية كمركز لعبادة آمون قبل أى اعتبار آخر) وهى واحة سيوة تبتعد عن رأس الدلته بما يقرب من ٤٨٠ كيلو مترا عبر الصحراء (٥٨).

واذا كانت الطبيعة قد هيأت لمصر هذا السياج الواقى من الشرق والغرب فان الساحل الشمالى لم يكن بأقل من ذلك كثيرا فى قيمته الدفاعيـة ، فنطقة الساحل الممتدة بين مصبى النيل كانت فى ذلك الوقت امتدادا بحريا ضحلا لا يصلح لارساء السفن القادمة ، وهذا ينتهى عند الجنوب بامتداد آخر من المستنقعات التى تقف حاجزا فى وجه أية قـوة تحاول دخـول مصر من هذا الاتجاه . أما فى القسم الغربى من الساحل حيث اختط الاسكندر مدينة الاسكندرية ، فتكتسح البحر فى أغلب شهور السنة رياح شمالية سريعة لابد أن يحتاط لها أى مهـاجم من الشمال ، وقد حمت هذه الرياح مصر

---

(٥٨) M. Cary : Geographical Background of the Greek and Roman History, pp. 212 sq.

C.A.H. : X, 239-40

بالفعل فى بعض المناسبات ، كما حدث فى ٣٠٦ ق م . حيث نجد ديمتريوس (ابن أنتيجونوس أحد خلفاء الاسكندر) الذى قضى على الاسطول المصرى فى معركة سلاميس (بقبرص) أثنـــاء صراعه مع بطلميوس حـول تقسيم الامبراطورية ، لا يستطيع أن يتابع نصره باحتلال مصر بسبب قوة الريح الساحلية الشمالية التى جعلت انزال جنوده إلى الشـــاطىء أمراً مستحيلا .

هذا إلى أن الدخول إلى الميناء الشرقية كان أمرا على جانب من الصعوبة نظرا لضيق مدخلها ولوجود بعض الصخور القريبة من سطح المياه بها ، بينما كانت المدينة تتمتع فى جوانبها الأخرى بحدود على جانب لابأس بها من المناعة . فمن الغرب يحدها النطاق الصحراوى الذى يمتد حتى الحدود المصرية الغربية ومن الجنوب تحدها بحيرة مريوط أما من الشرق فـكان اتصالها ببقية مصر عن طريق شريط رملى بين البحيرات كان أضيق بـكثير فى العصور القديمة مما هـــو عليه الآن . وبالتالى لم يـكن الدفاع عنه أمراً عسيراً (٥٩) .

فإذا انتقلنا إلى الحدود الجنوبية وجدنا أنها ، إذا لم تـكن من القيمة الدفاعية بمثل ماكانت عليه الحدود الأخرى ، إلا أنهـا لا تخلو تمـاماً مما يعرقل طريق المهاجم ، مثل الشلال الأول قرب سيينى ومثل صحراء النوبة

(٥٩) راجع عن الأحداث :

Diod . : xx , 74 , Plut. : Demetrios , 19 , 3.

التى تمتد نحـو الداخـــل فى بعض المنـاطق حتى لتـكاد تلاصق مجـرى النيل تماما .

ولم تـكن الدعامة الاقتصادية الراسخة والحدود المنيعة هى كل ما هيأ لمصر فرص الاستقرار الذى اعدها لمركزها الممتاز فى العالم المتأغرق ، ففى الناحية الادارية نجـد الظروف الطبيعية والجغرافية تمكن أية حكومة قوية من السيطرة على الأمور فى داخل البلاد فى سهولة ويسر يضمنـان هـــذا الاستقرار إلى درجة كبيرة . ففيما يتعلق بصيانة الأمن الداخلى نجد المنطقة المأهولة بالسـكان لاتخرج عن الوادى الذى يمتد على جانبى النيل من طيبة جنوبا حتى ساحل البحر المتوسط شمالا ، ونحن إذا استثنينا منطقة الدلته التى تمتد فوق مثلث رأسه عند منف وقاعدته هى الساحل البحرى الذى يحده مصب الفرع البلوزى (فرع دمياط الحالى) شرقا ومصب الفرع الـكانوبى (فرع رشيد الحالى) غربا — وجدنا أن بقية الوادى من منف حتى حـدود مصر الجنوبية لايزيد عن منطقة ضيقة تـكاد تلتصق بمجرى النيل فى جنوبى طيبة ثم تتسع تدريجيـا فى شمالها اتساعا لايزيد عن ٥٠ كيلو متراً فى أعرض اجزائها ، بينما قد يضيق الوادى ليصل عرضه إلى أقل من ٣٠ كيلو متر فى بعض الاحيان . وواضح أن توزيع السكان فى مثل هذه المنطقة الضيقة المحصورة لا يتطلب من الحـكومة القائمة توزيع قوات الأمن على نطاق واسـع مما قد يوجـد ثغرة أو ثغرات فى الاحتياطات اللازمة لاقرار الأمن الداخلى . وحتى منطقة الدلته المتسعة نسبيا نجـدها كذلك محصورة تحـدها الصحراء من الشرق والغرب وتحـدها المستنقعات والبحر فى الشمال ومن الممـكن بالتالى لاية حـكومة جادة أن تسيطر عليها بحاميات فى الاسكندرية ومنف وبلوزيون .

وأخيراً فإن ميزات مصر لم تقتصر على النواحى الاقتصادية والدفاعية والادارية وإنما ضمت ، إلى جانب هـذه النواحى ، ميزة سياسية بالنسبة لمؤسس دولة البطالمة بالذات . هذه الميزة هى بعدها عن المنطقتين اللتين كان من الممكن أن تصبح واحدة منها مركز السلطة المركزية الامبراطورية فى الفترة التى احتدم فيها الصراع . عقب وفاة الاسكندر ، بين أنصار الابقاء على وحدة هذه الامبراطورية ودعاة تقسيمها . والمنطقة الاولى هى بابل ، التى كان الاسكندر قد اتخذها مركزاً لحكمه والتى يوجد فيها ، عند موته ، أخوه الذى أصبح أحد وريثية فى العرش الامبراطورى . أما المنطقة الثانيـة فهى مقدونية مقر البيت الحاكم المقدونى ، والتى ظلت ، بعد موت الاسكندر ، مركزاً للنشاط السياسى المتصل بمصير الامبراطورية وهو النشاط الذى انعكس فى أكثر من ظاهرة من بينها المؤمرات والاغتيالات والصدامات العسكرية المستمرة . ومن هنا فقد كان موقع مصر ، ببعده الملحوظ عن كل من بابل ومقدونية وهما المركزان المحتملان للسلطة الامبراطورية ، ميزة لايمكن اغفالها ، تعطى قدراً غير قليل من الامان للقائد الذى يريد أن يقيم فيها دولة تحت حكمه .(٦٠)

٢ ـ ظروف الدولة الجديدة :

وفى هذه المنطقة إذن ، التى حباها موقعها الجغرافى سواء من الناحية

---

(٦٠) راجع الاشارة إلى هذه الفكرة فى :
ابراهيم نصحى: مصر فى عصر البطالمة (ج١ ، ط٢) صفحات ٥٤-٥٥

التكوينية أو الوظيفية بميزات أهلتها لأن تكون قاعدة ممتازة لاقامة دولة مستقرة عمل البطالمة الأوائل جاهدين منذ بداية حكم بطليموس الأول على أن يدعموا ملكهم الجديد بكافة الطرق . وهنا نلاحظ أن هذه الدعامات كانت موجهة إلى اقرار حكم البطالمة فى داخل مصر من جانب ، كما كانت موجهة كذلك وبصورة ايجابية إلى اقرار مركزهم فى المجال الدولى من جانب آخر . ففى داخل مصر كان اقرار البطالمة لمركزهم أمرا جوهريا لأنهم كانوا أمام شعب له جذور حضارية ضاربة فى أعماق التاريخ ومن ثم له قيم راسخة فى كافة مناحى الحياة الاجتماعية والسياسية لا يمكن تجاهلها بسهولة ، وقد ظهرت صلابة هذه القيم فى اكثر من مناسبة وكان اقربها من الناحية الزمنية بالنسبة للبطالمه ترحيب المصريين بقدوم الاسكندر كمحرر لهم من حكم الفرس الذين لم يغفر لهم المصريون تجاهلهم أو تحديهم لقيمهم المتوارثة فى الناحية الدينية (٦١)

---

(٦١) يظهر رد الفعل الذى أثاره الفرس بسوء معاملتهم أثناء الفترة الثانية من احتلالهم (التى ابتدأت فى ٣٤١ ق. م. وانتهت بدخول الاسكندر مصر فى ٣٣٢ ق. م.) فى الدور الذى قام به أحد الامراء المصريين (ويدعى خباش) فى تلك الفترة والذى يظهر مدى التفاف المصريين حوله واعترف كهنة منف به فى الفترة التى أقام فيها حكما مستقلا فى الدلته عن الحكم الفارسى : راجع Sethe : Urkunden, II صفحات ١٦-١٨ .

كذلك تظهر سوء المعاملة الفارسية وحالة الاضطرابات التى سادت مصر فى تلك الفترة من جراء الثورات وحركات التمرد المصرية من النص الذى تركه بتوزيرِ Petosiris ، أحد كهنة تحوت على مقبرته (حوالى =

أما عن أهمية اقرار البطالمة لمركزهم فى المجال الدولى فسببه هو ان الطابع الدولى كان قد بدأ يسيطر على منطقة شرق البحر المتوسط بشكل واضح فى الفترة التى اقام فيها البطالمة حكمهم وهو طابع ربما عرفته هذه المنطقة بشكل جزئى فى أيام الامبراطوريات القديمة التى اتخذت الساحل الافريقى أو الساحل الآسيوى مقرا لها سواء فى أيام الفراعنة أو الاشوريين أو الحيثيين ، ولكنه لم يصل إلى الشمول أو الوضوح الذى عرفته هذه المنطقة ابتدأ من الوقت الذى انطلق فيه الاسكندر من الشاطىء الاوربى فى حملته التى ادخلت هذا الشاطىء فى إطار يربط بينه وبين الشاطئين الافريقى والآسيوى فى كل متجاوب من الناحيتين السياسية والحضارية عامة وهو اطار قدر له أن يظل قائما فى هذين المجالين حتى بعد تقسيم امبراطورية الاسكندر وقيام الدول المتأغرقة على انقاضها . وقد كان التعبير السياسى لهذا الاتجاه الدولى هو التناحر الشديد المستمر الذى ميز العلاقة بين الدول المتاغرقة ، والذى حاول فيه حاكم كل دولة من هذه الدول أن يمكن لنفسه ويوسع منطقة نفوذه على حساب

= ٣٠٠ ق. م.) وفيه يندد أكثر من مرة بفترة الحكم الفارسى على أنها فترة حكم الاجانب ، ويشير كذلك إلى سوء الحالة بأن كل شىء لم يكن فى مكانه الصحيح وأن الكهنة ابعدوا من معابدهم ، كما يذكر أن المنطقة الجنوبية من مصر (الوجه القبلى) كانت فى حالة هياج على الحكم، بينما كانت المنطقة الشمالية فى حالة ثورة.

راجع : G. Lefebvre : Le Tombeau de Petosiris صفحات ١٠ - ١٢ ، كذلك نقش ٨١ ، سطور ٢٦ - ٣٣ ، ونقش ٥٩ سطر ٢ .

الحكام الآخرين والمناطق التى يحكمونها . (٦٢)

وقد كانت هـذه الصبغة الدولية أو هـذا الاتجاه الدولى الذى جعل الانظـار تتجه فى أغلب الاحوال ، إن لم يكن فى الواقع دائمـا ، عبر الحدود المحلية الموجودة بين دولة ودولة داخل المنطقة المتأغرقة ـ أقول كان هذا الاتجاه الذى طبع تصرفات حكامها وأصبح أظهر سمات العصر ، يرجع إلى أكثر من عامل .

فمن جهة كانت المنطقة حديثة عهد بتكوين امبراطورية الاسكندر ، بل لقد كان الجيل الأول من حكام المنطقة هم قواد الاسكندر أنفسهم ، الذين شاركوا فى تكوين امبراطوريته . وقد كانت هـذه الامبراطورية فى حد ذاتها هى المثل الواقعى الظاهر تحت أعين الجميع على أن احتياج الحـدود

---

(٦٢) يصف و . و تارن العالم المتأغرق بأنه « عالم كبير » تظهر فيه العالمية بشكل واضح فى أكثر من جانب . فقد شاعت فيه فكرة « العـــالم المعمور » Oecumene وصاحب ذلك شكل جديد من اللغـة اليونانية هو اللغـة اليونانية المشتركة koine التى لم تصبح قاصرة على اليونـانيين ، بل كان يستعملها كذلك عدد من الآسيويين (والأفريقين) بحيث كان المرء يستطيع إذا عرف هذه اللغـة ، أن يجد طريقه بسهولة من المنطقة التى توجد فيهـا مرسيليه الحالية إلى الهند ، ومن بحر الخـــزر فى الشمال إلى الشلالات فى جنوبى مصر . كذلك أتسعت أبعاد الموضوعات التى تناولها الأدب والثقافة وبخاصة الفلسفة ، كما ظهر الاتجاه الدولى بوضوح فى مجال النشاط التجارى ، كواحد من المجـالات العديدة التى اتسمت بالسمة الأساسية للعصر ، وهى الصبغة الدولية التى اصطبغت به كل جوانبه .

راجع : W.W. Tarn & G.T. Griffith : Hellenistic Civilisation (3rd. ed.), pp. 2 — 3

المحليـــة أمر وارد وسهل التنفيذ . وعلى أن الحدود المحليـة لا تـكتسب شرعيتها من مجرد وجودها ، ولا تقف أمام القوة العسكرية التى تجعل الحق الشرعى الوحيـــد هو حق الفتح الذى لا يحترم ولا يعـــترف بالحدود القائمة الثابتة .

ولم تكن فترة تقسيم الامبراطورية بعد موت الاسكندر بأقل من فترة تـكوينها أثناء حياته من ناحية تثبيت هذه الفـكرة فى أذهان هؤلاء الحـكام ، فإن كلا منهم قد أستقر فى المنطقة التى أصبح حاكما عليها بحـــق الفتح ، إذا نظرنا إلى المسألة من ناحية واقعية ، فبطلميوس لم يترك ليستقر فى مصر دون أن يدخل فى عديد من المعارك قبل أن تصبح فى النهـاية حقا له ، والشىء ذاته ينطبق على استقرار سليوقوس فى سورية . بل إن بعض القواد ، فى فترة التقسيم ، كان الواحد منهم تقـوده عملياته العسكرية من مقدونية إلى مصر ، كما حدث مع برديـكاس على سبيل المثال ، أو يجد نفسه نتيجة لهذه العمليات سيدا لسورية أو لقسم منها ، ثم تنتقل منطقة سيطرته لآسيه الصغـــرى أو لمقدونية أو العـكس ، كما حدث فى حالة أنتيجونوس وابنه ديمتريوس ، اللذين أنهيا حياتهما فى العمليات العسكرية دون أن يقيما دولة ذات حدود مستقرة ، وإذا كان أنتيجونوس جوناتاس وهو ابن ديمتريوس ، ، قـــد تمـكن أخـــيرا من إقـامة دولة مستقرة وأسـرة حاكمة فى مقـدونية ، فان هــذا لم يـكن على سبيل المـــيراث ، وهو مظهر الاستقرار والاعتراف بالشرعية ، عن أبيه أو عن جده ، وإنما كان نتيجة لنشاط عسكرى وعمليات عسكرية قام هو نفسه بها .

كذلك أسهم فى إيجاد هذا الطابع الدولى الذى عرفته المنطقة ، الاتجاه المتزايد نحو الهجرة إلى أقسامها المختلفة من جانب اليونانيين فى أعقاب فتوح الاسكندر . حقيقة إن المنطقة شهدت هجرات يونانية اليها على مدى قرون عديدة قبل هذه الفتوحات ، وقد كانت هذه الهجرات كثيفة فى بعض الأحيان ، كما كان الحال على الساحل الغربى لآسيه الصغرى على سبيل المثال ، ولكن بعض أقسام هذه المنطقة ، مثل سورية ومصر وبرقة لم تعرف المهاجرين اليونان قبل فتوح الاسكندر وقيام العصر المتأغرق إلا فى أعداد محدودة وجاليات بسيطة ومتناثرة . أما بعد هذه الفتوح فقد زاد عدد هؤلاء المهاجرين فى هذه المناطق زيادة واضحة لسببين : أحدهما هو انهيار مقومات الحياة القديمة التى عرفها اليونان فى بلادهم الأصلية على النحو الذى أشرت اليه فى مناسبة سابقة (٦٣) ، والثانى هو اتجاه حكام العالم المتأغرق إلى الاستعانة ، بشكل متزايد ، فى كافة الجوانب • عسكرية كانت أو إدارية أو فنية — الأمر الذى أدى إلى تشجيعهم • بكافة وسائل الاغراء ، على الهجرة إلى المناطق التى كانوا يحكمونها وعلى الاستقرار فيها. ومن هنا فقد كان هؤلاء اليونان عنصرا مشتركا متحركا بين أرجاء المنطقة المتأغرقة ، يضفى عليها الصفة الدولية التى كان لا بد أن تطبع تصرفات حكامها .

وأخيرا ، وليس آخرا ، فقد زاد من هذه الصبغة الدولية التى سيطرت

---

(٦٣) راجع الباب الثانى من القسم الأول

على المنطقة ظهور قوة جديدة فتية فى وسط حوض البحر المتوسط وعلى تخوم العالم المتأغرق ـ هى الجمهورية الرومانية . وقد كان ظهور رومه فى تلك المدة فى المكان الذى ظهرت فيه وبنزعة التوسع التى طبعت اتجـاهها إذ ذاك ، لسبب أو لآخر ، عاملا لابد ان تؤدى إلى احتكاك هذه القوة الجديدة بالمنطقة المتأغرقة فى صورة أو فى أخرى مما أدى بهذه المنطقة الى أن تصبح مركز ثقل لاتجاه دولى واضح المعالم ، وهو تجاه ستجد انه يسيطر على قسم كبير من نشاط حكام هذه المنطقة بما فيهم البطالمة .

وسيظهر تاريخ البطالمة صدق هذا الاتجاه اظهارا تاما سواء فى فترة قوتهم أو فى فترات ضعفهم . فالبطالمه الاوائل ، كما سنرى عندما نعرض لسياستهم الخارجية ، سيتجهون إلى فرص حمايتهم على الجزر اليونانية الواقعة فى بحر إيجه وإلى التوسع على حساب سورية وبرقه وقبرص ، وكلها مناطق دخلت فى نطاق السيطره البطلمية لفترات طويلة أو قصيرة . كذلك سنرى أن دولة البطالمة ، حين بدأت فى الاضمحلال ، كان الخطر الذى يتهددها يأتى من الممالك المتأغرقة الواقعة فى هـــذه المنطقة سواء فى سورية أو فى مقدونيه . كما أن حكام البطالمة سيلمسون بشكل متزايد تدخل رومه سواء فى حكمهم الداخلى أو فى علاقاتهم الدولية حتى عهد آخر حـكامهم ، كليوباتره السابعة التى دخلت مع رومه فى صراع دام، شهد نهايتها ونهاية الدولة المستقلة التى كانت تحـكمها فى ٣١ ق.م. عند اكتيوم الواقعة على الشـــاطىء اليونانى ثم فى ٣٠ ق.م. على الشاطىء المصرى فى الاسكندرية .

٣ ـ مؤسس الدولة الجديدة

ثم يأتى بعد الحديث عن أرض الدولة الجديدة والظروف التى أحاطت بها ، الحديث عن بطلميوس الأول ، الرجل الذى أسس هذه الدولة ، ومدى تكيفه مع هذه الظروف حتى يستطيع أن يثبت ملكه على هذه الأرض . وقد سارت سياسة بطلميوس فى هذا المجال فى ثلاثة خطوط صريحة متوازية تهدف جميعا إلى غرض واحد ، هو أن يرسى فى مصر قاعدة ثابتة لدولة على رأسها بيت حاكم هو مؤسسه وأول حكامه . وقد كان الخط الأول فى هذه السياسة هو العمل الدائب من جانب بطلميوس على مساندة التيار الذى كان يستهدف تقسيم إمبراطورية الاسكندر ، والتصدى لأى اتجاه نحو الإبقاء على وحدتها تحت حكم أى جهة أو أى شخص يريد السيطرة على الإمبراطورية الموحدة ، سواء كان من بيت فيليب أو من غير بيت فيليب ، فإذا لم يمكنه التصدى له تحايل عليه سواء بتمييعه أو الالتفاف حوله بشكل مرحلى حسبما تستوجب الظروف .

أما الخط الثانى فى سياسة بطلميوس فهو حرصه على أن تكون مصر دون غيرها ، هى مركز الدولة التى كان يزمع إنشاءها .وهو خط التزمه منذ أن أصبح واليا على مصر حسب تقسيم مؤتمر بابل الذى تم فى أعقاب موت الاسكندر ، ولم يتزحزح عنه أمام أى ظرف اضطرارى أو أمام أى إغراء بمنطقة بديلة أو بسلطة أوسع فى إدارة الامبراطورية . وأخيرا فقد كان الخط الصريح الثالث فى سياسة مؤسس دولة البطالمة هو العمل

المستمر من جانبه على خلق مركز لمصر بكل الوسائل فى المنطقة التى يضمها العالم المتأغرق .

ونحن نلمس الخط الأول من سياسة بطلميوس فيما يتعلق بتأسيس الدولة الجديدة ، وهو التصدى لأى اتجاه نحو وحدة الإمبراطورية ، أو مناورته ومداورته حتى تحين له فرصة مواجهته ،فى المواقف المتتالية التى اتخذها من قضيتين أساسيتين فى هذا المجال . القضية الأولى تتصل بمسألة وراثة عرش الامبراطورية أو الوصاية عليه بعد موت الاسكندر ، والثانية تتعلق بالقواد الذين كانوا يهدفون إلى السيطرة على هذه الإمبراطورية وإخضاعها لسلطتهم الفردية بطريقة أو بأخرى .

وقد ظهر موقفه من قضية العرش منذ اللحظة التى مات فيها الاسكندر واجتمع قواده فى بابل ، فى هيئة مؤتمر، ليقرروا مصير امبراطوريته . لقد اختار بعض القواد أرهيدايوس ، الأخ غير الشقيق للاسكندر ، لكى يخلفه على عرش الامبراطورية ، وأيدهم فى ذلك مشاة الجيش ، بينما اقترح البعض الآخر ، وعلى رأسهم برديكاس ، إرجاء البت فى هذه المسألة حتى تلد روكسانى ، زوجة الاسكندر ، فإذا جاء مولدها ذكرا ولى العرش ، وكان يؤيد هؤلاء فى رأيهم فرسان الجيش . أما بطلميوس فقد كان اقتراحه هو أن يبقى العرش الامبراطورى شاغرا وأن يعهد المؤتمر بادارة الامبراطورية إلى قواد الجيش - وهو اتجاه من السهل أن نرى ما يتضمنه من محاولة لتمييع الموقف بحيث يقوى مركز كل قائد فى المنطقة التى يؤول إليه حكمها (وقد آل إليه حكم مصر فى هذا المؤتمر) على حساب أية إدارة مركزية قوية للامبراطورية ككل .

وقد حدث تعديل ، ولكنه لا يشكل تغييرا ، فى موقف بطلميوس تجاه هذه القضية حين استقر رأى المؤتمرين فى بابل على طريقة شغل العرش . فقد ثار الخلاف بين أنصار ارتقاء أرهيدايوس للعرش وأنصار الانتظار حتى يأتى مولود الاسكندر . وهو خلاف كاد يصل إلى الصدام المسلح فعلا حين حاصر الفرسان ، وعلى رأسهم برديكاس ، مدينة بابل ليفرضوا رأيهم بالقوة . فنى ذلك الوقت نجد بطلميوس يشترك مع يومينيس فى الوصول إلى حل يرضى الطرفين ، مؤداه أن يرتقى أخو الاسكندر العرش ، وأن يشترك معه مولود الاسكندر إذا جاء ذكرا (٦٤) .

وقد يبدو هذا الموقف الجديد لبطلميوس ، للوهلة الاولى ، كما لو كان انتقالا إلى صف أنصار وحدة الامبراطوريه وتدعيم إدارتها المركزية ، وبخاصة إذا عرفنا أن يومينيس الذى اشترك معه فى تقديم الإقتراح المعدل كان من اصلب دعاة الوحدة تحت بيت فيليب . ولكنى أرى فى هذه الخطوة من جانب بطلميوس مناورة أراد أن يتفادى بها وضعا كان من الممكن ، بل من المرجح أن يؤدى إلى تدعيم الإدارة المركزية للامبراطورية . ذلك أن برديكاس كان قد نجح فى محاصرة بابل وبذلك أصبح فى المركز الأقوى ، وقد كان برديكاس يرنو فعلا ، كما أثبتت الحوادث بعد ذلك مباشرة إلى السيطرة على عرش الامبراطورية ـ وهو أمر كان لا يمكن أن يخفى على قواد الاسكندر المجتمعين فى بابل ، ومن بينهم بطلميوس . ومن

---

(٦٤) عن موقف بطلميوس من مسأله العرش راجع .
Bouché - Leclerq : Histoire des Lagides, I, p. 6
P. Jouguet ; Macedonian Imperialism (ترجمة انجليزية) p. 20.
ابراهيم نصحى ، نفس المرجع ، ج١ ، ط٢ ، ص ٤٣ وحاشية (التى يشير فيها إلى المصادر القديمة) .

هنا فإن مبادرة بطلميوس بالاشتراك فى تقديم اقتراح يوفق بين الجانبين الواقفين على خط الصدام هو فى الواقع حرمان لبرديـكاس من مركز القوة الذى كان يقف فيه على رأس الفرسان محاصراً لبابل ، وبالتالى فإنى أرى فى هذه المبادرة خطوة تفوت على برديكاس نقطة تفوق على بقية القواد من أول الطريق وبالتالى تعطل ، إن لم تعرقل ، مخططه نحو السيطرة على إدارة الامبراطورية ولو لبعض الوقت .

كان هـذا هو موقف بطلميوس من العرش فى مؤتمر بابل ، وهو موقف استمر، ولـكن بتفاصيل مختلفة ، حين أثيرت مسألة العرش مرة أخرى بعد مقتل برديكاس ، الذى كان قد نجح فى السيطرة على العرش حتى (٣٢١ ق. م). لقد عرض على بطلميوس فى تلك السنة أن يصبح هو الوصى على عرش الامبراطورية الذى كان يجلس عليه إذ ذاك ملـكان ، أحدهما معتوه وهو أخو الاسكندر ، والآخر لا يزال طفلا وهو ابنه . ولـكن بطلميوس لم يقبل هذا العرض الذى كان سيربطه ، دون نزاع ، بتيار الابقـاء على وحدة الامبراطورية ومن ثم يقيد حركاته وتصرفاته فيما يخص الاستقلال التدريجى بمصر . وهـكذا نجـد بطلميوس يتخلص بلباقة فائقة من قبول هذا العرض تاركا شغل هذا المنصب لقائد آخر هو أنتيباتروس . (٦٥)

هذه هى مواقف بطلميوس من القضية الأولى ، وهى قضية وراثة العرش والوصـــاية عليه . أما عن مواقفه من القضية الأساسية الثانية المتعلقة بالقواد الذين يهـدفون إلى السيطرة على الامبراطورية وإخضاعها

---

(٦٥) Diod.: XIII, 33, sq.

لسلطة مركزية يمسكون بزمامها . جاءت أول مناسبة لظهورها حين بدأت نوايا پرديكاس ، الذى كان مؤتمر بابل قد عينه فى منصب قائد الجيش الامبراطورى ، تظهر وتشير بوضوح إلى نواياه فى السيطرة على الامبراطورية . وقد كان موقف بطلميوس من پرديكاس هو التحالف العسكرى ضده مع أنيتباتروس وكراتروس أنيتجونوس ، الذين كانوا يتوجسون خيفة ، كل لسبب خاص به ، من هذه النوايا . وفعلا تم هذا التحالف فى ٣٢١ ق.م وانتهى بهزيمة پرديكاس ومقتله .

والموقف ذاته يتكرر ، وإن كان بتفاصيل أخرى ، ضد أنيتجونوس وهو القائد الذى تحالف معه بطلميوس بصفة مرحلية ضد پرديكاس ، والذى كان يرنو هو الآخر إلى عرش الامبراطورية ، ويعمل هو وابنه ديمتريوس ، بدأب منقطع النظير ، على إخضاع الامبراطورية لبيت حاكم يكون هو مؤسسه . ففى ٣١٥ ق.م. ، حين قويت شوكة أنتيجونوس فى آسية وأخذ يمثل دور الملك فيها ووضح اتجاهه الصريح نحو محاولة السيطرة على أراضى الامبراطورية بأكملها ، دخل بطلميوس فى حلف ضده مع سليوقوس وكسندروس وليسيماخوس . وكانت النتيجة التى ترتبت على دور بطلميوس هى تهديد مؤخرة أنيتجونوس بحيث نجح ليسيماخوس فى سد الطريق أمامه دون غزو مقدونية التى كان يعتبر (أى أنيتجونوس) غزوها أمرا أساسيا فى مخطط السيطرة على الامبراطورية (٦٦).

ولم يكن هذا هو موقف المجابهة الوحيدة بين بطلميوس وأنيتجونوس فى مجال التصدى لمحاولات توحيد الامبراطورية لسلطة مركزية . ففى

---

(٦٦) Diod : XIX, 40; 59, 1 sq. راجع ابراهيم نصحى : نفس المرجع ، ج ١ ، صفحات ٧١ - ٧٢

٣٠٢ ق.م. حين أحرز ديمتريوس بن أنتيجونوس انتصارات على كسندروس فى المنطقة الإغريقية وجد أنتيجونوس أن هذه هى فرصته التى كان يسعى اليها نحو السيطرة على مقدونية ، مركز العرش الإمبراطورى، فطلب من كسندروس التسليم دون قيد أو شرط . وقد كان هذا إنذارا للجميع بالخطر من جانب أنتيجونوس . وهنا نجد بطلميوس يدخل فى عمل عسكرى مشترك مع حلفاء الأمس (سليوقوس وكسندروس وليسياخوس) ويدخلون مع أنتيجونوس فى معركة فاصلة فى ٣٠١ ق.م عند إبسوس Ipsos فى فريجيه (فى آسيه الصغرى) - وهى المعركة التى عرفت باسم « معركة الملوك » والتى انتهت بمقتل أنتيجونوس وفرار ابنه ديمتريوس ، وانتهى بذلك خطر تيار الوحدة على أنصار التقسيم (٦٧).

* * *

هذا عن الخط الأول من سياسة بطلميوس ، وهو التصدى بطريقة أو بأخرى لأى تيار يهدف إلى الإبقاء على وحدة الامبراطورية. وقد رأينا كيف كان هذا الخط واضحا منذ اللحظة التى مات فيها الاسكندر فى ٣٢٣ ق.م. وكيف ثابر بطلميوس عليه بدأب عجيب على مدى أكثر من عشرين عاما حتى اطمأن إلى اندثار فكرة الوحدة وبالتالى إلى ثبوت

---

(٦٧) Diod.: XX, 106; **Plut.: Demetrios**, 28 عن تقييم نتيجة المعركة راجع : Tarn and Griffith; Hell. Civ., p.7
كذلك ابراهيم نصحى : نفس المرجع ، ص ٨٣

مركزه فى القسم الذى أراده لنفسه من امبراطورية الاسكندر (٦٨). وعلى نفس الدرجة من الوضوح كان الخط الثانى من سياسة بطلميوس ، وهو حرصه على أن تكون مصر ، دون غيرها ، هى مركز الدولة التى كان يستهدف إقامتها .

وفى الواقع فان مصر قد استرعت انتباه بطلميوس حتى قبل أن يموت الاسكندر وتظهر إلى الوجود فكرة التصرف فى امبراطوريته ، وبالتالى قبل أن تصبح إقامة بطلميوس الدولة فى مصر موضع تفكير . ونحن نلمح ذلك من الوصف الدقيق لحملة الاسكندر على مصر ورحلته إلى واحة آمون (سيوة) الذى يظهر فى كتاباته . ولكن هذا الانتباه يتحول إلى اهتمام عملى هادف منذ اللحظة التى يموت فيها الاسكندر ففى مؤتمر بابل

---

(٦٨) نحن نستطيع أن ندرك مدى مثابرة بطلميوس على فكرة التقسيم وعدم السماح لنفسه بالابتعاد عنها إذا قارنا موقفه مثلا بموقف شخص مثل أنتيجونوس ، الذى رأيناه يهدف إلى الإبقاء على وحدة الإمبراطورية تحت سيطرته هو وابنه . لقد كان أنتيجونوس مثابرا ، هو الآخر ، على اتجاهه ولكنه مع ذلك كان لا يجد غضاضة ، إذا اضطرته الظروف ، أن يعترف بمبدأ التقسيم وأن يتصرف على أساس منه. ودليل ذلك ما حدث فى ٣١١ ق.م. حين اضطر إلى عقد صلح مع المتحالفين ضده (كسندروس وليسماخوس و بطلميوس) فقد كان من بين شروط الصلح أن تكون تراقية تحت حكم ليسماخوس وأن يحتفظ كسندروس بسيطرته على مقدونية حتى يبلغ الاسكندر الرابع (بن الاسكندر الأكبر) سن الرشد ويعتلى عرشها ، وأن يعترف بحق بطلميوس فى حكم مصر .

Diod.: XIX, 105

الذى وزعت فيه ولايات الامبراطورية ليحكمها قواد الاسكندر كولاة من قبل البيت الامبراطورى نجد بطلميوس يحصل على ولاية مصر . ويكاد يكون من المؤكد أن هذا لم يحدث عفوا وانما كان نتيجة لرغبة وتدبير من جانب هذا القائد الذى استرعت مصر انتباهه منذ فتحها ودليل ذلك أن كليومينيس Kleomenes كان صاحب الكلمة الأولى فى مصر منذ أواخر عهد الاسكندر ، وبالتالى فقد كان أمراً طبيعا أن يصبح هو والى مصر بعد موت الفاتح المقدونى ، وبخاصة أنه كان صديقـا لبرديكاس الذى كانت له اليد العليا فى مؤتمر بابل وفى الفترة الوجيزة التى قدر له أن يعيشها بعده . ومع ذلك فقد أعطيت ولاية مصر لبطلميوس واضطر كليومينيس أن يقنع بالمركز الثانى فيها ، وهو أمر ما كان يمكن أن يتم بدون تدبير من بطلميوس . وقد رأينا بطلميوس ، حين دب الشقاق فى مؤتمر بابل واقترب من مرحلة الصدام المسلح ، يتقدم للتوفيـق بين الرأيين المتصارعين حول مسألة العرش فى هذا المؤتمر ، واللذين كان برديكاس ، ومعه الفرسان ، يقف على رأس أحدهما . وليس بمستبعد أن يكون برديكاس ، لقاء هذا الموقف من جانب بطلميوس ، قد أسهم فى توجيه الأمور بحيث تصبح ولاية مصر من نصيب بطلميوس . بل إنه ليس من المستبعد أن يكون برديكاس قد توصل مع بطلميوس إلى اتفـاق مؤداه أن يحصل بطلميوس على مصر ، مضحيا بصديقه كليومينيس ، فى مقابل أن يؤيده بطلميوس فى الحصول على منصب قائد الجيش الذى كان برديكاس يعتبره مركز قوة والذى حصل عليه فعلا فى مؤتمر بابل (٦٩).

(٦٩) يرجع و.و تارن (J.H.S., XLI, p. 5) حدوث مثل هذا الاتفاق ، ويؤيده ابراهيم نصحى (نفس المرجع ص ٥٤) فى رأيه

ولكن التوصل إلى الحصول على ولاية مصر لم يكن إلا الخطوة الأولى بالنسبة لبطلميوس على طريق التمكين لنفسه فيها . فهو حين يقدم إلى مصر ليتسلم ولايتها فى أواخر ٣٢٣ ق م. لا يطمئن لوجود كليومينيس بها فكليومينيس صديق پرديكاس وبطلميوس أول من يعلم مدى طموح پرديكاس إلى السيطرة من خلال سلطته فى مقدونية ، على ولايات الامبراطورية ، وبالتالى فان وجود كليومينيس فى مصر فى مركز الرجل الثانى أمر ينطوى على أكثر من احتمالات الخطر بالنسبة لبطلميوس . وهكذا يبدأ بطلميوس فى الاستماع إلى شكاوى الشعب من تصرفات كليومينيس ويتخذ من هذه الشكاوى ذريعة يتذرع بها لينفذ فيه حكم الإعدام ويؤمن مركزه مؤقتا من جانب رجل پرديكاس قبل أن تصل السنة التى قدم فيها إلى نهايتها وهو تأمين لا يلبث أن يؤكده بصفة نهائية بعد سنتين فى مؤتمر تريباراديسوس (فى سورية) الذى انعقد بعد أن لقى پرديكاس حتفه ، ليعيد فيه قواد الاسكندر توزيع ولايات الامبراطورية بعد إقصاء أنصار پرديكاس - وقد حرص بطلميوس فى هذا المؤتمر على أن يحصل على الاعتراف بمركزه فى ولاية مصر (٧٠) .

على أن توصل بطلميوس إلى الولاية على مصر وإلى اعتراف الآخرين بمركزه فيها لم يكن يشكل نهاية المطاف بالنسبة له . فقد كان هدفه الأساسى هو الاستقلال بهذه المنطقة وإقامة دولة فيها وعلى هذا فنحن نجد أنه ، فى أثناء اشتراكه الحتمى فى الصراع حول تقسيم الامبراطورية ،

---

(٧٠) Diod.: XVIII, 9; Arrian. (ap. Photios), 71

لا يجد مانعا أن يتخلى ، بصفة مرحلية عن بعض مناطق يكون قد حصل عليها ، إذا وجد فى بقائه فيها أو على استمراره فى احتلالها عبءا عسكريا يهدد قوته أو يستدرجه بعيدا بشكل يهدد مركزه فى مصر .

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى ٣١٢ ق م. مثلا ، فبعد انتصاره على ديمتريوس بن أنتيجونوس انتصارا حاسما فى غزة لمنعه من الاستيلاء على مصر نجد أنه يخلى منطقة الغور ، أو جوف سورية ، تفاديا لمجابهة أنتيجونوس حين قدم هذا لمساعدة ابنه ، ووجد بطلميوس أن قوات الأب وابنه تشكل تحديا عسكريا لا يستطيع أن يتكهن بنتائجه . والموقف ذاته يتكرر على الجبهة العربية لمصر ، فحين يساعد أنتيجونوس أوفلاس فى نفس العام (٣١٢) على الاستقلال ببرقة (التى فتحها بطلميوس وعين أوفلاس حاكما عليها من طرفه منذ ٣٢٢) يتركها هذا مؤقتا ، على أن يستعيدها فى فرصة لاحقة (وقد تم هذا فعلا بعد أربع سنوات فى ٣٠٨) مفضلا أن يتفرغ لحماية مصر من الخطر الذى كان يهددها من جانب أنتيجونوس .

ولكن إذا كان بطلميوس على استعداد لاتخاذ مثل هذه المواقف خارج مصر ، فان تصرفه كان مختلفا تمام الاختلاف إذا كان الأمر يتعلق بمصر ذاتها . فهنا نجده يستميت فى الدفاع بكل قوته ضد أى مهاجم للمنطقة التى كان يزمع إقامة ملكه فيها . وهكذا يتصدى ابرديكاس حين يشن هذا هجومه عند بلوزيون فى ٣٢١ ق.م. وتكون النتيجة أن يخفق برديكاس فى الاستيلاء على مصر . وحين يقدم أنتيجونوس على غزو

مصر فى ٣٠٦ فتحطم هذه المحاولة هى الأخرى ، أمام المقاومة العنيفة من جانب بطلميوس ، دفاعا عن أرض الدولة التى كان بسبيل تأسيسها (٧١).

* * *

ونأتى أخيرا إلى الخط الصريح الثالث فى سياسة بطلميوس بصدد تأسيس دولة فى مصر على رأسها بيت حاكم هو مؤسسه وأول حكامه ، وهو العمل الدائب على خلق مركز أدبى متفوق لمصر ، مقر دولته ، وسط العالم المتأغرق . وقد ظهر نشاط بطلميوس فى هذا المجال فى عدة مواقف ابتدأت ، كدأب بطلميوس فى بقية المجالات ، منذ اللحظة التى مات فيها الاسكندر . وسأجتزىء ، للدلالة على هذا الاتجاه ، بالحديث عن موقف أساسى من بينها .

والموقف يتصل بمسألة ربما تبدو غريبة لأول وهلة ، ولكن كان لها مع ذلك أهمية غير عادية . هذه المسألة هى التصرف فى جثمان الاسكندر لقد اجتمع قواد الاسكندر ، لدى وفاته ، فى بابل وقرروا أن يتم دفنه فى مقدونية . وهكذا تم الاستعداد وجهزت العربة التى تحمل الجثمان وانطلقت فى أواخر ٣٢٢ ق.م. من بابل فى طريقها إلى سورية ثم إلى مقدونية.

---

(٧١) يجد القارىء العربى تفاصيل مواقف بطلميوس مع ديمتريوس وانتيجونوس فى سورية ، ومع أوفلاس فى برقة ، ودفاعه عن مصر ضد برديكاس ثم ضد أنتيجونوس ، كما يجد الإشارة إلى مصادرها القديمة فى :
ابراهيم نصحى : نفس المرجع . صفحات ٧٣ - ٧٤ ، ٧٤ ، ٦٣ ، ٨١ على التوالى .

ولكن بطليموس يقوم بحركة ماهرة مخادعة ، فيتفق سرا مع قائد الحامية وتكون النتيجة ، حين يصل الموكب إلى سورية هى أن يقابله بطليموس ومعه قوة من جنوده ، وينحرف به إلى مصر . وفى مصر يتم دفن الجثمان فى منف بصفة مؤقتة ، لينقل بعد ذلك إلى الاسكندرية حيث يستقر بصفة دائمة(٧٢).

ونحن نستطيع أن ندرك المغزى الكامل لهذه الحركة من جانب بطلميوس إذا عرفنا أن المنطقة التى ستصبح مقرا لجثمان الاسكندر ، كانت ستصبح فى نفس الوقت مركز الثقل الأولى فى العالم المتأغرق . لقد كان المقدونيون والإغريق ينظرون إلى الاسكندر نظرة ، إن لم تصل إلى التأليه الكامل ، فهى لا تبتعد عن ذلك كثيرا ، وهى على كل حال ترقى إلى درجة كبيرة فى مراتب التقديس .

والسبب فى ذلك بسيط ، فالاسكندر هو الشخص الذى أذل امبراطور الفرس وقوض أركان أمبراطوريته ليقيم على أنقاضها أمبراطورية ، يصبح هو حاكمها ويصبح اليونان والمقدونيون سادة لها وتصبح فى النهاية المادة التى تكونت منها الممالك المتأغرقة . وقد فعل الاسكندر فى ذلك بعد قرن ونصف كان فيها الإمبراطور الفارسى بالنسبة للاغريق قوة تشكل ظلا داكنا فى حياتهم ، فهو يتدخل فى شئونهم بشكل مباشر أو غير مباشر

---

(٧٢) عن قرار دفن الاسكندر فى مقدونية أنظر :

Srabo : xvll, 1, 8 ; Pausanias : I, 6,3
Diod.; xvlll, 3,5 وهناك فكرة عن دفنه فى واحة سيوة كما يظهر من:
Bell: Eqypt from Alex. the Great to the) : ويسير على هذه الفكرة
'Jouguet: Mac. Imperialism ص ٣٢ ولا يقبلها Arab Conquest
ص ١٣٠ ، وابراهيم نصحى (نفس المرجع) ص ٦٠ .

منذ أيام الحروب الفارسية ، ورغم نتيجتها ، ويؤلب مدينة على أخرى مستعينا فى ذلك بالذهب والمؤمرات وباستغلاله للنزعة الانفصالية التى تفرق بصفه تكاد تكون دائمة بين هـــذه المدن . وقد استمر تدخله هذا الحروب حتى أواسط القرن الرابع قبل الميلاد وكان آخر ما يمكن أن يجول فى ذهن اليونانى هو أن تستطيع الخلاص من هذه القوة التى يستطيع لها ردا ، فاذا بالاسكندر يقضى فى أحد عشر عاما على العملاق الذى أملى ارادته على اليونان طوال قرن ونصف . لقد أصبح الاسكندر نتيجة لذلك ، بطلا فى نظر اليونان وأصبح ما قام به معجزة . والبطولة عند اليونان كما كانت بوجه عام فى العصر القديم تتسم بالكثير من القداسة وتقترب بالبطل من مصاف الآلهة إن لم تجعل منـــه فى الواقع إلها أو نصف إله .

ولقد كان الجو فى ذلك الوقت مهيأ فعلا لمثل هذه النظرة ، كما رأينا عندما تحدثت عن الأفكار التى صدرت عن أمثال أرسطو وأيسكراتيس اللذين قربا بشكل واضح بين شخصيه الاسكندر وفكرة التأليه . وهكذا لا يبدو غريبا أن يصبح لكل ما يتصل بالاسكندر شىء كثير من القدسية وفى هذا المجال نجد بادرة تشير إلى هذا الاتجاه فى تصرفات يومينيس ، القائد اليونانى الذى رأينـاه فى مناسبة سابقة يعمل فى خدمة الاسكندر ، فحين احتدم الصراع بين قواد الاسكندرية غداة وفاته نجد هذا القائد يحمل معه خيمة الاسكندر كحرز يحميه من كيـد خصومه على أساس أن روح الاسكندر كانت تحل بهـذه الخيمة ومن ثم كانت تحمى من يحملها (٧٣).

---

(٧٣) Bell : op. cit., p. 33

فاذا كان لخيمه الاسكندر كل هذه القوة الروحية فما بالك بجثمان الاسكندر ، الذى كان يعتبر دون شك مركز الاشعاع الروحى لشخصية الاسكندر والذى أطلق عليه اليونان والمقدونيون ، لفرط قداسته فى نظرهم ، اسم الجثمان الحى Soma (وليس مجرد الجثمان أو الجثة Ptoma) تأكيداً لفكرة الخلود التى كان اليونان يربطون بينها وبين الآلهة أو من هم فى مصاف الآلهة أو قريبين منهم .

وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم حرص بطلميوس على أن يستغل هذه النقطة لصالحه دون بقية قواد الاسكندر من زملائه الذين أصبحوا بعد موت القائد الكبير خصومه ومنافسيه ، وبالذات قبل أن يستغلها برديكاس الذى كان يرنو من بداية الأمر إلى السيطرة على الامبراطورية ، والذى كان يخدمه ، بالتالى ، إلى حد كبير ، أن يدفن الاسكندر فى مقدونية حيث العرش الإمبراطورى الذى كان قد أزمع السيطرة على شاغليه (وهما شاب معتوه وطفل وليد) وحيث مدفن الملوك المقدونيين فى أيجاى Aegae ، وحيث المركز الأدبى الكبير إذا تم دفن الاسكندر هناك . وقد رأينا كيف نجح بطلميوس فى خطته وأصبحت الاسكندرية ، التى اتخذها عاصمة له ، تضم رفات الاسكندر ، قاهر الامبراطورية الفارسية ومؤسس السيادة المقدونية اليونانية ، ورسول الحضارة الجديدة .

كان هذا هو أحد المواقف التى اتخذها بطلميوس فى سبيل تثبيت مركز مصر ، التى كان قد عزم على اتخاذها قاعدة لدولته ، فى دائرة العالم المتأغرق ـ وهو أمر كان بطلميوس حريصا عليه كل الحرص الذى يجعله يحاول تحقيقه بكل طريقة ، بما فيها هذه الطريقة التى تتمسح إلى حد

كبير بفكرة التقديس كقاعدة أدبية يقوم عليها المركز الذى يهدف إلى تثبيته ، كما تدلنا على ذلك مواقف مشابهة لبطلميوس ، من بينها ترحيبه بصفة سوتر Soter (المنقذ أو المخلص) التى أضفاها عليه أهل رودس وجزر الكوكلاديس ، واتخاذه لهذه الصفة لقبا لنفسه ، كما سنرى فى حديث مقبل ، وهى صفة تشير ، ولو من طرف خفى ، إلى فكرة التقديس .

الباب الخامس

الدعامة العسكرية

كان هذا هو الحديث عن القاعدة التى قامت عليها دولة البطالمة . وقد رأينا أن هذه القاعدة تتكون من ثلاثة عناصر : أولها أرض لها ميزات اقتصادية ودفاعية وإدارية وسياسية ، وهى ميزات ذات قيمة كبيرة لمن يريد أن يؤسس دولة ، إذا أحسن الانتفاع بها . والعنصر الثانى ظروف اكتنفت مصر فى الفترة التى عاصرت تأسيس دولة البطالمة ، بعضها داخلى قوامه شعب له تكوين حضارى وقومى لا يمكن تجاهله ، وبعضها خارجى قوامه اتجاه دولى كان لا بد أن يفرض نفسه على كل خلفاء الاسكندر ، ومن بينهم الشخص الذى أراد أن يقيم دولته فى مصر . أما العنصر الثالث فهو بطلميوس ، الذى أراد أن يقيم هذه الدولة ، والذى استطاع أن ينتفع بميزات الأرض وأن يكيف موقفه إزاء هذه الظروف بالشكل الذى يمكنه من تحقيق هدفه .

على أن هذه العناصر لم تشكل سوى الأساس أو الفرشة القاعدية التى قامت عليها دولة البطالمة . أما بناء هذه الدولة ذاته فقد كان لا بد أن تدعمه أركان أو مقومات أو دعائم فى كافة المجالات التى تتكون منها أبعاد الدولة الجديدة ، سواء من حيث وضعها الداخلى أو من حيث علاقتها بالعالم الخارجى . وقد قامت هذه الدعامات فى أربعة مجالات أساسية هى : المجال العسكرى ، والمجال الاقتصادى والمجال الاجتماعى والمجال الأدبى .

١ – نظرة عامة على القوة العسكرية عند البطالمة :

ولنكن بداية حديثى عن المجال العسكرى . وهنا نجد أنه كان من الطبيعى أن تقفز ظروف العصر بالاعتبارات العسكرية لتصبح الدعامة الأولى لحكام الممالك المتأغرقة . وقد أشرت فى اكثر من مناسبة إلى الصراع والتناحر الذى نشب بين قواد الاسكندر غداة موته والذى جعل كلا منهم يحاول أن يقتطع لنفسه أحسن أو أكبر نصيب من امبراطورية الفاتح المقدونى . وقد رأينا ان الصراع فى هـــذا المجال لم يستمر سنه أو سنتين وإنما ظل قائما فى قوته وقسوته ما بين معـارك ومؤامرات ومناورات منذ وفاة الاسكندر فى ٣٢٣ حتى ٣٠١ ق.م. ولم تـكن هذه السنة هى نهاية الصراع بأية حال ، وانما كانت مجرد نهاية لمرحلة من مراحله وبداية لمرحلة جديدة . فاذا كان الهدف من التناحر قبل ٣٠١ هو حصول كل من هؤلاء الخلفاء على نصيبه من امبراطورية الاسكندر والحصول على اعتراف خصومه بسيطرته على القسم الذى كان يريد ان يصبح من نصيبه ، فان الهـدف بعد ٣٠١ أصبح تدعيم مراكزهم فى المناطق التى كانو قد أصبحوا ملوكا لها منـــذ بضع سنوات ، ثم محاولة مد منـاطق نفوذهم ، كل منهم على حساب الآخرين . وهـكذا استمر التناحر بينهم وان كان قد اتخذ هدفا جديدا غير هدفه القديم .

فى ظل هذا الوضع ، إذن ، لا يبـدو غريبا ان يتجه البطـالمة أول ما يتجهون ، شأنهم فى ذلك شأن بقية خلفاء الاسكندر ، إلى إقامة ملكهم على دعامة عسكرية راسخة . ومن المنطق ، فى هذا المجال ، أن نتصور أن بطلميوس لم يبدأ من نقطة اللاشىء ، فقد كانت فى كل ولاية من ولايات الاسكندر ، غداة موته ، قوة عسكرية كانت كافية ، تحت ظل الامبراطورية

القوية للدفاع عنها وحمايتها . ولكن مثل هذه القوة لا بد أنها تغيرت تغيراً جذريا بعد أن أصبح بطلميوس واليـــا على مصر فى ظرف من التحفز الذى لم يلبث أن تمخض عن صراع طويل بين خلفاء الاسكندر . وقد رأينا فى مناسبة سابقة مدى حرص هذا القائد على أن يتخذ من مصر قاعدة لملك يكون هو مؤسسه ، كما لمسنا إستعداده الدائم للدفاع عن هذه القاعدة ضد أية محاولة لاحتوائها أو لتهديدها من قريب أو من بعيد . بل أكثر من ذلك فإن بطلميوس ، كما سنرى فى أثناء الحديث عن السياسة الخارجية للبطالمة ، قد عمل منذ بداية حكمه لمصر ، حتى قبل أن يعلن نفسه ملكا عليها ، على أن يؤمن حدودها عن طريق احتلال المناطق التى تضمن له هذا الأمان ، كما استهدف مد نفوذه إلى أية نقطة يستطيع أن يصل اليها بهذا النفوذ . ومن هنا فقد كان أمراً طبيعيا أن يطور القوة العسـكرية التى وجدها فى مصر لتتناسب وهذه الأهداف العريضـــة البعيـــدة (٧٤) .

---

(٧٤) يذكر المؤرخ ديودوروس (XVIII, 14, 1) أن بطلميوس أنفق ثمانية آلاف تالنتا (وهو مبلغ كبير) من الأموال التى وجدها فى خزائن مصر . بمجرد وصوله اليها فى تجنيد قوة من المرتزقة .

راجع : ابراهيم نصحى : المرجع نفسه ، ج ١ ، صفحات ٣٤ - ٣٥

راجـع كذلك : J. Lesquier: Les Institution Militaires de l'Egypte Sous les Lagides ، ص ٢ . ورغم قدم هذا الكتاب من الناحية الزمنية (صدر فى باريس ١٩١١) إلا أنه لا يزال يعتـــبر الدراسة الأساسية فى هذا الموضوع .

وقد أنعكست السمة الأساسية للعصر على الدعامة العسكرية للبطالمة. فكما كان الاتجاه الأساسي للعصر دوليا. كذلك كانت القـــوات المحاربة للبطالمة قريبة من الصفة الدولية فى طابعها وتكوينها، فبين هذه القوات كان هناك المقدونيون والإغريق والمصريون وعدد من الجنسيات الآسيوية وفى الواقع فإن وجود هذه الجنسيات المختلفة فى جيش واحد لم يكن شيئا يصعب تصوره فى ذلك العصر. فالعصر كله قد ابتدأ بمغامرة ظهر فيها الاتجاه العالمى فى أكثر من صورة، وإذا كان الاسكندر قد مات قبل أن يتاح لفكرته العالمية أن تتحقق بالصورة المثالية التى صورت اصاحبها ذات يوم أن يمزج الدماء الشرقية بالدماء الغربية فيتزوج من إمرأة شرقية ويدفع عددا غير قليل من ضباطه أن يحذو حذوه - أقول إذا كانت فكرة العالمية قد توقفت بشكل مبتور قبل أن تصـــل إلى صورتها المثالية، فانها فى نفس الوقت لم تذهب دون أن تترك أثراً. وإذا كان هذا الأثر لم يصل إلى حد رفع الحواجز العنصرية بين الغربيين والشرقيين، فإنه قد مكن من الاختلاط والتعايش بين الفئات المنتمية إلى العنصرين رغم وجود هذه الحواجز.

كذلك فإن العصر قد أنفتح على تأسيس عدة دول فى وقت واحد، ولم تكن هناك حدود ثابتة مستقرة يقف عندها مؤسسو هذه الدول، وانما كانت المسألة متروكة للقوة العســـكرية، بشكل أساسى، لتكون الفيصل الذى يضع هذه الحدود، وفى مثل هذا الظرف يصبح الشاغل الاول لكل من هؤلاء المؤسسين هو الحصول على هذه القوة بأية طريقة يرى أنها تصل به الى هدفه. وقد رأينا أن الصراع انفجر بينهم قبل مضى وقت طويل من وفاة صاحب الامبراطورية التى أقتسموها، بحيث

لم يكن فى المسألة خيار واسع أمامهم من حيث التمسك بالاعتماد على عنصر دون الآخر ، وهكذا بدأ التقليد واستمر .

وقد أدى هذا الوضع الى ظهور طابع آخر أتصفت به القوة العسكرية البطلمية ، وهو فى الواقع استمرار للطابع الاول . هذا الطابع هو المرونة التى صبغت نظرة البطالمة الى نسبة العناصر المكونة لهذه القوة . إن البطالمه لم يلتزموا فى هذا المجال بنسبة معينة بين عنصر وعنصر ، وإنما كيفوا أنفسهم فى هذا المجال حسب الظروف التى أحاطت بهم فى المراحل المختلفة من حكمهم . لقد كانت القوات العسكرية للبطالمة على سبيل المثال تتألف فى الأساس ، من فرق نظامية من المقدونيين ، وفرق من المرتزقة ، ثم فرق المصريين . وكانت الفرق النظامية المقدونية تشكل قلب الجيش ، وهو القسم الأساسى منه ، بينما كانت الفرق المصرية تؤدى أعمالا ثانوية مساعدة ولا يعتمد عليها إلا فى حالة الضرورة القصوى (٧٥) . ولكنا نجد هذا الوضع يتغير تماما فى أوائل القرن الثالث حيث نجد قلب الجيش يتألف فى موقعة رفح (٢١٧ ق م.) من الفرق المصرية . كذلك فإن الفرق النظامية لم تعد قاصرة على المقدونيين ، وإنما أصبحت تستكمل عند الحاجة ، من عناصر أخرى إغريقية وآسيوية ، بل لقد أصبح الآسيويون هم أكثر العناصر عددا فى الفرق النظامية فى القرن الأول ق. م. وفوق كل هذا فان كل العناصر التى دخلت فى تكوين هذه الفرق أصبح يطلق عليها اسم « المقدونيين » بغض النظر عن الأصل الذى تنتمى اليه .(٧٦)

---

(٧٥) راجع الحديث عن القوات المصرية فى القسم الثانى من هذا الباب .

(٧٦) ابراهيم نصحى : نفسه ، صفحات ٢٣٦ - ٢٣٧

القوة العسكرية ، إذن ، كانت دعامه أساسية اعتمد عليها البطالمة فى إقامة ملكهم فى مصر فى وجه تحديات العصر الذى قفزت فيه القوة إلى المقدمة كفيصل فى حسم العلاقات الدوليـة ، بل أكثر من ذلك فى رسم حدود الدول ذاتها . وقد رأينـا ذلك يدفع البطالمـة إلى الاستعانه ، فى تكوين جيوشهم ، بكل العناصر التى توسموا فيها مقدرة أو خبر فى هذا المجال . ومن هنا فقد كان أمرا طبيعيا أن يفكر البطالمة فى وسيلة يضمنون بهـا استمرار الخدمة التى تقدمها هذه العناصر . وزاد من حرص البطالمه على إيجاد هذه الوسيلة عاملان : أولهما أن القسم الأكبر من هذه العناصر كان من غير أبناء البلاد الأصليين سواء فى ذلك المقدونيون الذين كان سواء لديهم ، على الأقل قبل أن يستقروا بشكل نهائى فى مصر ، أن يخدموا فى جيش بطلميوس أو غيره من القادة المقدونيين الذين أصبحوا حكاما للدول المتأغرقة (٧٧) ، أو المرتزقة الذين كانت الجندية عندهم عملا يقومون به لحساب أية جهة ما داموا يحصلون على الأجر المناسب . أما العامل الثانى فهو أن البطالمه لم يكونوا وحدهم فى الميدان ، وانما كان هناك أندادهم وخصومهم من حكام الدول المتأغرقة الذين كانوا ، هم الآخرون ، يحتاجون إلى الخبرات والأعداد العسكرية ، ومن ثم فقد كان لا بد أن يقوم نوع من التنافس على أجتذاب العناصر المحاربه .

وقد لجا البطالمه فى سبيل تحقيق ذلك إلى طريقه تتفق وطبيعة إمكانيات

---

(٧٧) على سبيل المثال انضم إلى جيش بطلميوس عدد من الجنود المقدونيين الذين كانوا يعملون فى جيش برديكاس بعد أن قتل هذا الأخير عقب فشله فى محاولته لغزو مصر (٣٢١ ق.م.) أنظر : Diod. : xvIII, 19 sq., 33 sq.

المنطقة التى أصبحت مقرا لحكمهم . ومصر كانت بلدا زراعيا من الطراز الأول ، رهكذا أشتق البطالمة وسيلتهم لإغراء هذه العناصر للمجىء إلى مصر والخدمة فى القوات العسكرية لحكامها ، والإقامة بها إن أمكن ، من هذه الصفة . وكانت هـذه الطريقة تتمثل فى منح كل من يريد من هؤلاء المحاربين قطعة أرض (kleros) يزرعها ويقيم بهـا لقاء استعداده الدائم للخدمة فى جيش الملك (٧٨) .

والنظام الذى قامت على أساسه هذه المنح الزراعية للمحاربين لم يـكن جديداً على مصر بأية حال . فقد عرفته البلاد منذ أيام الرعامسة فى الدولة الحديثة ، وكانت هذه الأراضى الممنوحة للعسكريين تشكل القاعدة التى قامت عليها الأرستقراطيه العسكريه الليبية التى ظهر من بين صفوفها فراعنة الأسرة الثانيه والعشرين (٧٩) . كذلك فإن هـذا النظام كان يستند إلى النظريه الفرعونيه ، التى اعتنقها وسار عليها البطالمه ، وهى أن الأرض وما عليها ملك للملك (٨٠) ، ومن ثم فقد كان بإمكانه أن يتصرف فيها عن طريق إعطاء هذه المنح من الأراضى الزراعيه للمحاربين .

---

(٧٨) راجع عن نظام الإقطاعات :

J. Lesquier : op. cit., 162-254

Bouché-Leclercq : Histoire des Lagides, III, pp. 229-236

Claire Préaux : L'Economie Royales des Lagides, p.p. 463-80

(٧٩) P. Jouguet : Trois Études sur l'Hellénisme, p. 71

(٨٠) راجع النظرية فى الباب الثانى من هذه الدراسات

وقد كان وضع هؤلاء المحاربين فى الأراضى المقطعة لهم ، يتوقف ، من الناحيه الرسميه عند حق الانتفاع الذى ينتهى بانتهاء حياة المنتفع . ولكن البطالمة دفعوا به من الناحية العملية ، إلى أبعد من ذلك فى سبيل إغراء العناصر المحاربة بالقدوم إلى مصر والاقامة فيها . ومن هنا فرغم أن الاقطاعات كانت تعود إلى الملك بعد وفاة المنتفع ، وله (أى للملك) أن يعطى حق الانتفاع بها بعد ذلك لمن يريد ، إلا أن الاولوية فى إنتقال هذا الحق كانت تعطى لأحد أبناء المنتفع مادام صالحا للخدمة العسكرية وقد تطورت هذه الأولوية قد تطورت مع الزمن لتصبح حقاً مكتسباً ، بل لتصبح فى فترة من الفترات شيئا قريبا جدا من فكرة التدريث (وهى ركن أساسى من أركان التملك) حتى بصرف النظر عن صلاحية الابن للخدمة العسكرية (٨١) .

أما عن مساحات هذه القطع من الأراضى فقد كانت تتراوح فيما بينها تراوحا كبيراً من حالة إلى أخرى . ففى حالة المحاربين المصريين على

---

(٨١) مثال على هذا نجده فى بردية ليل P. Lille (٢١٨-٢١٧ ق.م.) وفيها نجد الموظف المختص بتسجيل الإقطاعات يذكر مقدونيا أعطى قطعة من الأرض مساحتها ٣٠ أروره فى مقاطعة أرسينوى بحيث تكون « الأرض له ولذريته من بعده » . كذلك نجد فى ٢٠٢ ق.م قطعة أرض (من هذه الاقطاعات الممنوحة) وصفت بأنها «أعطيت للأبد» لأحد الاشخاص راجع : Sethe - Partsch ; Demotische Urkunden zum Aegyptischen Burgschaf.tsrechte ، وثيقة رقم ٧ ، و ص ٦٢٣ وما بعدها .

سبيل المثال كانت مساحة الأرض التى تمنح للمحارب الواحد فى القرن الثالث ق.م. خمسة أرورات (الأرورة تساوى ٢٥١٨ مـــترا مربعا) بينما نجدها ترتفع إلى ثلاثين فى حالة المحارب المقدونى وتصل إلى مائة فى حالة مشاة الحرس من المقدونيين، وقد تصل إلى أكبر من ذلك فى أحوال أخرى (٨٢). وحتى هنا فلم تكن هناك دائما حدود فاصلة بين مساحة القطع التى تمنح لمحاربى العناصر المختلفة بحيث نستطيع أن نقول إن الدائرة التى تتأرجح بداخلها مساحة الاقطاعات التى كانت تمنح لعنصر كانت أضيق أو أوسع من تلك التى تتأرجح بداخلها مساحة الاقطاعات التى كانت تمنح لعنصر آخر. فبعد معركة رفح، على سبيل المثال، كانت إقطاعات المحاربين الاغريق (الذين كانوا يطلق عليهم Katoikoi) أكبر من تلك التى منحت للمحاربين المصريين (الذين كانوا ينفردون إذ ذاك بصفة machimoi)، ولكن الوضع لم يستمر كذلك وأصبح من بين أولئك وهؤلاء من يمنح إقطاعات صغيرة أو كبيرة حسب الظـــروف، بحيث فقدت التسميتان مدلولها العنصرى، فأصبحت التسمية الأولى لا تعنى أكثر من «أصحاب الاقطاعات الكبيرة»، بينما أصبحت التسمية الثانية

---

(٨٢) عن الخمسة أرورات أنظر : اصحى، نفسه، ص ٣٤٦ وحاشية ٢، عن الثلاثين أروره أنظر بردية ليل المشار اليها فى الحاشية ٨١ من هذه الدراسة، عن المائة أروره، وكانت تمنح لجنود الحرس الملكى أنظر نصحى، نفسه ص٣٣٦، عن الأكثر من مائة أروره أنظر P. Jouguet نفسه، ص ٧١

تطلق على « أصحاب الإقطاعات الصغيرة » بصرف النظر عن انتماء أصحابها إلى هذا العنصر أو ذاك (٨٣).

٢ — العناصر الرئيسيه في هذه القوة العسكرية

القوة العسكرية البطلمية كانت ، إذن ، متمشية فى طابعها وتكوينها مع السمة الدولية التى ميزت العصر المتأغرق ، ومن ثم فهى لم تقتصر كما شهدنا ، على عنصر واحد ، وإنما تعددت فيها العناصر التى شملت إلى جانب أهل البلاد الأصليين ، جنودا ينحدرون من سلالات تمتد على جبهة واسعة فى الشرق والغرب .

ورغم أن نسبة الجنود الذين كانوا ينتمون إلى كل هذه العناصر كانت تختلف من فترة الى أخرى عبر حكم البطالمة ، الا أن العناصر الرئيسية بينها حتى معركة رفح ، التى يمكن أن تعتبرها خاتمة لمرحلة النشاط العسكرى الذى صاحب فترة المد الأولى فى السياسة الخارجية البطلمية ـ أقول ان هذه العناصر الرئيسية كانت هى : العنصر المقدونى ، والعنصر اليونانى والعنصر المصرى .

وفيما يخص العنصر المقدونى ، فقد كان الاعتماد عليه أمرا طبيعيـــا لسببين الاول هو أنهم من جنس البيت الحـــاكم ، وعلى هذا فقد كان يشكل الدائرة الضيقة المباشره التى يأمن الملك البطلمى ، المقدونى الاصل ، الى الاستناد اليها ، وهى الدائرة التى كان يأتى منها أفراد الحرس الملكى

---

(٨٣) Oertel : Kat oikoi, (Real Encyc der Altertumswissenschaft)
Tan and Griffith : Hell. Civ., p. 206

والتى رأيناها تشكل النواة الصلبة للفرق النظامية فى الجيش فى بداية عهد البطالمة ، قبل أن تضطرهم الظروف إلى استكمالها من عناصر أخرى . أما السبب الآخر فهو أن المحاربين المقدونيين كانوا يمثلون ، فى نظر أفراد البيت الحاكم البطلمى ، كيانا سياسيا لا يتصورون قيام حكمهم بدونه فالنظام السياسى عند المقدونيين كان يقوم على أساس أن الجيش المقدونى هو القاعدة السياسية الشعبية التى تضفى الصفة الشرعية على سلطات الملك. وقد مر بنا أثناء الحديث عن مؤتمر بابل الذى عقد غداة موت الاسكندر ، أن الجيش هو الذى حدد من يخلف الفاتح المقدونى على غرش الإمبراطورية . وسنرى فى القسم الأخير من هذه الدراسات أن مجلس « المقدونيين » الذى كانت له هذه الصفة العسكرية كان لا يزال ، بعد انقضاء شطر كبير من حكم البطالمة يمارس مهمته هذه عند ارتقاء أحد أفراد البيت الحاكم للعرش ، وفى الواقع فى أى مناسبة تتصل بالمسائل الأساسية المتصلة بالعرش .

على أن اعتماد البطالمة على المقدونيين كعنصر أساسى فى قواتهم العسكرية لم يكن يعنى استقدامهم لأعداد من هذا العنصر بصفة مستمرة من مقدونية . بل إن العكس ، فى الواقع هو الصحيح . فإن بطلميوس الأول أعتمد على من كان موجودا من هؤلاء الجنود فى مصر فعلا حين أصبح واليا عليها واكتفى بهؤلاء ، كما اكتفى خلفاؤه بذريتهم . والسبب فى ذلك أن استقدام أعداد جديدة من المقدونيين من موطنهم الأصلى لم يكن أمرا سهلا أو متـــاحا فى كل الاوقات . فمصر لم تكن على علاقة ودية مع مقدونية بصفة دائمة فى عهد البطالمة (٨٤) . وقد رأينا كيف حاول

---

(٨٤) نصحى : نفسه ، ٣٣٦

پرديكاس أن يغزو مصر فى السنة التالية مباشرة لبداية حكم بطلميوس لمصر ، ولم يكن هذا بأية حال هو المحاولة الوحيدة لغزو مقدونى لمصر أو لاعتداء على نفوذها أو ممتلكاتها فى عهد الاسرة البطلمية . وهكذا فإن اعتماد البطالمة على المحاربين المقدونيين كان يدور فى حدود هذا الاعتبار ، ومن هنا فإن هؤلاء إذا كانوا قد استمروا محافظين على عددهم بشكل عام فى القوات العسكرية البطلمية بين القرن الثالث والقرن الثانى ق. م. بفضل مقدرتهم على التـــأقلم مع البيئة المصرية ، فإن هذه الأعداد لم ترتفع مما يدل على أن هجرة المقدونيين إلى مصر فى هذه الفترة لم يكن أمرا واردا .

* * *

وقد كان العنصر الثانى الذى يمم البطالمة وجههم شطره فى مجال تكوين قواتهم العسكرية هو العنصر اليونانى كما ذكرت ، ولم يكن هذا بالشىء الغريب فاليونان قد عرفوا احتراف الجندية كمرتزقه منذ زمن بعيد . دفعتهم إلى ذلك عوامل طبيعية تتصل بجغرافية بلادهم وقسوة بيئتهم التى قترت عليهم إلى حد بعيد فى موارد الرزق فحاولوا ان يعوضوا ذلك بأكثر من طريق ، وكان من بين هذه الطرق محاولة انتزاع لقمة العيش من بين براثن الموت فى ساحة القتال . وهكذا لم تصبح الحرب عندهم فلسفة قومية تبلور دفاعهم عن وطنهم أو حضارتهم فحسب ، وانما اكتسبت إلى جانب ذلك معنى آخر ، فأصبحت فلسفة معيشية ، هدفها الحصول على قوت يومهم بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ، فلم يعد لديهم مانع من أن يحاربوا فى معارك الآخرين ، وأن يخدموا فى أى جيش وتحت أى لواء ، حتى ولو كان هذا اللواء لعدو بلادهم وحتى لو كان الذين يحاربونهم فى هذه المعارك هم بنى جلدتهم .

ولم يكن هذا كل شيء فاليونان الذين دفعتهم طبيعـة بلادهم الى احتراف الجندية كانوا قد وصلوا فى هذا المجال إلى قدر كبير من التخصص فى القرن الرابع بالذات (وقد كان القرن الرابع فى الحقيقـة قرن تخصص عند اليونان فى كافة جوانب نشـاطهم المادى والأدبى). وكان لذلك عدة أسباب: منها أنهم قد أضافوا إلى ما كان عندهم من فنون الحرب تلك التى نقلوها عن الفرس فى أثناء حروبهم معهم منذ أوائل القرن الخامس، ومنها أنهم فى غضون القرن الخامس والنصف الأول من القرن الرابع قد بدأت حروبهم تتخذ طابعاً يتسم بالاتساع والامتداد، فشملت فى بعض الأحيان عدداً من الدويلات اليونانية تضم قسماً كبيراً من بلاد اليونـان سواء فى جنوبى شبه جزيرة البلقان، أو فى جزر بحر إيجه أو فى مهجرهم على السواحل الغربية لآسية الصغرى، وامتدت فى بعض الأحيان عقدا أو عدة عقود من الزمان كما حدث فى أثناء الحروب الفارسية بين الفرس واليونان أو فى الحروب البلوبونيزية بين أثينه واسبرطه وحلفائها - وقد كانت هذه الحروب باتساع رقعة جبهاتها وامتداد الزمن الذى استغرقته معاركها، بمثابة المعمل الذى نضجت فيه تجارب اليونان العسكرية حتى وصلوا إلى درجة التخصص الذى أشرت اليه (٨٥).

---

(٨٥) بلغ من انتشار نظام الارتزاق بالجندية فى بلاد اليـونان فى أواسط القرن الرابع ق. م. (قبل فتوح الاسكندر بنحو عقد ونصف من الزمان فقط) أن نجد ديموستنيس الخطيب الأثينى يذكر لنـا فى عام ٣٤٩ ق. م. أن «جنوداً مرتزقة فقط» كانوا يحاربون معارك أثينه، كما نجده يوبخ المواطنين الأثينيين لأنهم لا يشتركون فى حروب مدينتهم وإنما ينتظرون حتى تأتيهم الأخبار بأن الجنود المرتزقة الذين يقودهم فلان أو غيره قد أحرزوا نصرا لأثينه. أنظر: Dem.: IV, 24; III, 35

ثم كان ظهور الاسكندر واتجاهه العسكرى الذى حاول عن طريقه أن يطيح بالامبراطورية الفارسية ونجح فى محاولته . فكانت السنوات الاحدى عشر التى قضاها فى تقويض أركان هذه الامبراطورية واقامة امبراطورية على انقاضها ؛ وفى المعارك التى نشبت فى هذه السنوات كانت فرصة الجنود اليونان ، الذين كانوا يشكلون قسما أساسيا من قوات الاسكندر ، ليكتسبوا تجارب جديدة تحت ظروف جديدة خارج بلاد اليـــونان وفى المناطق الواقعة فى القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط بالذات - وهى المناطق التى ستقوم على أرضها الدول المتأغرقه .

لقد كانت كل هذه العوامل دون شك فى أذهان قادة الاسكندر الذين اقتسموا الامبراطورية بعد وفاته . وقد اختلط هؤلاء القواد بالجنود اليونان فى أثناء فتوح الاسكندر وزاملوهم فى المعركة وأدركوا ، عن كثب ، القيمة العسكرية لهؤلاء الجنود الذين اعتمد عليهم الاســـكندر إلى جانب المقدونيين ، فى تحقيق انتصاراته المذهلة على جنود الامبراطورية الفارسية المترامية الأطراف الواسعة الموارد سواء فى الناحية العسكرية أو الاقتصادية .

حقيقة إن إنتصارات الاسكندر ربما لم تكن ترجع فى كل جوانبها ، بعد عبقريته العسكرية ، إلى القيمة العسكرية لجنوده - ومن بينهم الجنود اليونانيون ، إذ لا شك أن ظروفا أخرى قد ساعدته فى هذا المجال ، هى ظروف الامبراطورية الفارسية ذاتها ، التى كانت فى حالة تدهور سريع من ناحية مقوماتها الادارية والسياسية والعسكرية ، والتى كانت تشكو من ضعف شخصية الامبراطور الذى شاءت الظروف أن يواجه العمليـــات

العسكرية للاسكندر (٨٦). ولكن قواد الاسكندر لم يكونوا يعرفون ذلك أو يهتمون به ، لقد كانوا قواداً عسكريين يدركون ما يرونه أمامهم - وقد كان الذى أمامهم فى ذلك الوقت هو أن الجنود اليونانيين كانوا يشكلون قسما أساسيا من قوات الاسكندر ، هم الذين أعتمد عليهم القائد الكبير فى الاطاحة بالامبراطورية الفارسية وهزيمة جنود الامبراطور الفارسى . واعتقد أنه من قبيل التكرار المفيد أن أعيد هنا ، بغرض إيضاح هذه النقطه ، ماسبق أن أشرت اليه من أن هذا لم يكن بالشيء الذى لا يؤبه له ، فالامبراطور الفارسى كان يمثل العملاق الذى ألقى ظله الداكن على بلاد اليونان أكثر من قرن ونصف قرن منذ الشطر الاول من القرن الخامس ق.م. ، والذى كان يفرض وجوده ، بشكل غير مباشر ، على سياسة الدويلات اليونانية ، يدس أنفه فى دقائق أمورها دون أن يكون هناك ما يوحى بوجود من يستطيع الخلاص منه . وقد رأى هؤلاء القواد الآن الجنود اليونانية تحت قيادة الإسكندر وقد أذلوا هذا العملاق ثم أردوه وتخلصوا منه إلى غير رجعه . وهكذا كان طبيعيا أن يرسب فى أذهان قواد الاسكندر ، الذين أصبحوا بعد موته خلفاء له أن أية دعامة عسكرية راسخة يمكن أن تتجاهل أو تستغنى عن هؤلاء اليونان من الجنود المحترفين .

كان هذا هو موقف ملوك الدول المتأغرقة ، ومن بينهم البطالمة ، من اليونان . وقد كان موقف اليونان أنفسهم فى ذلك يمهد لأن تلتقى

---

(٨٦) راجع الباب الثانى من هذه الدراسة .

اتجاهاتهم مع اتجاهات هؤلاء الملوك . فبلاد اليونان فى العقود الأخيرة من القرن الرابع كانت قد دخلت فى طور الانحــدار الذى أودى بقيمهم الحضارية فى كافة مجالاتها ، كما مر بنا فى مناسبة سابقة ، وهو الطور الذى ابتدأ بظهور القوة المقدونية فى الأفق السيــاسى فى أواسط ذلك القرن واتخذ شكله المتبلور الملموس حين قضى فيليب . أبو الاسكندر ، على القوة العسكرية الاثينيه الطيبية المشتركة فى موقعة خارونية فى ٣٣٨ ق م ثم أعقب هذا النصر العسكرى بسيطرة سياسية حين أقام فى السنة نفسها الحلف الهلينى الذى أخضع فيه عدداً كبيراً من المدن اليونانية لزعامته الاجبارية . وقد كان من الطبيعى أن يعقب هذا الانهيار العســكرى والسياسى انهياراً فى القيم التى كانت تشكل كيان حياتهم الجماعية بل والفردية فلم يعد اليونانى يشعر أن بيده ، كعضو فى المجلس الشعبى مثلا ، أن يصرف أمور مدينته الداخلية أو أن يوجه سياستها الخارجية ، كما لم يعد فى امكانه أن يمارس حريته الفكرية التى كانت تشكل جانبا أساسيا من حياته والتى كانت تظهر فى أتم وضوح فى كتابات الفلاسفة السياسيين وفى المسرحيات التى كانت تصور الحياة اليونانية وتفصل فى جوانبها وتنقد كل ما يعن لها أن تنقده فى هذه الجوانب من المبادىء أو الشخصيات دون خوف ، حتى لو كانت هذه المبادىء تتعلق بالحرية ، وحتى لو كانت هذه الشخصيات تنتمى إلى دائرة أصحاب النفوذ .

وإذا كان اليونان قد فقدوا ، بعد السيطرة المقــدونية على بلادهم ، تلك القيم التى كانت تسود حياتهم من قبل فى عصر ازدهار دولة المدينة والتى كانت تجعل لهذه الحياة المعنى أو الهدف الذى يربطهم ببلادهم إلى

حد كبير ، فإنه لم يبق أمامهم إلا الفـــرص المادية ، الاستقرار والرخاء المعيشى ، يبحثون عنها حيثما وجدوها . ومن ثم بدأوا يتطلعون بشكل ظاهر إلى ما وراء بلاد اليونان للحصول على هذه الفرص ، يعاونهم فى ذلك اتجاههم الكامن نحو الهجرة ، الذى ميز تاريخهم فى أغلب مراحله ، وهو الاتجاه الذى عرفنا أن أهم أسبابه هو عجز الموارد الطبيعية الاقتصادية عن أن تفى بضرورات الحياة اليومية لليونانيين . وهنا تكمن نقطة الالتقاء بين اتجاه هؤلاء اليونان واتجاه حكام الدول المتأغرقه ، ومن بينهم البطالمة ـ أولئك يبحثون عن فرص مادية معيشيه وهؤلاء يوفرونها لهم ، لأنهم يحتاجون اليهم .

التقى اتجاه اليونان ، إذن ، مع أهداف البطالمة فى مجال الخــدمة العسكرية . وقد كان هناك عدد كبير من هؤلاء الجنود اليونان فى القرنين الثالث والثـــانى ق.م. فقد كان هناك ، إلى جانب اليونان الذين كانوا ضمن الحامية التى وجدها بطلميوس الأول فى مصر حين أصبح واليا عليها ، والى جانب الذين وفدوا من بلاد اليونان مع بداية العصر المتأغرق ، أولئك الذين كانوا موجودين فى مصر منذ الشطر الأخير من حكم الفراعنة وبخاصة منذ عهد الأسرة السادسة والعشرين التى أشرت فى مناسبة سابقة أن ملوكها شجعوا استقدام اليونانيين إلى البلاد والاعتماد عليهم كجنود مرتزقة .

ولكننا نجد أن عدد هؤلاء الجنود يأخذ فى التناقص بعد ذلك ليحل محلهم الجنود المرتزقة من البلاد الآسيوية . وقد كانت هذه الظاهرة ترجع فيما يبدوا ، إلى أكثر من سبب : من بينها الحـــروب المستمرة التى

شهدتها بلاد اليونان على مدى القرون الثلاث ، الرابع والثالث والثانى ق. م. وهى حروب كان لا بد أن تؤدى الى نقص فى عدد الرجال ، ومن بينها ضعف الروح الحربية تدريجيا بين الجنود اليونانيين الذين وجدوا فى مصر من فرص المعيشة ماأضعف لديهم حافز العمل كجنود مرتزقة فى سبيل الحصول على خبزهم اليومى. وهكذا نجد ، على سبيل المثال ، أن اليونان الذين كانوا يعملون فى الفرق النظامية البطلمية ، بينما كانوا يمثلون خمس أصحاب الاقطاعات العسكرية فى القرن الثالث ق م. أصبحوا لا يمثلون فى القرن التالى الا ثلث هذه النسبة (٨٧) .

* * *

ثم نأتى الى الحديث عن العنصر المصرى ووضعه فىالقوات العسكرية البطلمية. لقد ظهر هؤلاء بأعداد كبيرة فى جيش بطلميوس أثناء موقعة غزة (٣١٢ ق.م.) وإن كانوا يقومون بأعمال ثانوية أو مساعدة فى معركة ولا يقومون بالقتال الفعلى ، حسبما يذكر لنا المؤرخ ديودوروس إلا عند الحاجة القصوى (٨٨) وليس غريباً أن يتجه البطالمة إلى الاستعانة بالمصريين فى تكوين قواتهم العسكرية منذ عهد بطلميوس الأول ،حتى حين كان لا يزال واليا على مصر ، فإن التحفز للصراع العنيف الذى نشب بين خلفاء الاسكندر منذ لحظة وفاته كان لا بد أن يدفع بطلميوس ، كما رأينـا ، الى الاستفادة من أية امكانيـة عسكرية يستطيع أن يصل اليها ، وقد كانت بين المصريين طبقـة المقاتلين أو المحاربين machimoi (حسب تسمية اليونان لهم) الذين رأيناهم ، منذ عهد الرعامسة ، يمنحون اقطاعات يعيشون عليها نظير إستعدادهم الدائم للخدمة فى القوات العسكرية .

---

(٨٧) نصحى: نفسه، ص٣٣٧ وحاشية .

(٨٨) Diod.: xix, 89,4

ولكن مع ذلك فان ما ذكره ديودوروس من إسناد الأعمال الثانوية اليهم وعدم ادماجهم الكامل فى صفوف القوات المقاتلة فعلا يصور لنا اتجاهات لا تبدو غريبة على العقلية العملية التى ميزت مؤسس الدولة الجديدة فى مصر. لقد كان بطلميوس ، رغم استعداده للانتفاع بالمصريين ، كمقاتلين ، عند الضرورة يشك فى مقدرتهم الحربية . لقد رأى هذا القائد المصريين يفتحون أبوابهم للاسكندر دون معركة ، وما كان له أن يعرف شيئاً عن الأمجاد العسكرية للمصريين فى فترات سابقة من تاريخهم ، أو أن يدرك مدى سخط المصريين على الحكم الفارسى والذى أدى بهم إلى النظر إلى الاسكندر كمحرر يرحبون به وليس كفاتح يقفون فى وجهه . الشىء الوحيد الذى كان من الممكن لقائد عسكرى مثل بطلميوس أن يدركه هو أن المصريين سلموا دون معركة فى الوقت الذى وقف فيه غيرهم ، مثل أهل صور ، يتحدون الحصار فترة طويلة .

كذلك فان هذا السياسى الواقعى الذى جعل أفراد حرسه الملكى من بين أبناء جنسه من المقدونيين الذين كان يأمن إلى الاستناد اليهم ، كان يقدر أن المصريين ، رغم استماعه لشكاواهم حين كان بسبيل التخلص من كليومينيس ، لا يمكن أن ينظروا اليه إلا على أنه حاكم أجنبى ، ولا يمكن أن يعتبروا حكمه ، على المدى الطويل ، الا حكما أجنبيا . ومن هنا كان استخدامه لهم فى قواته المسلحة بعيدا عن الصفوف المقاتلة فعلا ، إلا إذا دعت إلى ذلك الضرورة القصوى - وقد شكل هذا دون شك اتجاها تبعه فيه خلفاؤه فى بداية الحكم البطلمى ، على عهد بطلميوس الثانى ، فيلادلفوس Philadelphos ، وبطلميوس الثالث ، يوارجيتيس Euergetes .

على أن وضع المصريين فى القوات العسكرية البطلمية ما لبث أن تغيّر تغيرا جذريا فى عهد بطلميوس الرابع ، فيلوباتور Philopator ففى أثناء معركة رفح التى دارت بين هذا الملك وبين انتيوخوس السلوقى فى ٢١٧ ق.م. نجد أن المصريين هم الذين يكونون قلب الجيش البطلمى ـ الأمر الذى أدى إلى أن يعتبر بوليبيوس النصر البطلمى فى رفح نصرا مصريا (٨٩) . ويتحدث هذا المؤرخ عن وضع الفرق المصرية فى قلب الجيش وتسليحهم بالأسلحة المقدونية فى عهد فيلوباتور على أنه حدث ضخم يشكل اتجاها غير عادى بالنسبة للاحوال السائدة فى عصر البطالمة (٩٠) . والغريب فيه فعلا أن يعتمد فيلوباتور ، بعد ما رأينا من اتجاه أسلافه ، الى الاعتماد على المصريين ليصبحوا هم القوة الضاربة الأساسية فى الجيش . فالمقدونيون هم الذين كانوا يحتلون هذا المكان أساسا ، واذا دعت الحاجة فقد كانت الفرق النظامية التى يتكون منها قلب الجيش تستكمل من عناصر أخرى أغلبها ، فى عصر البطالمة الأوائل من الإغريق .

وربما نستطيع أن نرد عدم اعتماد فيلوباتور فى معركة رفح على الإغريق فى تكوين قلب الجيش الى تناقص عدد هؤلاء واتجاههم إلى وسائل أخرى لكسب عيشهم كما أشرت فى مناسبة قريبة . ولكن الأمر الذى يبدو غريبا هو عدم الاعتماد على المقدونيين ، وهم الذين كانوا يشكلون العصب الأساسى للفرق النظامية التى يتكون منها قلب الجيش وقد يكون مرد ذلك الى بعض الظروف الداخلية التى كانت سائدة فى عهد هذا الملك . فقد

---

(٨٩) Polyb .: v. 82,6 : 109, 2 sq.

(٩٠) Ip.: Ibid., 107,2

استطاع وزيره سوسبيوس أن يسيطر على تصرفاته إلى حد كبير بفرض الاستئثار بالسلطة لنفسه . وكان من بين ما قام به هذا الوزير هو أن أوغر صدر فيلوباتور ضد أخيه الذى كان يتمتع بمحبة خاصة بين الجنود وليس بمستبعد تحت هذه الظروف أن يكون عدم ظهور المقدونيين فى قلب الجيش فى هذه المعركة يعكس إبعادا لهؤلاء الجنود عن صلب القوة العسكرية سببه هو تخوف الملك من ولائهم لأخيه حسبما صور له رجل المؤامرات الذى يعمل وزيرا له (٩١) .

ولكن وضع المصريين الذى توصلوا إليه فى معركة رفح لم يستمر . فقد كانت نتيجة الانتصار المصرى فى هذه المعركة هو إعادة الثقة إلى نفوس المصريين ، الأمر الذى أدى إلى اتساع ثوراتهم ضد البطالمة (٩٢) . وهكذا عدل هؤلاء عن استخدام الفرق المصرية لتكوين قلب الجيش . وإن لم يستبعدوهم نهائيا من القوات المحاربة ، فمثل هذه الخطوة كان يمكن أن تبدو تحدياً للشعور القومى عند المصريين . كذلك فإن إرضاء المصريين كانت قد بدأت تعتبر أمرا لازما كنوع من التوازن الداخلى بعد ظهور بعض التوتر فى علاقة البطالمة اليونان المقيمين فى مصر ، توتر وصل إلى درجة الانفجار أكثر من مرة كما حدث فى عهد بطلميوس الثامن وبطلميوس الحادى عشر على سبيل المثال .

---

(٩١) Polyb .: vx,25

عن شخصية فيلوباتور وتأثير سوسيبيوس عليه راجع: Bell,Egypt etc.,p.57,140

كذلك Bevan;Eg.under the. Pt.Dynasty ، ص ٢٢٠٠ وما بعدها .

(٩٢) Bell, op. cit , p.58

٣ — القوات العسكرية البطلمية بعد معركة رفح

كانت موقعة رفح هى الوقفة الصلبة الأخيرة فى تاريخ البطالمة وبعدها كما سنرى أثناء الحديث عن السياسة الخارجية البطلمية ، جاءت مرحلة الجزر أو الانحسار فى هذا المجال الخارجى ، وانعكس هذا على القوة العسكرية . وفيما يخص الجانب العسكرى بالذات فقد كان هناك أكثر من سبب لهذا الضعف الذى منيت به بعد الفورة الأخيرة فى رفح (٢١٧ ق.م.) ، بل حتى قبل هذه الفورة الأخيرة إذا أردنا التحديد .

وأول هذه الأسباب ، ولعله أهمها ، هو طبيعة الاتجاه الذى اتخذته دولة البطالمة فيما يتعلق بالدعامة العسكرية . لقد تارجح هذا الاتجاه بين الصفة القومية والصفة الدولية وأدى به ذلك بالضرورة ، إلى وضع لا يناسب هذه الصفة أو تلك ، وكان لهذا الوضع معنى واحد فى النهاية - هو الضياع . فالبطالمة أرادوا أن يقيموا فى مصر دولة قومية ولكنهم أرادوا أن يدعموها بقوة عسكرية ذات طابع دولى ، وحتى هذا الطابع لم يكن من النوع الذى يوحد بين أفراد أو فرق الجيش الواحد ، وإنما كان على عكس ذلك يفصل إلى حد كبير بينهم من حيث أن الرابطة التى كانت تربط كل عنصر من العناصر المكونة للجيش البطلمى كانت تختلف فى توجيهها من حالة إلى حالة .

فالمقدونيون كانت الرابطة التى تربطهم بالدولة هى الملك الذى كانوا من جنسه ، بحيث نستطيع ، اذا نظرنا من وجهة نظر معينة ، أن نعتبرهم جميعا ، سواء منهم من كان فى الحرس الملكى أو من كان فى الفرق النظامية ، جنود الملك الذين يرتبطون بشخصه قبل وفوق أى اعتبار آخر ، بما فى

ذلك الاعتبار القومى ، فى مقابل امتيازات معينة تجسدت ، كما رأينا ، فى صورة اقطاعات أكبر من اقطاعات الجنود الذين كانوا ينتمون الى عناصر أخرى . ومثل هذا الولاء الشخصى من الممكن أن يهتز اذا تعرضت العلاقة مع الملك لأى مؤثر خارجى ، أو اذا جد جديد فيما يخص شخص الملك كأن يحدث نزاع على العرش بين أكثر من فرد من أفراد البيت الحاكم ، كما حدث فى أحوال كثيرة فى الأسرة المالكة البطلمية ، وهو أمر لا بد أن يؤدى ، اذا تكرر ، الى انقسام الولاء أو إضعافه .

والمرتزقة من اليونانيين وغيرهم لا تربطهم بالدولة ، هم الآخرون ، رابطة قومية ، والرابطة الوحيدة التى يفهمونها هى رابطة الأجر الذى يحصلون عليه لقاء خدماتهم العسكريه . وإذا كان البطالمة قد حاولوا أن يشتروا بقاءهم تحت تصرفهم العسكرى أطول مدة ممكنة عن طريق منحهم أو منح بعض طوائف منهم ، إقطاعات زراعية تربطهم بمصر ، فإن هذا لم يغرس فيهم أية رابطة قومية نحو مصر ، وإنما رابطة انتفـــاع نحو الأراضى الزراعية التى حصلوا عليها . وبخاصة إذا طالت فترة السلام بحيث ينسى الجندى المرتزق جو الحرب . بل لقد وصل الأمر إلى حد أن نرى واحداً من هؤلاء الجنود يرفع التماسا للملك لإعفائه من الخدمة العسكرية لأنه يفضل عليها البقاء فى أرضه .

أما عن العنصر الثالث الاسامى ، وهو المصريون ، فقد كان العنصر الوحيد الذى نربطه بالدولة رابطة قومية . ولكننا رأينا كيف تصرف البطالمة إزاءه . فقد وكل اليه البطالمة الأوائل الأعمال الثانوية ، وحين وصلت الفرق المصرية إلى قلب الجيش فى عهد بطلميوس الرابع لم تلبث ،

بعد أن حققت نصر رفح ، أن أبعدت عن هذا القسم الاساسى من الجيش . كذلك فان عدم المساواه الاجتماعية بين المصريين عموما (داخل الجيش وخارجه) وبين المقدونيين والإغريق من الجانب الآخر ، بحيث وجد المصريون أنفسهم فى درجة أقل من هذه العناصر الاجنبية ، لا بد أنه أثر تأثيرا سيئا على الرابطة التى كانت تقوم بين هؤلاء الجنود وبين الدولة البطلمية ، بل لقد وجه هؤلاء الجنود نشاطهم إلى مساندة الثورة على الدولة ، بدلا من مساندة الدولة ذاتها (٩٣) .

ولعل فى مقارنة الدولة البطلمية بالدولة الرومانية ما يلقى شيئا من الضوء على مدى هذا التناقض الذى أشرت إليه ، فى حالة البطالمه ، بين الصفة القومية للدولة والصفة الدولية لقواتها العسكريه . ففى الدولة الرومانية نجد أنه عند اتساع حدودها بدأت تستخدم جنودا من غير المواطنين الرومان ، ولكنها عالجت هذا الوضع بأن منحت حق المواطنة الرومانية لسكان شبه جزيره إيطالية الذين كانت تعتمد عليهم الحصول على ما يلزمها من جنود (وإن كان هذا لم يتم بطبيعة الحال إلا بعد شيء من التردد والتوتر بين الطرفين) ، وقد امتد هذا التقليد ليشمل فى فترة متأخرة سكان الولايات التى تكونت منها الامبراطورية الرومانية . وهكذا استطاعت رومة أن توفق بين وضعها كدولة وبين طابع قواتها المسلحة .

وأخيرا ، وليس آخرا ، فقد كان لا بد أن يؤثر على اهتمام البطالمة بقواتهم العسكرية حتى تكاد تصل إلى درجة الاهمال ، ذلك النزاع المرير الذي

---

(٩٣) راجع نصحي : نفسه ، ص ٣٤٦ ، حاشية ٣

تفشى بين أفراد الأسرة المالكة حول ارتقاء العرش فى الشطر الاخير من حكمهم ، وهو النزاع الذى كاد يسقط (أو هو أسقط فعلا) من حسابهم نهائيا ارتباطهم بالدولة كقيمة ، ليحل محله ارتباطهم بالعرش كمركز - وهو الاستنتاج الوحيد الذى يمكن أن نتوصل إليه عندما نستعرض الصراع العنيف بين بطلميوس السادس (فيلوميتور Philometor) وأخيه الصغير - وهو الصراع الذى تدخلت رومه فى أحد مراحله ، لسبب يخدم مصلحتها فى تسويته ، أو الصراع بين بطلميوس السابع والثامن الذى أدى إلى نشوب حرب أهلية فى الاسكندرية وإلى تدخل آخر من رومه ، أو ذلك الذى نشب بين بطلميوس الحادى عشر وإبنته برينيكى الرابعة التى اعتلت عرش مصر أثناء غياب أبيها فى رومه حين ذهب إلى هناك ليستجدى مساندتها لعرشه ضد شعبه الثائر عليه ثم ليعود بعدها إلى الاسكندرية حيث يقتل ابنته عقابا لها على انتهازها فرصة غيابه لترتقى العرش وليقتل معها كل من أيدوها أو ناصروها (٩٤) .

---

(٩٤) راجع تفصيل هذا النزاع على العرش منذ بدايته فى :
محمد عواد حسين : الحرب السورية السادسة وبداية النزاع الأسرى فى مصر البطلمية ، (العدد الأول من حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس)، النزاع الأسرى فى مصر البطلمية من عام ١١٦ إلى عام ٨٠ ق. م (العدد الثانى من الحوليات المذكورة)، نشأة المسألة المصرية فى السياسة الرومانية ٨٠ - ٥١ ق. م. (المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول)، ص ١٨ وما بعدها .

الباب السادس

الدعامة الاقتصادية

رأينا كيف شكلت القوة العسكرية إحدى الدعامات الاساسية فى حكم البطالمة فى مصر ، وكيف استطاعت هذه الدعامة أن تثبت بناء الدولة الجديده أمام تحديات العصر المتأغرق طالما أعتنى البطالمة بها ، وإن كانت قد وقعت فى النهاية فريسة التناقضات الداخلية التى فرقت بين طبيعة تكوينها وبين نوع الدولة التى تخدمها بحيث أصبح الإثنان على طرفى نقيض . ولكن القوة العسكرية التى تمثل دعامة القوة ، لم تكن وحدها ، بالضرورة هى كل ما أعتمد عليه البطالمة فى إقامة ملكهم . فقد لجأ البطالمة ، فى هذا المجال ، إلى إقامة دعامات أخرى ، بعضها مادى وبعضها اجتماعى تتصل بمعالجة العلاقة بين الفئات أو الطبقات التى كان ينقسم إليها المقيمون فى مصر فى عهدهم ، والبعض الآخر مجاله هو تدعيم حكم هذه الأسرة من الناحية الأدبية . وليكن حديثنا الآن عن الدعامة المادية التى تدور حول اقتصاديات مصر تحت حكم البطالمة . وهى دعامة سأتحدث عنها من ثلاث زوايا . الاولى تخص الاحتياجات الاقتصاديه التى جابهت البطالمة فى سبيل تدعيم حكمهم ، والثانية تبرز العنايه التى بذلها البطالمة لتغطية هذه الاحتياجات عن طريق تطوير الاقتصاد المصرى بقصد الحصول على أكبر قدر ممكن من الموارد ، أما الزواية الثالثة فتطالعنا على التنظيم الدقيق الذى مكن للبطالمة من السيطرة على اقتصاديات مصر بالشكل الذى جعل ناصيتها فى قبضتهم بشكل يكاد يكون كاملا .

١ ــ احتياجات الدولة الجديدة

وقد وجد البطالمة أنفسهم فى مواجهة نفقات أقل ما توصف به أنها متعددة وكبيرة إن لم تكن فعلا نفقات باهظة فى بعض الأحيان . وقد كان هـذا طبيعيا إذا أدخلنا فى اعتبـارنا أنهم كانوا بسبيل تأسيس دولة جديدة ، وإذا تذكرنا ظروف العصر الملىء بالتحديات العنيفة فى المجال الدولى الذى أسسوا فيه هذه الدولة . وأول هذه النفقات تلك التى كانت تتعلق بتجنيد عدد كبير من المرتزقة بصفة مستمرة لمواجهة سياسة التوسع أو الدفاع التى كان يفرضها على البطالمة التناحر الدائم بين حـــكام العالم المتأغرق على نحو ما أسلفت ولم يـكن ابتياع خـدمات هؤلاء الجنود هو كل شىء ، وإنما كانت هنـــاك نفقات أخرى فى المجال العسكرى فرضتها ظروف العصر ، من بينها على سبيل المثال استخـدام الفيلة فى الحرب . لقد وجد البطالمة أنفسهم مضطرين إلى ذلك لمواجهة اعتماد غرمائهم من السلوقيين على هذه القلاع المتحركة التى كانوا يستحضرونها من الهند . وقد كان البطالمة يحضرون أفيلتهم من نواحى إثيوبيه . وكان هذا يستدعى منهم بناء سفن خاصة لنقل هذه الحيوانات الضخمة وإقامة موانى لشحنها والقيام بتدريبات واستعدادات متنوعة لصيدها (٩٦) .

---

(٩٥) عن ابتياع خدمات الجنود المرتزقة راجع على سبيل المثال :
J. Lesquier : op. cit', pp. 105-135 ; G.T. Griffith : The Mercenaries of the Hellenistic World, pp. 254-63

(٩٦) Strabo : xvi 769, xvii, 789, Did. : III, 36,3

راجع فى هـذه النقطة : Claire Preaux : Econ. Royale, pp. 34-5. Bevan : A Hist. of Eg. under the Ptol. Dynasty, p.338, Rostovtzeff , Zur Gesch. des Ost-und Südhandels =

كذلك كانت أمامهم النفقات الواسعة التى يفرضها إنشاء أسطول كبير فى وجه التنافس الكبير الذى مارسه فى مجال التسلح البحرى حكام العالم المتأغرق وبخاصة فى فترة تأسيس دولهم ، وقد كان إنشاء أسطول قوى أمرا حيويا لا يمكن أن يتفاداه أو يغفله البطالمة سواء لحماية ممتلكاتهم فى الخارج أو لتأمين اسكندرية ، عاصمتهم وثغرهم الأول ، أو لضمان سلامة تجارتهم الخارجية ، وحسبما يذكر لنا أثينايوس ، فقد فاق البطالمة كل أقرانهم ومنافسيهم فى مجال التسليح البحرى (٩٧) .

وإلى جانب الجيش والأسطول فقد كانت هناك النفقات الباهظة التى كان البطالمة يضطرون للقيام بها لكسب حلفاء لهم فى المجال الدولى حتى يوازنوا الجهود التى كان يبذلها منافسوهم من ملوك العالم المتأغرق فى هذا المضمار . ويذكر لنا بوليبيوس ، فيما يخص هذا الاتجاه ، المساعدات التى تبارى هؤلاء الملوك فى تقديمها لأهل جزيرة رودس حين تعرضت هذه الجزيرة لهزة أرضيـــة فى ٢٢٧ أو ٢٢٦ ق.م. ، وقد قدم بطلميوس يورجيتيس ثمنا لاجتذاب ولاء الروديين فى هذه المناسبة ما قيمته ١٣٠٠ تالنتا من الفضة ، عدا مليون أردب من القمح ومواد أخرى وعمال يسهمون فى مساعدتهم فى محنتهم على حسابه الخاص . كذلك كانت هناك المساعدات الأخـــرى التى قدمها بطلميوس يورجيتيس لكليومينيس Kleomenes ملك اسبرطة والهدايا التى قدمها بطلميوس إبيفانيس للسفراء

im ptolemaisch-röm ischen Aegypten. Die Organisation = der Elephantenjagd Archiv für Papyrusforshung, 4, pp. 301 - 4

(٩٧) Athen. v ,203 d.

الآخيين فى ١٨٥ ق م ، والسفن المحملة بالقمح التى أرسلها البطالمة الأوائل للمدن الإغريقية فى مجال التسابق مع ملوك العالم المتأغرق لخطب ود هذه المدن (٩٨) .

كذلك كانت هناك الأعمال العامة التى كانت نفقاتها مرتفعة بشكل خاص فى بلد كمصر لا يمكن أن تعتمد فى زراعتها على الأمطار ، كما هو الحال فى مناطق أخرى ، وإنما تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على النيل ، ومن ثم فالسبيل الوحيدة للانتفاع بمياه النهر على أبعد مدى ممكن لا يتأتى إلا بشق الترع والعناية بضفافها وبنقط ابتدائها من النهر وبإقامة جسور للانتقال عبرها وبمد الطرق بحيث توازيها وتوصل اليها وهكذا . وإلى جانب هذا فهناك استصلاح الأراضى البور وتسوية الأراضى التى تقع على ارتفاع أعلى من مستوى مياه النهر ، وتعلية الأراضى المنخفضة . وحقيقة إن قسما من هـــذه الأعمال كان يتم عن طريق السخرة وقسما آخر ، فى مجال استصلاح الأراضى بالذات ، كان يقع على كاهل الذين يتلقون إقطاعات كبيرة على هيئة منح من الملك ، إذ كان عليهم أن يستصلحوا

---

(٩٨) عن مساعدة الروديين ، Polyb : v ,39 ، راجع فيما يخص التاريخ
Hiller von gaertrinqen : Rhodos R.E. راجع فيما يخص تحديد
Reinach, Rev. des Et. Grecques, قيمة المنحة بالعملة الفضية
1928 p. 163 عن مساعدة كليومينيس ، plut. : Kleomenes, 32 عن
هدايا الآخيين راجع Bouché-leclercq:Hist. des lagides, I, 394
وعن ارسال الحبوب للمدن الإغريقية راجع :
Heichelheim : Sitos, R. E

منها ما يحتاج إلى استصلاح ، ولكن ما عدا ذلك من تكاليف ، وقد كانت تمثل أغلبية الأعمال العامة ، كان على الدولة أن تقوم به ، ممثلة فى الملك وجهازه الإدارى (٩٩) .

ولم يكن هذا كل شىء فقد كان هناك العدد الكبير من الفنيين والإداريين الذى استقدمهم البطالمة من بلاد اليونان . وقد كان هؤلاء يشكلون زيادة على عدد سكان البلاد ، وبالتالى حملا على اقتصادياتها ، وبخاصة إذا أدخلنا فى اعتبارنا أنهم لم يكونوا يقومون بأعمال انتاجية وإنما بأعمال تنظيمية وأنهم كانوا يتقاضون أجورا وأن هذه الأجور كانت بالضرورة مرتفعة حتى تغريهم بالقدوم الى مصر أمام التنافس الشديد بين ملوك المناطق المتأغرقة على الانتفاع بخدماتهم .

كذلك كانت هناك النفقات المتصلة بشعائر العبادات والعقائد المختلفة . وفى هذا المجال نجد الى جانب العقائد المصرية عقائد أخرى جديدة من بينها عقائد يونانية ، وعقيدة الاسكندر والعقائد المتصلة بعبادة ملوك البطالمة وعقيدة سرابيس . وقد كانت الشعائر المتصله بهذه العبارات ، سواء ما يتصل منها باقامه التماثيل أو باقامة الطقوس والاحتفالات الدينية أو بتكاليف رجال الدين انفسهم سواء اتخذت هذه التكاليف شكل أجور أو منح أو امتيازات عينية كانت كلها تحتاج الى نفقات دائمة وفى بعض

---

(٩٩) C. Preaux : op. cit., pp. 53 sq.

الأحيان كانت باهظة (١٠٠) . وإذا كنا لا نستطيع أن نحدد فى كل الحالات الجهة التى كانت تتحمل هذه النفقات ، وهل هى خزانة الملك أم غيرها (١٠١) ، فان هذا فى حد ذاته لا يغير من الواقع شيئا وهو أن كانت هناك نفقات وكان لا بد من العمل على توفيرها .

ولكن لعل أكثر ما يسترعى النظر فيما يخص جوانب الانفاق التى واجهها البطالمة هو ما يمكن أن نسميه ميزانية القصر ، وهى التى كانت تشمل نفقات الأسرة الملكية والحاشيه وكل ما يتعلق بالمظهر الملكى . لقد عاش البطالمة فى عصر تنافس دولى رهيب كما مر بنا فى أكثر من مناسبة : وقد كانت الثروة أحد هذه الأسلحة وعنصرا من عناصر القوة ، وكان البذخ هو مظهر هذه الثروة . لقد كان البطالمة ، كملوك متأغرقين وخلفاء للفراعنة يعاصرون ملوك برغامة وطغاة سيراكيوز والارستقراطية التجارية التى كانت تحكم قرطاجة . وكان هؤلاء جميعا من بين أغنى رجال العالم الذى يحتكون به أو يعيشون على مقربة منه ، ومن ثم فقد كان أحد الخطوط الرئيسية فى سياستهم الدولية ألا يقلوا عن هؤلاء ، وقد نجحوا فعلا فى أن تكون واجهتهم أكثر بذخا من هؤلاء .

---

(١٠٠) كانت التكاليف التى أنفقها أو أمر بانفاقها بطلميوس فيلادلفوس على الاجراءات المتصله بتأليه أرسينوى Arsinoe هى سدس محصول الكروم فى كل القطر راجع بردية: Reuenue Laws of Ptolemy Philadelphus (Mahaffy , Grenfell إعداد) col. 36, ll. 3-11

(١٠١) C. Preaux : op. cit., p. 63

وهكذا أصبح بذخ البلاط البطلمى مضرب الأمثال فعلا ويكفى أن نشير فى هذا المجال إلى الاندهاش ، الذى يقترب كثيرا من الانبهار الذى يطل من بين كلمات كالكسينيس الرودى وهو يصف مظاهر العظمة التى كانت تشع فى احتفالات البطوليمايه فى عهد بطليموس الثانى (فيلادلفوس) والتى يصفها بقدر كبير من التحديد والتفصيل سواء فيما يتعلق باستعراضات الجنود أو بالمواكب التى كان تسير فيها العبيد وتعرض فيها كلاب الصيد والحيوانات المطهمة بالآلاف ، أو بالأشياء الأخرى النفيسة التى كانت تظهر فى هذه الأعياد بصورة أو بأخرى (١٠٢) .

كذلك فان البلاط الملكى فى عهد البطالمة موئلا للاجئين السياسيين من الشخصيات الكبيرة فى العالم المتأغرق ، وكان يعج بالموظفين والخدم والعبيد . كما كانت القصور الملكية مظهرا من مظاهر البذخ الشديد بعمارتها وبما فيها من بساتين تزرع فيها النباتات النادرة وتربى فيها الحيوانات الغريبة التى يحصلون عليها سواء من الصيد فى المناطق البعيدة عن مصر أو كهدايا من حلفائهم . هذا بطبيعة الحال خلاف ما كانوا ينفقونه على المشروعات العلمية التى تبنوها فى جامعة الأسكندرية وعلى شراء الكتب (لفائف البردى) التى كانوا لا يألون جهدا فى توفيرها والحصول عليها للمكتبة الملكية التى كانت ملحقة بهذه الجامعة (١٠٣) وغنى

---

(١٠٢) Athen. : v , I96-203

(١٠٣) راجع كذلك Ibid., Strabo, xvII, 774, Diod. : III, 36
W. W. Tarn : Ptolemy II Journal af Eg. Archeology , 14 p. 247, muller-Gaupa : Museion, R.E., Preaux op.cit. 57-60

عن الذكر أن كل هذه المظاهر ، التى كان البطالمة يرون فيها واجهة لما لديهم من ثروة ، كانت تحتاج ، شأنها فى ذلك شأن بقية الجوانب ، إلى قدر كبير من التكاليف .

٢ — تطوير الاقتصاد المصرى

إزاء هذه المصروفات ، وقد كانت ، كما هو واضح ، متعددة وفى بعض الأحيان باهظة ، اتجه البطالمة . وقد كانت الطريقة الأولى التى اتبعوها لمواجهة كل هذه المصروفات هى تطوير الاقتصاد المصرى ، سواء من حيث رقعته بقصد الحصول على أكبر قدر من الموارد أو من حيث تيسير التعامل فى نتاج هذه الموارد وفى هذا المجال نجد البطالمة يبذلون جهدا كبيرا لزيادة مساحه الأرض الصالحة للزراعة وينجحون فى ذلك إلى حد كبير ، ودليلنا على ذلك من جهة مجموعة البرديات التى تتعلق باقليم الفيوم فى عهد بطلميوس الثانى وهذه البرديات تتضمن سجلات كليون Kleon الذى كان مديرا لمشاريع استصلاح الأراضى فى عهد بطلميوس الثانى (فيلاد لفوس) ، ومن جهة أخرى السجلات الواردة فى برديات زينون Zenon الذى كان يدير ضيعة ابولونيوس ، القائم على إدارة الشئون المالية فى عهـــد هذا الملك نفسه . كما يدلنا على نفس الاتجاه موقف الملك من المقربين اليه من ذوى الشخصيات الكبيرة الذين كان يهبهم اقطاعات كبيرة من الاراضى فقد كان الشرط الذى يفرضه الملك مقابل هـــذه الهبات هو استصلاح مساحات مترامية من الصحراء — وهو أمر كان هؤلاء الأشخاص ، بما لهم من ثروة ، قادرين على القيـــام به ، وهكذا تزيد المساحة المزروعة من الأراضى بينما تتخفف الدولة من عبء التكاليف اللازمة

لهذه الزيادة [١٠٤] .

كذلك أدخل البطالمة الأساليب العلمية فى ميدان الزراعة بشكل جعل فى الامكان الحصول على أكثر من محصول ، فى بعض الحالات ثلاثة محاصيل ، فى العام الواحد . بل لقد وصل تغلغل الاتجاه العلمى فى الزراعة لدرجة خلقت قدرا كبيرا من التخصص فى هذا المجال ، ونحن نلمح صدى هذا الوعى فى ملاحظة تضمنها تقرير من بعض الفلاحين فى تلك الفترة يشكون فيها من النتائج السيئة المتعلقة بالعمل فى احدى المزارع الكبيرة ويعزون ذلك إلى عدم وجود اخصائيين ويهيبون بمن قدموا اليه التقريرات يدعو بعضهم ليستمع إلى ما سيقولونه فى تلك المسألة - وهو كلام لا يمكن أن يصدر الا من أشخاص عرفوا قدرا لا بأس به من التخصص ، بل وأصبح هذا التخصص يشكل اتجاها أساسيا فى عملهم [١٠٥] .

ففى مجال زراعة الكروم وأشجار الفواكه ، على سبيل المثال ، نجد أكثر من شاهد يشير إلى هذا الاتجاه ففى الأراضى التى كان يشتمل عليها إقطاع أبولونيوس ، وزير مالية بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) تحدثنا البرديات عن زراعة عدد كبير من أشجار الكروم . كذلك فان سلسله من الخطابات العاجلة المؤرخة بشهرى ديسمبر ويناير (فترة الاستعداد لموسم نقل النباتات) من أعوام ٢٥٧ إلى ٢٥٥ ق. م. تشير إلى أن آلافا من الفسائل (الشتل) والنباتات الصغيرة من أشجار الزيتون والتين والنخيل

---

(١٠٤) Bell ; op. cit., P. 46 Rostov tzeff A Large Estate jn Egypt inthe IIIrd. Century , Jouguet. op. cit,. p. 72

(١٠٥) Bell . op. cit., p. 46 & n. 19.

والتفاح والكمثرى واللوز والرمان كانت تؤخذ من منطقة منف وحتى من حدائق الملك لكى يعاد غرسها فى فيلادلفيه (الفيوم) . ومثل آخر نجده فى قائمة مرسلة إلى زينون ، الذى كان يدير ضيعة أبولونيوس تفيد إرسال عشرة آلاف شجرة مستنبتة من الكروم وخمسمائه من الرمان خلاف عدد من فسائل أشجار الفواكه الأخرى عدده ألف وسبعمائه ، كما نسمع عن شكوى موجهة إلى رئيس الشرطة فى فيلادلفية تخص سرقة ٣٠ ألف من عيدان الخيزران التى كانت تستخدم لتدعيم شجيرات الكروم فى مزرعة الكروم التى كان يمتلكها زينون وصديقه سوستراتوس (١٠٦) .

وليس هذا آخر الأمثله التى تشير إلى العناية الفائقة فى مجال زراعة الكروم والفواكه فغيرها كثير ، ومن بينها قائمة النباتات التى أرسلها أبولونيوش الى بساتين ليسيماخوس (الذى يرى بعض الباحثين أنه كان ابناً للملك) - وهى مثال واضح على تعـــدد الأنواع التى كان يشتمل عليها الصنف الواحد من الفواكه ، فنجد فى هـذه القائمة « فسائل من تين خيوس ، والتين البرى ، وتين ليديه ، والتين الحلو والأحمر والذى يؤتى ثماره فى فصل متأخر ، والرمان النباتى (الذى لا يحتوى على بذر) ، والمشمش الذى يؤتى محصولين ، والكروم ذات العنب الداكن (الذى ينتمى أصلا الى قيليقيه ومناطق أخـــرى) والأخضر والفاتح اللون والبنفسجى اللون ، والسكندرى والعنب ذى البـذور الكبيرة ... والحاد المذاق (١٠٧) » .

---

(١٠٦) راجع أرقام هذه البرديات فى Préaux. op. cit ص١٧٠ وحواشى ٢ - ٨

(١٠٧) P. Cairo - Zenon. 59033

وما يقال على أشجار الكروم والفواكه يقال على غيرها من المحاصيل مثل القمح الذى أدخل البطالمة أنواعا منــــه أجود من تلك التى كانت زراعتها سائدة قبل مجيئهم ، ومثل عدد غير قليل من أصناف التوابل والخضروات والزهور . ومثل الأشجار وبخاصة الأنواع التى تستخدم أساسا للحصول على الخشب وقد كان الاتجاه إلى زراعتها أمرا يهم البطالمه بوجه خاص حتى يصبح لديهم مورد محلى للاخشاب التى يحتاجون اليها فى صناعة المراكب اللازمة لأسطولهم البحرى التجارى والحربى بعد أن وجدوا أن أغلب أشجار مصر لا تصلح كمصدر للاخشاب ، مثل النخيل الذى يتكون أساسا من الألياف ، والتوت الذى لا تكون أشجاره مستقيمة فى أغلب الاحوال (١٠٨) .

هذا ، والشىء ذاته ينطبق على موقف البطالمه فــــيما يتعلق بالثروة الحيوانية ، فقد عملوا على استيراد سلالات جديدة من الحيوانات ، وبخاصة الأغنام التى تمتاز بصوف أجود من صوف تلك التى كانت موجودة حتى عهدهم . ومن بين الانواع الجديدة التى لم يألفها المصريون كثيرا قبل ذلك العهد كانت الجمال التى ربما استخدمت فى مصر لأول مرة بشكل عملى وعلى نطاق واسع فى عهد البطالمة . كما أصبح لتربية الخنازير أهمية كبيرة إذ ذاك للمرة الاولى فى تاريخ مصر بعد أن استوطن فيها هـذا العدد الكبير من اليونان كما أشرت فى مناسبات سابقة ، اذ أن المصريين

---

(١٠٨) راجع P.Cairo - Zenon 5957 وفيها نجد أبولونيوس يحض زينون ، مدير ضيعته ، على زراعة عـدد كبير من أشجار الحور ، وينبهه إلى أنها الى جانب مظهرها الجميل « فيها مصلحة للملك » .

كانوا يعتبرون الخنزير حيوانا قذرا لا يجوز لهم أن يأكلوا لحمه ومن ثم لم يهتموا بتربيته قبل عهد البطالمة . هذا إلى جانب اهتمام الحكام الجدد بمشاريع جديدة فى هـــذا المجال من بينها تربية النحل على مستوى اقتصادى جدى (١٠٩) .

ولم يقتصر البطالمة على تنمية مواردهم فى هذه الناحية بل عمدوا كذلك الى استغلال موقع مصر التجارى الى أقصى حد ممكن . وسنلمس عنـــد الحديث عن الاسكندرية ، عاصمة البطالمة ، مدى نشاط التجارة التى كانت تمر بهذه المدينة والتى جعلت منها بحق الثغر الأساسى فى القسم الشرقى للبحر المتوسط . ولـكنى ساجتزىء هنا باشارة الى أن البطالمة ، الى جانب ماكانوا يصدرونه من مصر الى العالم الخارجى وما كانوا يستوردونه من الخارج للاستهلاك المحلى ، نجحوا فى أن يحصلوا على مورد اقتصادى هام من استغلال موقع مصر الممتاز كمر تجارى بين الشرق والغرب ، وهكذا كانت تمر بهـا السلع الآتية من الصومال وشرق أفريقية وبلاد العرب والهند ، والتى كان من بينها الذهب واللآلىء والأحجار الـكريمة وبعض الأنواع النادرة من الخشب والعـــاج والتوابل والقطن والحرير كل هذه كانت تنقل بطريق البر بعد وصولها الى موانى البحر الأحمر و عبر الطرق الصحراوية الى قفط ثم الى النيـــل ثم بعد ذلك الى البحر المتوسط .

ولم يقتصر البطالمة فى مجال الاقتصاد المصرى على توسيع رقعته بقصد الحصول على أكبر قدر ممـكن ، بل تعدوا ذلك كما ذكرت فى بداية

(١٠٩) Préaux : op. çit., 208-23 ; Bell . op. cit, 47

الحديث ، إلى تيسير التعامل فى نتاج هـــذه الموارد . فادخلوا التعامل النقدى على نطاق واسع بدلا من التبـادل النوعى أو العينى . حقيقة إن التعامل النقدى كان قد بدأ يتسرب إلى مصر فى أواخر عهد الحكم الفارسى قبل فتح الاسكندر ، ولـكنه كان تسربا ضئيـلا لم يرق إلى أى مستوى جدى من الناحية الاقتصادية . كذلك لم يحـــل التعامل النقدى فى عهد البطالمه بصفة نهائية محل التبادل العينى وإنما ظل هذا الأخير سائدا ومعترفا به . ولـكن لا شك أن إدخال العمله النقدية بشكل جدى فى المعاملات التجارية كان لها أثر فعال فى تيسير هذه المعاملات ، كما أدى إلى نفس النتيجة إقامة نظام مفصل متطور للتعامل عن طريق البنوك كوسيط بين تاجر وتاجر أو بين الأفراد والحـكومة (١١٠) .

٣ — سيطرة البطالمة على الاقتصاد المصرى

ولننتقل الآن إلى الجانب الآخر من الدعامة الاقتصادية التى أقام عليها البطالمة حكمهم ـ وهو الجانب الذى يتعلق بسيطرة هؤلاء الحـــكام على الموارد الإقتصادية بمصر ، التى رأيناهم يطورونها وينمونها إلى حد بعيد

---

(١١٠) عن العملة النقـدية فى عصر البطالمة راجـع : W. Giesecke : Das Ptolemaergeld; J. G.Milne: Ptolemaic Coinage in Egypt Journal of Eg. Arch. XV; صفحات ١٥٠ - ١٥٣ عن البنوك راجع : Preaux . op. cit., 280-97, Bell. op. cit., 48; H. Desvernois, Banques et Banquiers dans l' Eg. Ancienne , sous les Ptol. et la domination romaine, Bull. de la Soc. royale Arch. d. Alex., XXIII , pp. 303 - 48

وسيكون الكلام فى هذا المجال على نظام الأراضى وعلى نظام الاحتكار الحكومى أو الملكى (والوصفان كان لهما مفهوم واحـــد) فى ناحيتى الصناعة والتجارة .

ففيما يتعلق بنظام الأراضى نجد أن الملك البطلمى اعتبر نفسه مالكا فعليا لكل أرض مصر ويمكننا أن نميز ثلاثة اعتبارات انبثق عنها الحق الذى أعطاه البطالمة لانفسهم فى ملكية الأرض . والاعتبار الاول يدور حول ألوهية الملك . فقد أله البطالمة أنفسهم وأصبحوا بذلك ورثة رع أول الآلهة وأبناء حورس آخر الآلهة . ومن هنا فإن أرض مصر أصبحت هبة من الإله حورس للملك البطلمى وبالتالى أصبح له حق التصرف المطلق فيها . والفكرة فى حد ذاتها ليست من ابتداع البطالمة ، وإنما هى امتداد للنظرية الفرعونية القديمة التى كان هذا الحق يظهر فيها بشكل واضح بين حقوق الفرعون ، الملك الإله . وقد اعتبر البطالمة أنفسهم فراعنة لمصر ، كخلفاء للإسكندر الذى كان بدوره خليفة للفراعنة كما سنرى فى مناسبة قادمة (١١١) .

والإعتبار الثانى يدور حول فكرة الملكية الخاصة التى كانت قد بدأت تنمو فى مصر ابتداء من العصر الصاوى ثم فى عهد السيادة الفارسية على مصر حتى تبلورت واكتملت أركانها قبل بداية عهد البطالمة . لقد

---

(١١١) راجع الباب التالى من هذه الدراسة راجع كذلك :

Preaux ; op. cit., 461 , 559 , Jouguet . op cit., 66

عن النظرية الفرعونية راجع : A.Moret. Le Caractère religieux de lé Royauté Pharaonique, 9-17

كانت الملكية الخاصة فى مصر القديمة ضائعة إلى حد كبير فى ثنايا الملكية الاقطاعية ، وبالتالى فان حدودها لم تكن واضحة . ولكن ذلك الوضع لم يستمر ، فابتداء من القرن السادس ق . م . نجد عددا غير قليل من عقود الملكية الخاصة التى يتحدد فيها حق المالك بصفة مطلقة ، كما تظهر فيها إجراءات التسجيل التى تثبت هذه الملكية (١١٢) . وقد انتفع البطالمة انتفاعا كبيرا بهذا المفهوم المحدد للملكية الخاصة بعد أن حولوه لمصلحتهم ، فلم تعد أرض مصر تحت تصرفهم أو خاضعة لسيطرتهم بوجه عام غامض ، وإنما أصبحت ملكا خاصاً لهم فى ضوء هذا المفهوم المحدد للملكية الخاصة . وهذا فى الواقع هو ما يظهر بوضوح من النقوش المقدسة الموجودة على جدران معبد إدفو والتى تشير إلى الملك البطلمى يورإرجيتيس الثانى سيد على كل أراضى حورس ، فان هذه « السيادة » لا يلبث النقش أن يحددها حين يذكر أن مصر هبة من الإله حورس

---

(١١٢) راجع على سبيل المثال عقدا ينتمى إلى ٥٠٢ - ٥٠١ ق. م. فى :
W. Spiegelberg : Die demotischen papyri Loeb
رقم ٦٨ وهو يخص انتقال ملكية أرورة واحدة من الاراضى المقدسة إلى أحد الاشخاص ومن بين ما جاء فيه « إن هذا الحقل سيصبح ملكا لك . وليس لاحد من البشر فى العالم أيه سلطة عليه ، إلا أنت ... » .
وتوجد عقود كثيرة أخرى فى F. L. Griffith : Catalogue of the Demotic papyri in the Rylands Library , III
عن التطور القانونى والاجتماعى الذى انتهى بهذا الوضع راجع :
J. Pirenne : Les Trois cycles de l. hist. luridique et Sociale de l' ancienne Egypte Et. d' hist. dédiées à la memoire de Henri Pirenne pp. 229 sq.

إلى إبنه الملك ، وأن هذه الهبة قد تم تسجيلها على يد تحوت (١١٣) . وهو وصف يحـــدد بشكل واضـح الصفـة الشخصية لملكية الملك لارض مصر .

أما الإعتبار الثالث الذى كان ينبثق منه حق ملـكية البطالمة لأرض مصر ، فهو حق الفتح . لقد أعتبر البطالمة أن مصر آلت إليهم عن طريق هذا الحق . حقيقة إن بطلميوس الاول أصبح حاكما على مصر بقرار من مؤتمر المجلس المقدونى العسكرى الذى عقد فى بابل ، تمشيا مع النظـام المقدونى ، غداة موت الاسكندر ، وأن حكمه لها كانت له صفة الولاية من قبل البيت الإمبراطورى المقدونى . ولـكن بطلميوس كان يهدف الى أكثر من مجرد الحكم عن طريق الولاية كما رأينـــا ، ومن ثم فحين حاول برديكاس أن يخضعه لسيطرته عن طريق مهاجمة مصر عند بلوزيون تصدى له بطلميوس وأنتصر عليـه . وقد أعتبر بطلميوس هـذا الدفاع المسلح والنصر الذى ترتب عليه بمثابة فتح من جانبه لمصر (١١٤) . وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يعتبر نفسه مالكا لارض مصر على أساس من هذا الحق .

* * *

واعتمادا على هـذا الحق نجـد أن البطالمة قسموا الأرض إلى قسمين أو نوعين : أراضى لحسابهم الخاص ، وأراضى يمنحونها لبعض الاشخاص لغرض أو لآخر . وفى كلا النوعين نلمس سيطرة الملك التى تجعل منه

---

(١١٣) Bouché-Leclercq : op. cit., III , 180

(١١٤) Diod. : xvIII , 39,43

المتصرف الحقيقى فى كل ما يتعلق بادارتها وتوجيهها (١١٥) . فالاراضى الملكية ، ومن المرجح أنها كانت تشمل نسبـــة كبيرة من الأراضى الصالحة للزراعة ربما زادت على نصفها ، كانت مقسمة إلى قطع صغيرة تؤجر للفلاحين الذين كانوا عادة من المصريين . وقد كان لهؤلاء الفلاحين بعض حقـوق التجمع التى كانت تمكنهم من تكوين ما يقترب من الهيئات المنظمة أو النقابات . ولكن هذه التنظيمات كانت دائما خاضعة لإشراف الموظفين الملكيين ، كما كانت هناك ظروف وشروط تجعـــل الفلاح خاضعا لسيطرة الدولة (أو الملك ، فقد كان الملك هو الدولة فى الواقع) بصفة نهائية ومن بين هذه الشروط أن الفلاح كان يؤجر الأرض التى يزرعها لمدة لا يعرف حدودها الزمنية ، وأنه كان لا يستطيع ترك هذه الأرض إذا اراد ، وأن الدولة كانت تستطيع أن تطرده منها إذا ارادت أو اذا عن لها أن بامكانها الحصول على كسب أكبر اذا اجرتها لشخص آخر .

أما عن القسم الآخر من الاراضى ، وهو الأراضى الممنوحة ، فقد كان من بينها الاقطاعات الصغيرة التى كانت تمنح للمستوطنين اليـــونان

---

(١١٥) C. Preaux: op. cit pp. 459-518 . وتعتبر هذه الدراسات من خير ما ظهر فى هذا الموضوع حتى الآن . راجع كذلك :
Rostovtzeff : Soc. and Econ. Hist. of, the Hellenistic World, 267 sq.; Jouguet: op. cit., 68-72 . هذا ويجد القارىء العربى تفصيلا وافيا عن نظام الاراضى تحت حكم البطالمة فى : نصحى ، نفسه ، ج ٣ ، ط ٣ ، صفحات ١٥٧ - ٢١٨

نظير استعدادهم الدائم للقيام بالخدمه العسكرية فى جيش الملك . وقد رأينا كيف أن هذه الاقطاعات ظلت دائما من الناحية الرسمية ملكا للملك ، وأن حق هؤلاء المستوطنين لم يعد بأى حال من الأحوال حق الانتفاع فحسب دون أن تكون لديهم الملكية التى تمكنهم من الناحية القانونية من التصرف فى هذه الأراضى سواء بالبيع أو الشراء أو ما هو من قبيل ذلك . والشىء ذاته ينطبق على الاقطاعات الكبيرة المترامية المساحة التى كان البطالمة يمنحونها للاشخاص المقربين لهم . فهنا أيضا كان انتفاع هؤلاء الاشخاص لمدة حياتهم فحسب ، وبعد ذلك تعود الاراضى من الناحية الرسمية مرة ثانية للملك .

بقى هناك نوع من هذه الاراضى الممنوحة وهى الاراضى المقدسة أو تلك التى كان الملك يهبها للأغراض الدينية . وفى هذا المجال نجد أن بعض هذه الأراضى كان وقفا على عبادة الآلهة ولكن إدارتها كانت فى يد موظفين ملكيين ، بالاشتراك بطبيعة الحال مع الكاهن الأكبر . كذلك كانت هناك الأراضى المتعلقة ببعض المؤسسات الدينية التى كان الكهنة يحتاجون اليها فى ممارسة العقائد التى كانوا يقومون عليها . وقد كان دخل هذه الاراضى والمؤسسات يعود على الكهنة ، ولكن لقاء ذلك كان الكهنة يشترون حق الانتفاع بهذه الأراضى من الملك ، كما كانت الادارة الملكية متيقظة بشكل دائم لكل ما يمكن أن يقوم به الكهنة من محاولات فى سبيل الحصول على امتيازات مالية أو التخلص من الالتزامات الضريبية وغيرها مما كان عليهم أن يؤدوه إلى خزانة الملك .

فاذا تركنا مجال الموارد الزراعية حيث رأينا الملك يفرض سيطرته

بشكل ظاهر فى شكل ملكيته الرسمية للأراضى وتنظيم الانتفاع بها حيث لا يخرج من قبضته من جانب وبحيث تعود الفائدة الكبرى من ذلك عليه من الجانب الآخر ـ أقول إذا تركنا هذا المجــال وجدنا نفس السيطرة الملكية فى مجال الموارد الصناعية والتجـــارية . وقد تمثلت هذه السيطرة فى شكل الاحتـــكارات الحكومية الملكية التى امتدت لتشمل الجانب الأكبر من الانتاج الصناعى والتسويق التجارى ، على الأقـــل ابتداء من عهد بطلميوس فيلادلفوس . وقد اختلفت درجات هذا الاحتكار من حالة لاخرى ، فكان الاحتكار يشمل فى بعض الاحيان الانتـــاج والتسويق معا ، بينما كان يقتصر على أحد الجانبين فى أحيان أخرى تاركا الجانب الآخر لتصرف الأفراد ، وحتى فى هذه الحال الاخيرة كان هذا التصرف الفردى يترك تارة بشكل مطلق بينما كان يخضع لنوع من الرقابه والتوجيه تارة أخرى . ولكن حتى فى الحالات التى يترك الملك فيها الأفراد مجال التصرف كانت ممارسة هذا التصرف لا تتم وتصبح حقا للشخص إلا بعد أن يحصل على ترخيص بذلك يشتريه من الحكومة لقاء أجر معلوم .

وقد شملت هذه الاحتكارات بدرجاتها المختلفة عدداً كبيراً من الموارد ، فدخل فيهــا مثلا استغلال الملح ، ومنــاجم الذهب الموجودة بالنوبة ، ومناجم النحاس الموجودة بالفيوم ، والنطرون من منخفضات وادى النطرون ونقراطيس ، وتحضير العطور سواء تلك التى توجد خاماتها بمصر أو التى تستورد خاماتها من الخارج وصناعة أوراق البردى والعسل ومصايد الأسماك وإقامة المصارف (البنوك) وصناعة الجلود والمنسوجات والزيوت ،

وسآخذ هذه الصناعة الاخيرة التى نعرف عنها من التفاصيل أكثر مما نعرفه عن غيرها ، كمثال لمدى ما وصل اليه التنظيم الاحتكارى عند البطالمة من الدقة والتفصيل (١١٦) .

لقد كانت زراعة النباتات التى يستخرج منها الزيت معروفة فى مصر من العصور القديمة ولكنها على ما يبدو كانت متروكة للاستغلال والتنظيم الفردى . فلما جاء البطالمة اخضعوا هذه الزراعة لسيطرة الحكومة وتنظيمها بشكل شامل . وهنا نجد البطالمه يحددون مساحة الاراضى التى يجب أن تقوم فيها هذه الزراعه فى كل مقاطعة من مقاطعات القطر ، كما كانت عمليات البذر والحصاد فى هذا المجال تخضع للمراقبة الحكومية التامة : فالبذور كانت الحكومة توردها للفلاحين ، والمحصول كان مقداره يحسب بدقه ، ثم يدفع ربعه كضريبة بينما يسلم الباقى لمتعهدى الحكومة لقاء ثمن محدد . وبعد ذلك كان المحصول ينقل الى المعاصر حيث يستخرج منه الزيت تحت الاشراف والادارة الحكوميين ، يقوم بذلك عمال لا يسمح لهم بمغادرة أماكن اقامتهم فى موسم العمل . أما المعاصر التى كان يمتلكها الأفراد والتى عرفتها مصر قبل قيام الحكم البطلمى فقد منعت من مزاولة

(١١٦) المصـــدر الذى وصلت منه هذه التفاصيل هو البردية التى نشرها B. P. Grenfell, J.P. Mahaffy تحت عنوان: Revenue Laws of Ptolemy Philadelphos (col. 38 - 58) أنظر كذلك ، Wilcken: Chrestomatie, 299. عن بعض التفاصيل الخاصة بالرسوم الجمركية على الزيت الوارد من الخارج أنظر : P. Cairo - Zenon, 59012, 59015

نشاطها بعد قيام هذا الحكم ، لم يستثن من ذلك إلا تلك التى كانت موجودة بالمعابد ، فقد سمح للقائمين بالعمل لسد حاجة المعابد لمدة شهرين فحسب من كل سنة ـ وهى المدة التى كانت تغطى موسم العمل ـ ثم تغلق بعدها ، شأنها فى ذلك شأن المعاصر الحكومية . أما عن حق بيع الزيوت فكان يباع من قبل الحكومة للملتزمين من تجار الجملة والتجزئة على شريطة أن يتم هذا البيع بالثمن الذى تحدده الحكومة ـ وقد كان هذا الثمن مرتفعا إلى حد كبير . ولكى يتفادى الملك أية منافسة فقد عمد إلى فرض جمارك باهظة على الزيوت الآتية من الخارج . وحتى مع هذه الرسوم الجمركية الباهظة فان الذى كان ينقل زيتا خارجيا داخل البلاد ، عن طريق النيل ، لاستخدامه الخاص كان عليه أن يدفع ١٢ فى المائة رسوما إضافية ، فاذا حاول أن يبيع هذا الزيت صودرت الشحنة التى يريد نقلها وفرضت عليه غرامة فادحة قدرها مائة دراخمة عن كل متريتيس **metretes** . وبهذه الطريقة ضمن الملك البطلمى القضاء على أى منافس له فى تجارة الزيت وأصبح يستطيع بيع انتاجه من الزيت بمكاسب تراوحت بين سبعين فى المائة وثلاثمائة فى المائة (١١٧) .

---

(١١٧) Tarn & Griffith : Hellenistic Civilisation : pp. 191-2;
قارن: Tarn : Journ. of Eg. Arch., XIX, p. 257
Preaux op. cit., p. 85

الباب السابع

الدعامات الاجتماعية والأدبية

١ ـ نظرة عامة

كان الحديث فى الموضوعين السابقين عن الدعامة العسكرية والدعامة الاقتصادية . والذى يجمع بين هاتين الدعامتين هو الصفة المـــادية : الأولى يواجه بها حكام الدولة الجديدة تحديات العصر عن طريق القوة المسلحة ، والثانية يواجهون بها هـــذه التحديات عن طريق إمكانيات الإنتاج التى وجدوها تحت تصرفهم . ويبقى الحديث عن نوع آخر من الدعامات هو ما يمكن أن نسميه الدعامات الاجتماعية والأدبية التى تتمثل فى توجيه العلاقة بين البطالمة وبين عناصر المجتمع كما تتمثل فى مقومات الدين والثقافة .

وإذا كانت هذه الدعامات الأخيرة لاتتسم بالصفة المادية التى تتمثل فى جيش منظم فى حالة الدعامة العسكرية ، وفى موارد موجهة فى حالة الدعامة الاقتصادية ، فإنها تشترك معها فى نقطتين : الأولى هى أنها ليست أقل لزوما منها فى تدعيم الدولة التى أسسها البطالمة وبين المجتمع الذى وجدو أنفسهم يمسكون بزمامه . فتنظيم العلاقة بين البطالمة والمجتمع كان أمرا لا يمكن تجاهله أو تجاهل آثاره فى ظرف كان فيه المجتمع يتكون من أكثر من عنصر وكان ، لكل عنصر وضعه الخاص واتجاهاته الخاصة ، والدين كان لايزال يشكل فى فترة الحكم البطلمى محورا هاما

وأساسيا فى العلاقة بين الدولة والفرد أو بين الحكومة والشعب ، والثقافة كانت وسيلة التخصص العلمى الذى كان أحد المقومات الرئيسية للعصر المتأغرق ، ومن ثم فلا يمكن تجاهلها فى تدعيم دولة تقوم فى هذا العصر .

بقيت نقطة أخيرة أود أن أذكرها فى مجال هذه النظرة العامة : وهى أن الدعامات الاجتماعية والأدبية كانت متداخلة بالضرورة ، وإن كان تداخلها قد تم بدرجات متفاوته وداخل حدود متفاوتة فى الاتساع . فإذا كان التنظيم الاجتماعى يؤدى دوره ، عن طريق التوازن الطبقى ، فى مساندة الأسرة البطلمية الحاكمة ، فإن الدين كان يقوم بدوره فى إضفاء الصفة الأدبية اللازمة لسيطرة هذه الأسرة على المجتمع ، وإذا كانت الثقافة تسهم بنصيبها فى مجتمع يشكل الاتجاه العلمى أحد ملامحه الاساسية ، فإنها كانت ، إلى جانب ذلك ، عنصرا رئيسيا اعتمد عليه البطالمة فى تدعيم مركزهم فى المجال الدولى ، وهكذا .

٢ — البطالمة والتركيب الطبقى للمجتمع

ولتكن بداية الحديث عن موقف البطالمة من الطبقات التى أصبح المجتمع يتكون منها فى عهدهم . وقد رأينا فى مناسبات سابقة أن ظروف العصر جعلت هؤلاء الحكام يستقدمون إلى مصر ، أو يشجعون على الهجرة إليها ، أعدادا غير قليلة من العناصر المختلفة ، طالما وجدوا أنها ستخدمهم بصورة أو بأخرى ، فى مجال أو فى آخر . وهكذا أصبح هنـاك إلى جانب المصريين ، الذين كانوا يشكلون الفرشة الأساسية للمجتمع المصرى ، عناصر أخرى كثيرة أوروبية وآسيوية ، من بينها

المقدونيون والإغريق واليهود والفرس وغيرهم . ولكن مع ذلك فقد كان العنصران المصرى والإغريقى هما أهم هذه العناصر سواء من ناحية العدد أو من ناحية التأثير . ومن هنا فسيكون حديثى فى مجال التركيب الطبقى أو الاجتماعى ، هو عن موقف البطالمة من هذين العنصرين اللذين أصبحا يشكلان طبقتين تشغل العلاقة بينهما وبين الأسرة الحاكمة حيزا من سياسة هذه الأسرة لايمكنها أن تتجاهله .

وقبل أن أتحدث عن هـــذه العلاقة أرى من الخير أن أشير إلى ملاحظـة على هـــذا الموضوع مؤداها أن الصفة الطبقية للعنصرين المذكورين لم تكن تعنى بأية حال أى نوع من المساواة العـــددية بين المصريين والإغريق ، فالمصريون ظلوا يشكلون الاغلبية الساحقة من السكان بينما كان الاغريق لا يمثلون بالنسبة اليهم إلا أقلية ضئيلة ، ولكن هؤلاء الاخيرين كان لهم وزن اجتماعى كبير ، نتج عن الامتيازات الكثيرة التى منحهم البطالمة إياها ، وهذا الوزن الاجتماعى هو الذى جعل منهم ، رغم قلة عددهم ، طبقة تستحق أن تسمى بهذا الاسم فى ميزان التقييم الاجتماعى .

لقد سبق أن ذكرت أن البطالمة ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من حكام المناطق المتـــأغرقة ، اتجهوا فى تدعيم سلطانهم فى ملكهم الناشىء إلى الاعتماد على اليونان المهاجرين لما كان لهؤلاء من كفاية عسكرية ، ولكن الكفاية العسكرية لم تكن كل ما امتاز به هؤلاء المهاجرون ، فقد امتدت كفايتهم لتشمل جوانب اخرى فى المجالات الادارية والاقتصادية والفنية وغيرها ، وقد كان هذا نتاجا طبيعيا ومتوقعا لحركة التخصص التى شملت بلاد اليونان فى كافة جوانب الحياة العامة والخاصة فى القرن

الرابع ق . م . مما جعل من هذا القرن بحق عهد التخصص فى ذروة ازدهاره . وقد استخدم البطالمة كل الطرق الممكنة لاجتذاب هؤلاء اليونان وإغرائهم على الاقامة فى مصر (١١٨) .

وقد رأينا مثلا على ذلك الاقطاعات الزراعية التى كان البطالمة يمنحونها هؤلاء المهاجرين لقاء خدمتهم العسكرية فى الجيش الملكى . ولكن البطالمة اعتمدوا عليهم فى مجالات أخرى فى السلك الإدارى وفى التنظيم الإقتصادى ومن هنا فتحوا أمامهم عددا كبيرا من الفرص ، فجعلوا الوظائف الإدارية حكرا أو تكاد تكون حكرا عليهم فى الوقت الذى لم يحظ فيه المصريون فى هذا المجال إلا بمكان ثانوى . وقد كان البطالمة يهدفون من وراء ذلك ، إلى جانب الانتفاع بكفايات هؤلاء الاغريق ، إلى الاعتماد عليهم كدعامة إجتماعية أمام المصريين الذين كان لا بد أن ينظروا إلى الحكام الجدد ، إن عاجلا أو آجلا ، كحكام أجانب من غير بنى جلدتهم ، ومن ثم كان على البطالمة أن يأخذوا حذرهم وأن يتخذوا لأنفسهم سندا من اليونان الذين أتاح هؤلاء الحكام لهم فرصا لم تكن متوفرة لهم فى بلادهم الأصلية .

ولكن اليونان الذين أتوا إلى مصر استجابة لدعاية البطالمة لم يكتفوا بالعمل فى وظائف الجهاز الإدارى التى كانت تتعلق أساسا بسلطة الملك ، رأس الحكومة المركزية ، وتخضع خضوعا تاما لإدارته وإرادته ، وإنما اتجهوا من البداية ، وبشكل واضح ، إلى العمل على تكوين طبقة ذات كيان

---

(١١٨) عن هـذه الطرق أنظر : Claire Preaux : Les Grecs en Égypte d'après les Archives de Zenon , pp. 68 sq

متماسك تقوم على قاعدة راسخة من الموارد المعيشية المستقلة . ويظهر هذا بشكل واضح فى برديات زينون التى تضم عددا كبيرا من الخطابات التى كان يرسلها هؤلاء المهاجرون اليه ، بصفته القائم على شئون أبولونيوس ، وزير المالية فى عهد بطلميوس الثانى ، يطلبون اليه قطعة من الارض يقومون بزراعتها أو قرضا يعدون بسداده ، ويضمنهم فى ذلك أصدقاؤهم ، يبدءون به عملا أو مشروعا تجاريا يكسبون منه عيشهم (١١٩)، وليس ، كما قد ينتظر ، منصبا إدارياً أو وظيفة حكومية .

ونحن نلحظ هذا الاتجاه بشكل خاص بين هؤلاء المهاجرين فى ميدان التجارة ، كمورد اقتصادى مستقل ، رغم الصعوبات الكثيرة التى كانت لا بد أن تحف بمزاولة النشاط التجارى فى بلد يقوم نظامه الاقتصادى أساسا على الاحتكار الملكى - يدل على ذلك تهافتهم على الاقتراض سواء من البنوك أو المرابين بشكل أدى إلى ارتفاع الارباح على القروض التجارية إلى ٣ ٪ و ٤ ٪ بل وإلى ٦ ٪ فى مشهر (أى ٧٢ ٪ فى السنة) فى حالة المرابين رغم وجود قانون يقضى بألا يزيد الحد الاقصى للارباح عن ٢ ٪ شهريا (١٢٠) . كما يدل على هذا الاتجاه كذلك عدة مظاهر أخرى منها النمو المطرد لتجارة الاسكندرية بشكل أصبحت معه هـذه المدينة الميناء التجارى الأول فى العالم المتأغرق على نحو ما سنرى فى حديث

---

(١١٩) P. Cairo Zenon, 59284 , P. Col. Zenon, 41,48 P. Mich, Zenon, 33,

(١٢٠) p. Col. Zenon, 83, p. Cairo-Zen , 59062,59731,59341

مقبل (١٢١) ، ومنها الوفود التى كانت ترسل بين الحين والحين لدراسة الفرص التجارية فى منطقة أو أخرى من المناطق التى يمتد اليها النفوذ البطلمى السياسى كما حدث مثلا فى ٢٥٨ فى أعقاب فتح فلسطين ، ومنها كذلك النشاط المنقطع النظير الذى كانت تقـــوم به البنوك فى تسهيل المعاملات التجارية (١٢٢) ، وأخيراً فتدل على هذا الاتجاه الكميات الضخمة من السلع التى كان يجرى التعامـل على أساسها وبخاصـة فى تجـــارة التصدير والاستيراد (١٢٣) .

ومن الطبيعى أن يؤدى كل هذا النشاط التجارى الذى تتشعب فيه المصالح وتتداخل وتتشابك ـ وبخاصة فى الاسكندرية التى كانت ميناء وعاصمة تزدحم بالباحثين عن الفـــرص الاقتصادية ـ إلى نوع من التكتل أو التماسك الطبقى . وأن يؤدى هـذا بدوره إلى العمل على التوسيع والتنمية المطردين لهذه المصالح . ومن الطبيعى كذلك أن يكون هذا التوسع والنمو على حساب المصالح للملك . وقد حدث ، فان الملك لم يستطع أن يقف دون حصول طبقة التجـار على امتيازات جوهرية ، كما حدث فى حالة تجارة القمح والمنسوجات والنبيذ التى حصلوا فيها على الحق المطلق فى تحديد أسعارها حسب رغباتهم بعد أن يفوا بشروط قليلة ومعروفة

---

(١٢١) راجع القسم الأخير من هذه الدراسات

(١٢٢) p. Cairo Zen.,59062,59470,95790

(١٢٣) راجع تجارة التصدير والاستيراد ومراجعها فى القسم الاخير من هذه الدراسات .

وأغلبها شكلى (١٢٤) .

ولا بد أن ملوك البطالمة قد شعروا بالخطر الطبق الذى كان يزحف على احتكاراتهم بشكل دائب ، وحاول بعضهم بالفعل أن يقف فى سبيله بطريقة أو بأخرى . فنجد أن بطلميوس الثانى مثلا يفرض ضريبة مقدارها ٣٣ر٣ ٪ على محصول الكروم وعلى النبيذ الوارد من الخارج حتى يكون ذلك عقبة فى سبيل اتساع هذه التجاره التى لم تكن داخلة فى دائرة احتكاراته (١٢٥) . ولكن مع ذلك فان البطالمة لم يكن فى مقدورهم أن يتوسعوا فى وضع مثل هـــذه العراقيل فى سبيل النمو المتزايد للمصالح المتشابكة المتماسكة لطبقة التجار من اليونان المهاجرين ماداموا فى حاجة دائمه إلى الخدمات العسكرية وغيرها لهؤلاء المهاجرين . وقد ظل الأمر كذلك حتى موقعة رفح فى ٢١٧ ق. م. التى أثبتت للبطالمة أن المصريين لا يقلون فى كفايتهم العسكرية عن اليونان بل يزيدون عنها فيها فى بعض الأحيـان ، وأن فى استطاعة هؤلاء الملوك أن يعتمدوا عليهم فى تدعيم ملكهم فى وقت كان فيه البطالمة فى حاجة ماسة إلى قاعدة شعبية راسخة وبخاصة بعد أن أظهر المصريون تذمرهم من وضعهم الاجتماعى والاقتصادى فى أكثر من صورة وأكثر من مناسبة وبعد أن أخذت رومه تبدأ فى الظهور كقوة كبيرة فى البحر المتوسط ، وبعد أن بدأت طريقها نحو

(١٢٤) نستطيع استنتاج ذلك من مقارنة أسعار السلعة الواحدة فى الاسكندرية وخارج الاسكندرية راجع p. Cairo Zen., 59269,59363,59404,59446
p. Col. zen., 31,75

(١٢٥) عن هذه الرسوم العالية راجع Tarn & Griffith : op. cit., 193

العالم المتأغرق (١٢٦) .

وهكذا أصبح فى وسع البطالمة أن يسددوا ضرباتهم نحو هذا التماسك الطبقى لدى الإغريق وأن يخطو خطوات أوسع نحو استمالة المصريين . وقد اتخذ ذلك أكثر من مظهر ، فمن جهة نجـــد الاقطاعات اليونانية يكاد منحها يتوقف نهائيا بعد هذه المعركة بينما تزيد الإقطاعات الزراعية للمصريين بشكل نسبى ، ومن جهة أخرى نجد عددا من الامتيازات يعطى للمصريين مثل التوسع فى منح حق حمايه اللاجئين للمعابد المصرية ، واتباع التقويم المصرى بدلا من التقويم المقدونى ، واتخاذ الملوك للالقاب الفرعونية ، واتخاذ منف مقرا ملكيا رسميا إلى جانب الاسكندرية وهكذا . كما نشهد عهدا من اضطهادات البطالمة للسكندريين وهم نواة الطبقه الاغريقية المقيمة بمصر ، كما حدث فى عهد يوارجيتيس الثانى وأوليتيس على نحو ما أشرت فى مناسبه سابقة (١٢٧) .

تحت هذه الظروف أجد أنه من الطبيعى أن يوجه البطالمة ضرباتهم بوجه خاص إلى مراكز التجمع التى قـد تصبح بؤرا لتبلور الرأى العام لطبقة اليونان المهاجرين ، وبخاصة فى الاسكندرية التى كانت المركز الأساسى لتجمعاتهم ، وجدير بالذكر فى هذا المقام أن يوارجيتيس الثانى حين

---

(١٢٦) Bell : Eqypt From Alexander etc., p. 58

(١٢٧) عن الألقاب الفرعونية التى اتخذها بطلميوس الرابع، على سبيل المثال ، راجع H.Gautier & H. Sottas:Un Decret Trilingue en l' Honneur de Ptolemée Iv, 33-8,75 عن بقية مظاهر هذا التحول راجع : Tarn & Griffith : op. cit., 205-6

صب جام غضبه على السكندريين لم يكتف باضطهادهم بوجه عام وإنما حرص على اغلاق الجامعـــة أو دار الحكمة وعلى تشتيت من فيها من العلماء ، كأنما رأى فى هذه الدار مركزا لتجمع الشخصيات السكندرية من المثقفين الذين قد يتبلور حولهم الرأى السكندرى (اليونانى) العام (١٢٨) ، كما أن مجلس الشورى باعضائه من ذوى الشخصيات البارزة كان دون شك مركزاً لتجمع أصحاب المصالح الاقتصادية الذين كان البطالمة يسعون إلى تفتيت ما يقوم بين أفراد طبقتهم من تماسك ، تمهيدا للحد من زحفهم المتزايد على نطاق الاحتكارات الملكية . وسنرى فى حديث قادم أن هذا المجلس الذى كان قائما فى بدايه عهد البطالمة ربما اختفى فى أثناء الشطر الثانى من حكمهم (١٢٩) .

وهنا يجدر بى أن أشير إلى أن البطالمة لم يكونوا يهدفون إلى تحطيم طبقة الاغريق إذ كانوا يدركون أن سلامتهم فى اعتمادهم على هذه الطبقة ، وإنما كل ما هناك أن البطالمة أرادوا أن يوجدوا نوعا من التوازن النسبى الذى لا يسوى بين طبقتى المصريين واليونان بأى حال ولكنه يرضى أولئك ويتفادى سخط هؤلاء .

٣ — الدين وتدعيم وحكم البطالمة

وكما كان التركيب أو التكوين الطبقى للمجتمع عاملا فرض نفسه على البطالمة وهم بسبيل تدعيم حكمهم فى مصر ، فإن هؤلاء الحكام نظروا ، فى

(١٢٨) عن موقف بطلميوس الثامن من علماء المكتبة أنظر : Athenaeos Deipnosophists, lv, 184 c راجع ذلك William Linn Westermann : The Library of Ancient Alexandria ,p.12 ،

(١٢٩) راجع القسم الاخير من هذه الدراسة .

صدد هذا التدعيم ، إلى مجالات أخرى ، كان من بينها الدين . والدين ، كما رأينا ، كان من العوامل التى لا يمكن التقليل من شأنها فى العصور القديمة فى مجال العلاقة بين الحاكم والمحكوم . وإذا كانت بعض الأديان الحديثة تفرد جانبا منها لتنظيم هذه العلاقة وإظهار ما تشكله من حقوق يتمتع بها الجانبان وحدود يتقيد بها كل منهما ، فان دور الدين فى العصور القديمة كان يميل إلى إعطاء الحاكم حق السيطرة الكاملة كإله أو سليل للآلهة . وقد انتفع البطالمة بهذا الاتجاه بشكل ظاهر فيما يخص علاقتهم بالمصريين . فقد كانوا خلفاء للاسكندر ، والإسكندر قد حرص على أن ينصبه الكهنة المصريون إبنا للإله آمون فى واحة سيوة المسماة على اسم هذا الإله ، ومن ثم فقد أصبح فرعونا وإلها ، وأصبح من حق البطالمة أن يصبحوا من بعده فراعنة وآلهة لهم حق السيطرة وعلى رعاياهم واجب الطاعة (١٣٠) .

وقد تدرج البطالمة فى اتخاذ ألقاب الفراعنة ، وبالتالى الانتساب إلى الآلهة المصرية واتخاذ صفاتها حتى اكتملت هذه الألقاب فى عهد بطلميوس الرابع الذى نجد بين ألقابه التى أضفاها عليه الكهنة المصريون « حورس الشاب .. حامى البشر .. شبيه الشمس (رع) وملك المناطق العليا والسفلى (الوجهان القبلى والبحرى) ... الذى حاز رضا الإله بتاح

---

(١٣٠) E. R. Goodenough : The political philooophy of the Hellenistic Kingship (Yale Class. Studies, I) pp. 55 - 102, P. Jouguet : op. cit., pp. 59 راجع ذلك نصحى ، نفسه ، ج ٢ ، ط ٢ ، صفحات ٣ - ٢٧

ومكن له رع من النصر ، الصورة الحية لآمون ، الخالد إلى الأبد ، محبوب إيزيس ، (١٣١) ـ وكلها ، كما نرى ، صفات كانت تطلق على ملوك الفراعنة وتعطيهم السلطة الالهية على رعاياهم .

ولم تكن فكرة هذا الحق الالهى ، إذا جاز لى استخدام هذا التعبير الحديث مع مراعاة الفارق بين مفهوم هـذا الحق بين العصور الحديثة والقديمة ـ لم تكن هـذه الفكرة قاصرة على علاقة البطالمة بالمصريين ، وإنما تعدتهم لتشمل الاغريق . وفى الواقع فان أكثر من عامل ساعد على إمكان تحقيق هذا الوضع فيما يتعلق بهؤلاء الاغريق الذين هاجروا إلى مصر وأقاموا فيها . وأول هذه العوامل هو ما رأيناه من انهيار الحضارة اليونانية الكلاسيكية مع بوادر العصر المتأغرق ، وبحيث أصبحت ألوهية الحاكم فكرة واردة وغير غريبة على التصور اليونانى لمركز الحاكم وهى فكرة إن لم تكن قد ظهرت بالتحديد . فقد ظهرت بالتقريب ، فى معالجة المفكرين اليونان لموضوع الحكم والسياسة . كذلك فان الأمر الواقع قد ساعد على تدعيم هذه الفكرة إلى حد كبير . فالعصر المتأغرق كان عصر سيطرة للحكام ، تصل فعلا إلى السطوة ، فى أغلب الأحيان ، فرضت هذا ظروف الصراع الرهيب الذى نشب بين خلفاء الاسكندر لفترة طويلة ، والذى كان بالضرورة لا يتسع لغير السيطرة الفردية التامة من جانب هؤلاء الخلفاء إذا كان لهم أن يحشدوا كل الطاقات لخدمة أهدافهم التى كانت تدور أساسا حول إقامة أسر حاكمة يكونوا هم مؤسسوها . وقد أصبحت هذه السيطرة ، أو السطوة إذا أردنا أن نسمى الأشياء بمسمياتها ، أمرا واقعا لا يمكن الفكاك منه بالنسبة لليونان ـ وهو وضع يقترب كثيراً

---

(١٣١) راجع ترجمة هذه الالقاب فى Bevan : op. cit., pp. 338-9

من فكرة الإله الذى لاراد لحكمه . وإلى جانب هذين العاملين فأن الانتصار الساحق السريع للإسكندر الذى اكتسح أمامه فى سنوات قليلة الامبراطورية الفارسية العاتية جعل مسألة تأليه الاسكندر أمرا ممكنا بالنسبه لليونان الذين كان أبطالهم يقتربون كثيرا من مرتبة آلهتهم والذين كان مجمع الآلهة عندهم يتسع لأكثر من إله جديد .

وقد تكاتفت كل هذه العوامل لتتمخض عنها فى النهاية عبادة الاسكندر . وفى الواقع فان الاسكندر إذا كان قد لقى بعض المشقة فى الحصول على الاعتراف بالوهيته أثناء حياته ، فان هـــذا الاعتراف قد وجد طريقا معبدة بعد مماته ، بل ربما منذ لحظة وفاته . ففى الخيمة التى أنعقدت فيها هيئة الأركان ، أو مجلس القواد ، لدى وفاة الاسكندر ، نجد يومينيس ، أمينه الخاص وأحد قادته يربط بين فكرة التأليه وبين وضع الإسكندر كملك ، فيعد كرسى العرش فى صدر الخيمة ويضع عليه التاج والصولجان وبقية متعلقات اللباس الرسمى الملكى ، يشعل نارا أمام كرسى العرش ، وقبل أن يتخذ القادة مجلسهم يرش كل منهم بعض العطور (المرتبطة بشعائر العبادة والتقديس) والتى يأخذونها من صندوق من الذهب . ولم يكن هذا بأى حال نوعا من عبادة الأبطال . فان المؤرخ ديودوروس يذكر فى ألفاظ صريحة أن الاسكندر قد عبد كإله (١٣٢) .

وقد رأينا بطلميوس ، مؤسس أسرة البطالمة ، يحتال بكل الطرق حتى ينقل جثمان الإسكندر إلى مصر ويقيم له فى النهاية ضريحا فى الاسكندرية .

---

(١٣٢) Diod. : XVIII, 61,2

وهى حركة كان لها دون شك دور فى تدعيم مركز بطلميوس فى المنطقة التى كان قد أزمع أن يجعل منها مقراً للملكة بعد أن أصبحت الاسكندرية مقرا لهذه العبادة التى أصبح يدين بها كل العالم المتــأغرق. ولم يقتصر بطلميوس على ذلك، فقد أدخل عبادة الاسكندر بصفة رسمية على الأقل فى بعض المناطق ومن بينها، دون نزاع، مدينة الاسكندرية التى كان فيها جثمانه وضريحه.

وقد عرفت عبادة بطلميوس نفسه أثناء حياته، وإن كان لم يصل إلى أن تصبح هذه العبادة عامة فى كل مصر، وإنما تمت فى أنحـاء متفرقة سواء فى مصر أو فى خارجها، فقد أصبحت عبادة رسمية بصفة محلية فى مدينة بطوليمايس Ptolemais التى أسسها بطلميوس فى الصعيد، كما أضفيت على هذا الحاكم ألقاب فيها شىء كثير من التقديس فى بعض المنــاطق الإغريقية، مثل جزيرة رودس التى ساعدها بطلميوس أثناء حصــار ديمتريوس فأطلق عليه أهلها لقب المنقذ أو المخلص Soter، وهو اللقب الذى عرف به بعد ذلك، ومثل جزر الكوكلاديس التى أضفت عليــه أمجادا شبيهة بأمجاد الآلهة (١٣٣).

على أن هذه المحاولات المتعددة والمتفرقة التى حاول بها البطالمة أن

---

(١٣٣) عن عبادة بطلميوس فى مدينة بطوليمايس راجع:
Scherer: Le Culte de Sôter à Ptolemais et à Coptos (Bull. de l'Inst. Français d'Arch. Orientale, XLI), pp. 71-3. عن الألقاب الإلهية خارج مصر راجع: Charles Michel: Receuil d'Inscr. Gr., 373

يضفوا صفة التقديس أو الألوهية على أشخاصهم أو على حكمهم ، لم تلبث أن تبلورت فى عهد الجيل الثانى من هؤلاء الحـكام فى شكل عقيدة أو عبادة ملـكية يتخذون فيها الصفات الإلهية بشكل رسمى (شأنهم فى ذلك شأن بعض حكام الدول المتأغرقة ، كما حدث فى سورية عند ملوك الدولة السلوقية على سبيل المثال) . ففى ٢٧٠ ق.م. حين ماتت أرسينوى الثـانية ، ثانى زوجات بطلميوس الثانى فيلادلفوس ، بعد الانتصارات البطلمية فى الحرب السورية ، تم تأليهها بالنسبة للمصريين على أساس أنها اتحدت ، بعد موتها ، بالإله رع ، كما أقام لها زوجها (وأخوها) فيلادلفوس عبادة إلهية بالنسبة للإغريق ، وبعد ذلك مباشرة نصب نفسه إلـها معها وأقام عبـادة الإلهين الأخوين Theoi Adelphoi له فى حيـاته ولها بعد موتها . بعد ذلك نجد فيلادلفوس يؤله أباه بطلميوس الأول (سوتر) وزوجته بريينـكى الأولى فى ٢٧٩ ق.م تحت اسم « الإلهين المنقذين ». وحين اعتلى العرش بطلميوس الثالث أله نفسه وزوجته فأصبحا « الإلهين الخيرين » واستمر التقليد بعد ذلك (١٣٤).

* * *

هذا ولم يكن تأليه الملوك فى شكل عبادة أو عقيدة ملكية هو كل ما لجأ اليه بطالمة فى مجـال تدعيم ملكهم فى مصر . فقد ظهرت بين العبادات التى عرفتها مصر فى عصر هؤلاء الملوك عبادة سرابيس Sarapis التى أقامها بطلميوس الأول ، أو بعبارة أدق ، طورها من عبادة مصرية تشكل نوعا من الاتحاد بين أوزير إله العالم الآخر وحابى Apis (الثور

(١٣٤) P. Jouguet: op. cit., 59-63; Bell: op. cit., 56-7

المقدس الذى عبده المصريون) ، ليعطيها شكل رجل فى عنفوان ثوثه ورجـولته (حسب المفهوم والتصـور اليونانى للآلهة) له صـورة الإله زيوس .

وقد قيل فى هذا المجال أن هذه العبادة التى أعطت الإله المصرى المتحد مظهراً يونانيا كانت تهدف أساسا إلى التقريب بين المصريين وبين المهاجرين اليونان الذين أستوطنوا مصر ، وذلك باحياء عبادة إله مصرى بعد أن يعطوه صورة يونانية . ولا شك أن هذه العبادة قد أدت دورا لا بأس به فى هذا الاتجاه وكان هذا مما يخدم سياسة البطالمة فى الداخل دون شك . ولكن يبدو أن البطالمة كانوا يهدفون من نشر هذه العبادة إلى جانب ذلك ، إلى تدعيم مركزهم فى المجال الدولى . بل أن المؤرخ هـ. أ. بل (١٣٥) يثبت لنا فى شىء كثير من الاقناع أن الهدف الاساسى من نشر هذه العبادة كان الاستهلاك فى المجال الدعائى الدولى ، إذ أنها لم تنتشر فى مصر كثيراً سـواء بين المصريين أو اليونان خارج منف والاسكندرية ، وهما المركزان الرئيسيان لهذه العبـادة فى مصر . ولكن الشواهد إذا كانت لاتؤيد إنتشار هذه العبادة فى مصر ، ومن ثم لا تدعم فكرة الربط بين المصريين والإغريق المستوطنين كهدف أساسى لها ، فانها من الجانب الآخر تشير إلى إنتشار هذه العبادة خارج مصر . فقد أصبح سرابيس هو الإله الذى يرعى الإمبراطورية البطلمية ، كما ظهر بشكل واضح (بعد أن أصبحوا يرون فيها عبادة أوزير وزوجته إيزيس وابنهما حورس) بين مجموعة الآلهة التى انتشرت عبادتها فى أنحاء العالم المتأغرق .

---

(١٣٥) op. cit., 40

وقد كان ظهور الإله الآتى من مصر بين هذه المجموعة من الآلهة يشكل نجاحا كبيراً للبطالمة ويعطيهم هيبة من شأنها أن يدعما مركز هؤلاء الحكام فى المجال الدولى الذى كان قد بدأ فى ذلك الوقت يتخذ أهمية متزايدة بين الدول المتأغرقة المحيطة بالقسم الشرقى للبحر المتوسط لظروف ذكرتها فى أحاديث سابقة ، ومن ثم أخذت السياسة الخارجية لدول هذه المنطقة تحتل مكانا بالغ الأهمية فى دائرة نشاط حكامها .

وقد ساعدت على انتشار هذه العبادة ظروف معينة كانت قد بدأت تظهر بشكل واضح فى ذلك الوقت ، وكان من الطبيعى أن يدركها البطالمة ويجعلوا منها إحدى نقط الانطلاق لدعايتهم السياسية التى كان أصلح مكان لتوجيهها هو الاسكندرية بموقعها المتوسط ذى الاتصال السهل بكافة أرجاء العالم المتأغرق . ومؤدى هذه الظروف أن أعراض القلق الروحى التى سادت القرن الأخير قبل ظهور المسيحية كانت قد بدأت تظهر بشكل واضح فى القرن الثالث ق.م فإن انهيار نظام المدينة الذى درج عليه اليونان ، بكل ماكان يتصل به من قيم إجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية وروحية ، أدى إلى انهيار المثل العليا التى أقامها اليونان حول هذا النوع من الحياة على نحو ما أشرت فى مكان سابق ، ثم كان قيام الحكومات الاستبدادية العسكرية الكبيرة فى العصر المتأغرق على أسس تختلف عن تلك التى ألفها اليونان ، مما ساعد على تقويض البقية الباقية من هذه القيم والمثل العليا .

وليس أدل على القلق وعدم الاستقرار اللذين سادا هذه الفترة من ظهور الفلاسفة المتشككين الذين وضعوا أية قيم إجتماعية أو سياسية

موضع الشك والارتياب ، والابيقوريين الذين دعوا صراحة إلى نبذ كل القيم المقلقلة والعكوف على الحصول على السعادة أو المتعة الفردية فحسب(١٣٦). وقد كان طبيعيا أن يصحب هذه الحياة القلقة تلهف إلى دين جديد يعيد لليونان شيئا من الاطمئنان الذى افتقدوه ، دين يتنـــاول قيما إنسانية مطلقة ترتفع فوق العنت والضياع والقلق الذى يجدونه فى حياتهم اليومية ، ويتحدث عن الاستقرار والرضا فى حياة أخرى خالدة . وفى هـذا الجو بدأ سكان العالم المتأغرق يتطلعون إلى الشرق ، مركز القيم الروحية ، بحثا عن الخلاص الدينى المنشود . وفى هـذا الجو انتشرت عبادة سرابيس ، الإله الشرقى ذى المظهر اليونانى .

٣ ـ الثقافة وتدعيم حكم البطالمة

ثم أنتقل إلى الحديث عن الجانب الثقافى من الدعامات الاجتماعية والأدبية التى حرص البطالمة على اقامتها وتنميتها فى سبيل توطيد مركزهم وفى هذا المجال نجد أن هؤلاء الملوك حرصوا منذ بداية حكمهم على أن تـكون الاسكندرية ، عاصمة دولتهم ، بمكتبتها وجامعتها ، مركزا للاشعاع الثقافى فى العالم المتأغرق ، ليكون لهم من ذلك قاعدة أدبية يدعمون بها مركزهم ومركز دولتهم فى هذه المنطقة . وفى سبيل ذلك عمل البطالمة من البداية على أن يسيطروا بشكل فعال على كل ما يتعلق بالناحية الثقافية . وهكذا نجدهم ، رغم تشبثهم بالصيغة الاغريقية للثقافة التى أرادوا أن تصبح الاسكندرية مركـزا لها ، يبتعدون عن الطريقة التى سارت عليها الثقافة

---

(١٣٦) Hammond : From City - State to World State , 44 sq Bertrand Russel : A Hisory of Western Philosophy,pp. 252 - 74

الاغريقية حتى هـــذا الوقت والتى تميزت بالطابع الفردى الذى ينبثق عن الشعب ويمثل كافة المذاهب والاتجاهات ، ليدخلوا هذه الثقافة فى نطاق حكومى لا بد أن يخضع فى النهاية لتوجيه الحاكم .

ولكى أوضح هذا الافتراض سأشير بشكل سريع إلى بعض الامثلة التى تصور لنا هذين الاتجاهين لنعرف ، عن طريق المقانة ، مغزى الدور الذى سار فيه البطالمة فى هذا المجال . لقد كانت المدارس الفكرية وحلقات المنافسة والمعاهد الثقافية التى ظهرت فى بلاد اليونان فى فترة ازدهار الثقافة اليونانية تمثل مذاهب يختلف كل منها باختلاف مؤسسه واتباعه دون تقيد بأى جهاز حاكم ، فالتعاليم السوفسطائية التى سيطرت على العقلية اليونانية فى أواسط القرن الخامس كانت تمثل اتجاها حرا لا يخضع لتوجيه من أية هيئة رسمية أوحكومية ، وحلقات الدراسة والمناقشة التى كان يعقدها سقراط والتى كانت أساس الفلسفة السقراطيه إنما قامت لترد على نظريات المذهب السوفسطائى ، والنظريات التى ترددت فى جوانب الاكاديمية التى أسسها أفلاطون والتى كانت تنزع بشكل واضح إلى تمجيد الحكم الارستقراطى كانت فى الواقع ردا على اتجاهات الايموقراطية المتطرفة التى كانت سائدة فى أوائل القرن الرابع ، والافكار السياسية الواقعية المعتدله التى توضح جوانب الخير والشر فى كل نظام من نظم الحكم والتى انبثقت من معهد اللوقيون الذى انشأه أرسطو كانت بدورها تمثل ردا على الافكار السياسية المثالية التى نادى بها استاذه أفلاطون من قبل والتى ثبت فشلها عمليا حين أراد هـــذا الاخير أن يجعله قاعدة للدستور الذى حاول أن يسنه فى سيراكيوز بدعوة من حاكم هذه المدينة .

ولم تقتصر هذه النزعة الفردية ، التى أنبثقت من بين صفوف الشعب وابتعدت كل البعد عن التوجيه الحكومى ، على الأفكار التى ظهرت فى هذه المدارس الفكريه ، بل إن الكتب التى كانت تقوم عليها الدراسة فى المعاهد أو حلقات المناقشة التى ظهرت فيها هذه المذاهب المختلفة لم تكن تمثل مكتبات عامة تملكها الدولة ، وانما كانت مجموعات كتب شخصية يمتلكها الأفراد ويتصرفون فيها كما يروق لهم ، يظهر ذلك جليا إذا عرفنا أن أرسطو أوصى بمكتبة معهد اللوقيون ، وكانت هذه ملكا شخصيا له ، لتلميذه ثيوفراستوس الذى خلفه فى هذا المعهد ، بينما ترك ثيوفراستوس هذه الكتب بعد وفاته لتلميذه وقريبه نيليوس .

أما عند البطالمة فقد اتخذ الوضع اتجاها مغايرا ظهر فيـــه التوجيه الحكومى من البداية بشكل واضح وسأحاول أن أعرض بشكل سريع بعض ما قام به البطالمة فى هذا المجال لأثبت صحة الافتراض الذى أقدمه هنا ، وهو أن البطالمة اتخذوا من النشاط الثقافى دعامة سياسية ومن ثم وجهوا المكتبة والجامعة لتؤدى ، إلى جانب الغرض الثقافى الذى نيط بها ، غرضا آخر هو التدعيم الأدبى لدولة البطالمة عن طريق الدعاية لعاصمتها. فنحن نرى بطليموس الأول سوتر وبطليموس الثانى فيلادلفوس يعتمد أن على ديمتريوس الفاليرى ، السياسى الأثينى الذى رأى فى العاصمة البطلمية الفتية الغنية بحيويتها الدافقة وإمكانياتها الكبيرة خير مجال لفكرة راودته قبل ذلك مرات واتخذت حين خرجت إلى نطاق الواقع شكل أكبر جامعة فى العصور القديمة وأول مكتبة حكومية عامة (وهو الأهم) عرفها العالم .

ولم تذهب جهود البطالمة سدى فى ناحية الدعاية التى هدفوا اليها ، فسرعان ما توافد على الجامعة والمكتبة علماء وأدباء ومفكرون من جميع أنحاء العالم المتأغرق ، من أمثال كاليماخوس الشاعر الذى أتى من برقه وهيروفيلوس الجراح والعالم فى التشريح وأرستراتوس العالم فى وظائف الاعضاء اللذين أتيا من آسيه الصغرى ، وهبارخوس الفلكى الذى أتى من نيقيه وغير هؤلاء عشرات وعشرات ـ فقد وصل عدد هؤلاء العلماء فى فترة أزدهار النشاط الثقافى فى الاسكندرية إلى نحو مائة ـ وكلهم ، فيما عدا استثناءات قليلة ، أتوا من بلاد أخرى ليستقروا وليقوموا بعملهم العلمى فى الاسكندرية (١٣٨) . وهكذا ركزوا أنظار العالم من الناحية الثقافية على عاصمة مصر . وقد تمثل نجاح البطالمة فى ناحية الدعاية السياسية عن طريق النشاط الثقافى فى السمعة العلمية العالية التى أشتهرت بها الاسكندرية كنتيجة طبيعية لهذا التركيز والتخصص الثقافى . وقد بلغ من قــوة هذه السمعة ، وبخاصــة فيما يتعلق بالعلوم العلمية أن ذكر لنا مؤرخ مثل أميانوس ماركلينوس ، مشيرا إلى هذه الفكرة ، أن خير تزكية كان فى امكان أى طبيب أن يحصل عليها هى أن يقال عنه إنه أتم دراسته فى جامعة الاسكندرية .

وقد كان هذا الاتجاه من جانب البطالمة نحو الدعاية السياسية لدولتهم ولحكمهم عن طريق تركيز الأضواء على عاصمتهم كمركز للثقافة العالمية ،

---

(١٣٨) Westermann ; op. cit., 1-16 ، راجع كذلك : نصحى ، نفسه ، ج ٤ ، ط ٣ ، صفحات ٢١٦ - ٢٤١

هو قطعا الذى دفع البطالمــة إلى سلوك كل طريق ممكنة لتزويد مكتبة الاسكندرية بالنسخ الاصلية من الرسائل التى وجدت فى عصرهم ، فالى جانب شراء الكتب بالطريق المعتادة لجأ بعض ملوكهم فى سبيل الحصول عليها إلى وسائل تبعد قليلا أو كثيراً عن الطرق السوية . من ذلك مثلا أن ثالث حكام البيت البطلمى أرسل إلى أثينة يطلب ، على سبيل الاعارة المخطوطات الاصلية لمسرحيات ايسخلوس ويوريبيديس وسوفوكليس حتى ينسخهم أدباء الاسكندرية بعد أن وضع فى أثينة مبلغا من المال قدره خمسة عشر تالنتا كضمان لاعادتهم ، فلما انتهت مهمة النسخ آثر أن يفقد الضمان ويحتفظ بالنسخ الأصلية ، بينما ارسل إلى أثينة نسخا من التى نقلها نساخ الاسكندرية (١٣٩) . ومن ذلك أيضا المائتى ألف مجلد التى اضافتها كليوباتره إلى المكتبه حصلت عليها من ماركوس أنطونيوس الذى أهدى هذه المجلدات لفاتنته بعد أن نهبها من مكتبة برغامة أثناء حروبه فى آسية الصغرى وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه الجهود ، وهى العدد الضخم من الكتب الذى ضمته مكتبة الاسكندرية ، إذ من المرجح أن هذا العدد وصل قرب نهاية القرن الثالث ق.م. إلى نحو أربعمائة ألف مجلد ، بينما قفز فى الفترة التى زار فيها يوليوس قيصر مصر فى أواسط القرن الأول ق.م. إلى سبعمائة ألف مجلد ، فاذا أضفنا إلى ذلك المائتى ألف مجلد التى أضيفت فى عهد كليوباتره السابعة على نحو ما أسلفت لكان الناتج تسعمائة ألف مجلد حوتها مكتبة الاسكندرية فى نهاية عهد البطالمة وهو

(١٣٩) Galen. : XVI, 1.

عدد كفيل بأن يجتذب الانظار إلى الاسكندرية كأكبر مركز ثقافى موجود (١٤٠) .

ومما لا شك فيه أن البطالمة كانوا يهدفون إلى نفس الغرض الدعائى السياسى حين عهدوا بأمانة المكتبة إلى سلسلة من الامناء كانوا أبعد ما يكون عن طبقة الموظفين الذين يؤدون عملا روتينيا آليا ، بل كانوا بحق مجموعة من العلماء برز كل منهم فى ميدانه كأبرع ما يكون التبريز . فكان أولهم الاديب زينودوتوس الذى أتى من إفسوس والذى كان أول من نشر ملحمتى الإلياذه والأوذيسيه على أساس علمى من النقد والتحليل ، وكان من بينهم أبولونيوس شاعر الملاحم وأراتوسطين الجغرافى الذى قدره محيط الكرة الأرضية تقديرا يثير الإعجاب ، وأرستوفانيس (غير أرستوفانيس الشاعر المسرحى الكوميدى المعروف) الذى مات فى ١٨٥ ق . م . بعد أن كسب شهرة كبيرة فى نشر مخلفات الشعراء الكلاسيكيين والكتاب الذين سبقوا عصر أفلاطون ، وكان آخر هذه السلسلة من الأمناء - الذين كانوا فى حقيقة الأمر نخبة ممتازة من المفكرين - أرستارخوس الذى دأب على نشر ما أنتجه شعراء اليونان المبكرين من هوميروس حتى پندار (١٤١) .

---

(١٤٠) عن عدد المجلدات التى ابتدأت بها مكتبة الاسكندرية (٢٠٠ مجلد) راجع Josephos : Antic. Jud., xll, 3,1 . عن التقدير العام للعدد والذى وصلت اليه المكتبة فى أوجها راجع : Westermann : op. cit., 9 هذا وأحب أن أنبه أن ماوصفته بالمجلدات أعنى به فى الواقع لفائف بردية وقد كانت اللفافة البردية العادية تعادل نحو ٦ الى ٨ صفحات من الكتب المعاصرة ذات القطع الكبير . راجع فى ذلك : U. Wilcken (Hermes,xll), 103 sq

(١٤١) Grenfell & Hunt : Oxyrrh Papyri, x, 1241, col. ll

كذلك مما يشير إلى هـــذا الاتجاه مسألة الترجمة السبعينية التى ينسب القيام عليها إلى بطليوس فيلادلفوس . وفحوى هذه المسألة أن بطلميوس هذا استقدم من فلسطين أثنين وسبعين عالما يهوديا وعهد اليهم بترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية (١٤٢) . وقد قيل فى التعليق على هذه الواقعة إنها تثبت مـــدى اهتمام البطالمة بالجوانب المختلفة من الثقافة ورغبتهم فى أن ييسروا أمام الطبقة المثقفة اليونانية مجال الاتصال بالثقافات الاجنبية وهذا شيء لا يمكن انكاره بطبيعة الحال ، ولكنى أرى فى تفسير رغبة بطلميوس على هـــذا النحو فحسب تقصيرا فى إظهار المغزى الكامل لما قام به الحاكم البطلمى ، وفى رأيى أن ترجمة التوراة تنطوى على أكثر من مجرد الرغبة فى التثقيف العام ، فالتوراه لا تقتصر على الناحية العقيدية الروحانية من الدين اليهودى ، وإنما تتعرض فى كثير من التفصيل الى تاريخ اليهود ونظمهم وتقاليدهم ومعاملاتهم والقيم التى تسود حياتهم وعلى هذا ففى ترجمة هذا الكتاب مع فائدة كبيرة لحاكم مصر إذا أراد أن يوجه دعايته السياسية نحو سورية وفلسطين حيث يقطن عدد كبير من اليهود ـ ونحن نعرف أن البطالمه كانوا على احتكاك سياسى وعسكرى دائم بهذه المنطقة .

وأخيرا فان هناك واقعة تتصل بالمكتبة والجامعة أرى أنها تؤيد الافتراض الذى قدمته عن المغزى السياسى الدعائى للاتجاه الثقافى عند البطالمة وتاريخ الواقعة يرجع الى عهد بطلميوس الثامن الذى نشب بينه وبين السكندريين نزاع شديد أدى الى تنكيله بهم فى كثير من القسوة وبشكل يكاد يقضى عليهم قضاء تاما . ففى وسط هذا النزاع نجد هذا الملك يوجه بطشه

Ps. Aristeas:Epistula ad Philocratem, Joseph:Antic. Jud., xll,2(١٤٢)

بوجه خاص الى علماء الاسكندرية بدرجة كانت نتيجتها تشتيت هؤلاء العلماء (١٤٣)
ومن السهل أن نجد فيما قام به هذا الملك دليلا جديدا على ربط البطالمة
بين الثقافة والسياسة ، فالبطالمة فى اتجاههم نحو الدعاية السياسية عن طريق
الثقافة كانوا يعتمدون على النشاط الفكرى لهـــذه الصفوة المثقفة وعلى
المركز الأدبى الذى تحتله هذه الصفوة بين الإغريق ، سواء فى مصر أو
فى خارج مصر . ومن الطبيعى فى ضوء هذا المفهوم ألا يأمن بطلميوس
الثامن لموقف هؤلاء العلماء ولآرائهم فى فترة النزاع بينه وبين السكندريين ـ
وهم المواطنون الإغريق فى الاسكندرية .

---

(١٤٣) Athenaeos : Deipnosophist., lv , 184 c.

القسم الثالث

السياسة الخارجية للبطالمة

الباب الثامن

المرحلة الاولى : التوسع والصمود

سأقسم موضوع السياسة الخارجيه للبطالمه ، لغرض الايضـــاح ، إلى مراحل زمنية ثلاثة : المرحلة الأولى ، وهى تمتد عبر الفترة التى تشمل حكم البطالمة الثلاث الأول والشطر الذى ينتهى بمعركة رفح (٢١٧ ق.م.) من حكم بطلميوس الرابع . وفيها نجد السياسة الخارجيه المصرية تتخذ شكل مد إيجابى يجعل من سياسة حكامها عنصرا فعالا ، أو على الأقل عنصرا لا يمكن تجاهله ، فى تحريك الأمور فى المجال الدولى فى القسم الشرقى من البحر المتوسط . ثم تأتى بعد ذلك المرحلة الثانية ويشغلها بقية حكم البطالمة حتى بداية عهد كليوباتره السابعة ، آخر أفـــراد البيت الحاكم البطلمى ، وفيها تتخذ السياسة الخارجية المصرية شكلا جزريا يقابل المد السياسى الذى عرفته فى المرحلة الأولى ، فينقلب موقف مصر من اتجاهه الإيجابى الذى يتفاعل مع الظروف المحيطة به فيتأثر بها ويؤثر فيها إلى سلبية تتقهقر به إلى حيث يجتزىء بالتأثر دون التأثير ، وتنحـــدر به إلى وضع الانتظار والاستقبال بدلا من دور التحفز والانطلاق وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة التى يشغلها حكم كليوباتره السابعة ، وفيها نجد موقفا جديدا يتمثل فى طموح المملكية المصرية البطلمية إلى مد نفوذها بشكل لو تحقق لجعل حدود هذا النفوذ مطابقا لحدود الامبراطورية الرومانية نفسها . وقد كان طبيعيا أن يؤدى هذا الطموح الإيجـــابى إلى صراع

كليوباتره مع القيـــادة العسكريه والسياسية للعالم الرومانى ولكن هذا الاتجاه لا يلبث أن يلاقى نهاية سريعة حين ينهار حلم كليوباتره بعد أن تنهار خططها أمام القوات المناوئه فى رومه ، ثم تنهار بالتالى الدولة البطلمية لتصبح مصر إحدى الولايات التى تدور فى فلك الإمبراطورية الرومانية ولنبدأ الحديث عن المرحلة الأولى .

١ — الاتجاه التوسعى فى هذه المرحلة

وفى هذه المرحلة نجد أنه ، فيما عدا المناسبتين اللتين تعرضت فيهما مصر للغزو المباشر ، مرة من جانب برديكاس فى ٣٢١ ق.م. ومرة من جانب أنتيجونوس فى ٣٠٦ ق.م. ، (وقد نجح بطلميوس فى صد كل من هاتين المحاولتين كما رأينا) ، فان سياسة البطالمة فى هذه المرحلة كانت تتسم بالطابع أو الإتجـاه التوسعى (١٤٤) . ونحن نستطيع أن نميـز ،

---

(١٤٤) عن المناسبتين اللتين تعرضت فيهما مصر للهجوم أنظر البـاب الرابع من هذه الدراسات. عن موضوع السياسة التوسعية البطلمية لا تزال الدراسة الاساسية هى التى قام بها يوليوس بلوخ Julius Beloch تحت عنوان Die Auswärtigen Besitzungen der Ptolemarer وهى تشكل الباب الرابع عشر فى القسم الثـالث من كتابه Griechische Geschichte (المجلد الثانى من الجزء الثـالث) ، صفحات ٢٤٩ - ٢٦٨ . كذلك هناك ملخص واف لهذه المرحلة قام به بيير جو جيه فى البابين الأول والثانى فى القسم الثالث من المجلد الرابع من Précis de l'Hist. d'Égypte تحت عنوان La Fondation de la Puissance Ptolemaique, L'Empire de l'Egypte au III me Siècle صفحات ٢٥٩ - ٢٧٥ من المجلد المذكور . ويجد القارىء العربى عرضا وافيا لتفاصيل هذه المرحلة فى: نصحى، نفسه، ج١، ط٢، صفحات ٤٨-١٤٣

بوجه عام ، ثلاثة خطوط أو مجالات سارت فيها هذه السياسة التوسعية : الأول هو مجال السيادة البحرية فى القسم الشرقى للبحر المتوسط ، والثانى هو الجبهة السورية ، والثالث ، وهو أقلهم من ناحية حجم الجهـــد الذى بذله البطالمة ومن ناحية الحـــيز الزمنى الذى شغله فى سياستهم الخارجية (وإن كان هذا لا يقلل من أهميته) ، ويشمل الجبهتين الغربيـــة والجنوبيـــة .

وفيما يخص المجال الأول وهو الحصول على السيادة البحرية نجد أن محاولات البطالمة تستمر فى مثابرة وإلحاح ظاهرين منذ بداية عهد بطلميوس الأول ، رغم ما تعرضت له من نكسات ، ولا تخبت نسبيا إلا فى عهد بطلميوس الثالث . ففى أثناء الصراع مع برديكاس (بعد موت الاسكندر بسنة واحدة) نجد بطلميوس يحالف بعض المدن الواقعة فى جزيرة قبرص ثم يجدد محالفته معها بعد مقتل برديكاس ، وإذا كان موقفه قد تزعزع بعد ذلك أمام سيطرة أنتيجونوس على شرقى البحر المتوسط (٣١٥ ق.م.) فإنه يعاود محاولاته التى تنتهى بضم الجزيرة نهائيا فى ٣١٠ ، كما يستولى على بعض القواعد على شواطىء آسية الصغرى (بامفيليه وليقيه وكاريه) وجزيرة كوس . كذلك نجده يحاول استعادة السيطرة البحرية بعد انتكاسه مرة ثانية ، على أثر هزيمته فى ميناء سلاميس (٣٠٦) أمام ديمتريوس بن أنتيجونوس ، فيتحالف مع ميليتوس ، ثم يخلو له الجو بعد سقوط ديمتريوس فى الأسر (على يد سليوقوس فى ٢٨٥) فيسيطر على بعض المواقع على الساحل الفينيقى وعلى جزيرة ثيره ومجموعة جزر الكوكلاديس ، بل من المرجح أنه اتخذ لنفسه إذ ذاك قاعدة بحرية على الساحل الشمالى

الشرقى لجـــزيرة كريت . هذا إلى جانب مساعداته لجزيرة رودس التى استطاع أن يضم بها هذه الجزيرة إلى دائرة حلفـائه . وفوق ذلك فقد حاول بطلميوس الأول أن يمد نفوذه إلى بلاد اليونان عن طريق السيطرة على مدن الحلف الهلينى أو حلف كورنثه ، وإن كانت محاولاته فى هذا المجال لم تصل إلى نتيجة إيجابية أمام خطط كسندروس .

وتستمر محاولات السيادة البحرية فى عهد خلفه فيلادلفوس ، فيحالف برغامه فى ٢٦٣ ق.م. ويستولى على إفسوس ويسيطر على شاطىء كاريه فيما بين ميليتوس وهاليكارناسوس . ولا يتوقف هذا الاتجاه إلا قليلا بعد هزيمة الاسطول البطلمى أمام أنتيجونوس جوناتاس فى مياه جزيرة كوس (٢٥٨ أو ٢٥٦ ق.م.) التى يفقد فيها سيادته البحرية بما فى ذلك سيطرته على جـزر الكوكلاديس ، إذ لا يلبث فيلادلفوس ، بعد فـــترة وجيزة أن يستعيد سيادته على بحر إيجة ومعه الجزر المذكورة حـــوالى ٢٥٠ ق.م.

وأول بادرة من بوادر العدول عن محاولات التوسع فى مجال السيطرة البحرية لا نلحظها إلا فى عهد بطلميوس الثالث الذى يعـدل عن معاداته لمقدونية ومعترفا بدائرة نفوذها على بلاد الإغريق بعد أن يفلح أنتيجونوس دوسون فى ضم أسبرطة بالقوة إلى الحلف الهلينى (وكان بطلميوس الثالث قد حاول أن يمد سيطرته عليه دون نجاح كبير) . وقد أستمر بطلميوس الرابع على سياسة خلفه فى هذا الصدد فظل بعيداً عن التدخل فى هذه المنطقة الشائكة (١٤٥) .

---

(١٤٥) عن أهم أحداث ومحاولات السيطرة البحرية (بما فيها الانتكاسات) =

هذا عن الخط الأول فى السياسة التوسعية للبطالمة ، وقد لمسنا فيه ، على الأقل فى عهد الملكين الأولين من هذه الأسرة ، المحـــاولات التى لاتكل فى سبيل تثبيت أقدامهم فى مجال السيطرة البحرية . والشيء ذاته نلحظه فيما يخص الخط الثانى من هذه السياسة التوسعية ، وهو الذى يتعلق بالجبهة السورية . وفى الواقع فإن سجل البطالمة على هذه الجبهـة كان سجلا طويلا وحافلا ، ابتدأ منذ فترة مبكرة من حكم بطلميوس الأول قبل أن يعلن نفسه ملكا على مصر بسنوات عديدة ، واستمر عبر حكم عدد من خلفائه ، وكان النصر فيه سجالا بين حكام مصر وحكام سورية ، وإن كان جانب البطالمة هو الذى ظل راجحا بوجه عام حتى معركة رفح فى عهد بطلميوس الرابع .

وقد ابتدأ هذا السجل فى ٣١٩ - ٣١٨ ق.م. حين استولى بطلميوس الأول على المنطقة التى أسماها اليونان جوف سورية أوسوريه الجوفاء koile Syria والتى يطلق عليها الآن اسم منطقة الغور (فى جنوبى سورية وفلسطين وقسم من الاردن) ولكنه لا يلبث أن يفقدها فى ٣١٥ ويعود فيستردها بعد ذلك بثلاث سنوات فى أعقاب انتصـــاره على ديمتريوس

= فى عهد البطالمة الثلاثة الأوائل أنظر : Diod: XIX, 56—62, XX, 19, 21, 27, 50, Plut.: Demetr., 15—16, Kleomenes, 32; App. : Syr. 62; Athen.: V, 209; Polyb. : V. 39
عن العدول عن معاداة مقدونية فى الشطر الثانى من عهد بطلميوس الثالث وفى عهد بطلميوس الرابع أنظر : Polyb. : II, 47-69, V, 35-9; Plut.: Aratos, 35-46, Kleom., 18-35. عن رودس ، راجع حاشية ٩٨ من هذه الدراسات .

(بن أنتيجونوس) فى موقعة غزة (٣١٢ ق.م.). ويحاول بطلميوس بعد ذلك أن يستكمل غـــزوه لسورية فى ٣٠١ ق.م. حين يغادرها أنتيجونوس ليواجه ليسيماخوس ، ولكنه ينسحب من المنطقة حين يصل إلى علمه ، خطأ ، أن أنتيجونوس فى طريق عودته اليها . وقد أغضب بذلك حلفاءه ضد أنتيجونوس ، الذين لم يغفروا له هذا التصرف الذى يترك الميدان خاليا لعدوهم ويضعه بذلك فى موضع القوة . وهكذا ، حين يقتسم الحلفاء الأسلاب يكون جوف سورية من نصيب سليوقوس الذى تشبث به منـــذ ذلك الحين أمام أية محاولات من جانب البطالمة فى سبيل استعادته . ولما كانت الجبهة السورية ، دفاعيا واقتصاديا ، من المناطق الحيوية بالنسبة لمصر ، فقد ابتدأ من هذه اللحظة ما يمكن أن نسميه بالمشكلة السورية .(١٤٦)

وقد امتدت هذه المشكلة السورية ، فى فترة التوسع التى نحن بسبيل الحديث عنها ، عبر ما يقرب من ستين سنة ، خلال أربع حروب انتهت بمعركة رفح فى ٢١٧ ق.م. وقد وقعت حربان منهـــا عهد بطلميوس الثانى فيلادلفوس ، الأولى فى ٢٧٥ ق.م. وفيها يغزو فيلادلفوس سورية ويستولى على دمشق ولكن أنطيوخوس الأول ، الملك السلوقى لا يلبث أن يلحق به هزيمة ويسترد دمشق . وبعد ذلك بخمسة عشرة سنة يجدد فيلادلفوس محاولاته فى الجبهة السورية . فيهاجم أنطيوخوس الثانى

---

(١٤٦) عن محاولات بطلميوس الأول فى سورية أنظر :

Diod. : XVIII, 43, XIX, 80 - 6, XX, 113; Plut. : Demetr., V, 2 - 4; App.: Syr. 54 - 5

فى ٢٦٠ ق. م. مبتدئا ما تعارف عليه المؤرخون باسم الحرب السورية الثانية ، وان كان الاشتباك قد اتخذ ميدانا له غرب آسية الصغرى فى محاولة من جانب الملك البطلمى لتحطيم نفوذ سورية .ولكن فيلادلفوس لا يجنى كثيرا من محاولاته هذه المرة بعد أن أنتصرت على قوته البحرية قوة من رودس التى كانت قد نقلت ولاءها من الحاكم البطلمى الى الحاكم السلوقى .

وفى عهد بطلميوس الثالث تقوم الحرب السورية الثالثة (٢٤٦ - ٢٤١ ق. م.) التى تتمخض عن سيطرة الملك البطلمى على كل الشاطىء السورى حتى مدينة سلوقية الواقعة على نهر العاصى . ولكن بعد حوالى ربع قرن يحاول الملك السلوقى ، أن يغزو جوف سورية (٢٢١ - ٢١٧ ق م.) ويستولى فعلا على بعض المواقع . ولكنه لا يلبث أن يفقدها بعد معركة رفح التى ختمت هذه الحرب السورية الرابعة بنصر بطلمى رأينا فى مناسبة سابقة كيف اعتمد فيه البطالمة أساسا على الجنود المصريين بعد أن تخاذلت الفرق اليونانيه التى كانت تخدم فى جيش بطلميوس بحيث كان نصرا مصريا فى مجال الحروب المتأغرقه التى كانت تقوم أساسا على قوات مقدونيه يونانيه (١٤٧) .

* * *

وأستعرض أخيرا ، بشكل سريع ، محاولات البطالمة نحو التوسع غربا وجنوبا . وفى هذا المجال نجد بطلميوس يفتتح برقة فى أول سنة من سنى

(١٤٧) عن الحروب السورية الأربعة أنظر .Polyaen.: Iv, 15, v, 18, 50
Justin.: xxvII 1-2,5; Polyb.: 58-71, 79, 83, 87, 107 sq .

حكمه فى مصر فى ٣٢٣ ق. م. ويعين صديقه أوفلاس Ophellas حاكما عليها ، ولكنه يفقدها فى ٣١١ بعد أن أوعز أنيتجونوس إلى أوفلاس بالاستقلال بها ويضطر بطلميوس إلى السكوت على هذا الوضع أمام تهديد أنيتجونوس بغزو مصر ذاتها ، ثم يستعيدها بعد ذلك بثلاث سنوات (٣٠٨) حين تسنح له الفرصة لذلك ، وتظل تحت حكم البطالمة حتى يدمجوها نهائيا فى مصر فى عهد بطلميوس الثانى (حـــوالى ٢٥٨) عن طريق زواج سياسى بين ولى العهد البطلمى ، الذى أصبح فيما بعد بطلميوس الثالث ، وابنة حاكم برقة الذى كان ينتمى هو الآخر إلى الأسرة البطلمية (١٤٨) .

أما عن الجنوب فنجد بطلميوس الأول يحتفظ بحاميه فى إلفنتين لحماية حدود مصر الجنوبية كما نجد بطلميوس الثانى يرسل حملة إلى إثيوبية (التى كانت تعنى إذ ذاك شمال السودان) . وربمـا كان ذلك على أثر هجوم من جانب الإثيوبين على القوات المصرية ، إذ أن هناك نص من النصف الأول من القرن الثالث يشير إلى هجوم من هذا النوع ، لعله يشير إلى هذه الواقعة (١٤٩) .

٢ ــ اراء فى تفسير هذا الاتجاه

وقد تضاربت الأقوال فى تفسير هـذه السياسة التوسعية من جانب البطالمة ، فنجد مثلا مؤرخا مثل كورنمان Kornemann وآخر مثل

(١٤٨) عن أهم الأحداث أنظر : Diod.; xvIII, 19-21, xx, 41-2, Pausanias; I, 6-8

(١٤٩) عن حملة إثيوبيه Diod.: I, 37 عن النص المتعلق بهجوم الأثيوبيين على الحدود المصرية والتعليق عليه راجع : نصحى نفسه، ج ١، ط ٢ ، ص ١٠٨ وحاشية ٣ . راجع كذلك ; Plin.: xxxlv, 148

Wilcken يريان أن البطالمة كانوا يهدفون أساسا إلى تكوين امبراطورية لاتعدو مصر أن تكون مجرد مركز لها ، وان كانت حدود هذه الامبراطورية تتأرجح من أحدهما إلى الآخر بين حوض البحر المتوسط وبين الحدود العالمية التى رأينا الاسكندر يهدف اليها فى بداية هذه الأحاديث (١٥٠) . بينما يذهب رستوفتزف Rostovtzeff إلى أن البطالمة كانوا يهدفون الى تدعيم ملكهم فى مصر وأن اتجاههم التوسعى كان يستهدف مجرد حصولهم على الموارد اللازمة لهذا التدعيم (١٥١) . وقد عبر روستوفتزف عن ذلك بطريقة حسابية تميل بعض الشىء الى الجفاف والى قدر بسيط من المبالغة فى التعميم حين قال فى مجال الحديث عن التوسع المصرى فى عهد البطالمة « لقد كانت الفكرة التى توجه سياستهم هى أن يجعلوا من مصر دولة من الغنى والثروة بحيث تحتفظ باستقلالها وتظل فى مأمن من أية محاولة خارجية لإخضاعها . ولضمان ذلك كان من الضرورى أن تظل مصر سيدة للبحر ومتحكمه فى الطرق البحرية التى توصل اليها . وقد كانت هذه مهمة شاقة ومعقدة ، ففى أيام الامبراطوريات المصرية القديمة والوسطى والحديثة (فى عهد الفراعنة) كان امتلاك سوريه كافيا لتحقيق هذا الغرض . ولكن الموقف تغير منذ بداية الألف الأولى ق.م. إذ أن التقدم الحضارى الذى

---

(١٥٠) E.Kornemann : (Klio, xvl) p. 229, U.Wilcken: Grundzüge und Chrestomatie der Papyrusurkunde, I,(القسم الاول)p.4.,

Alexander der Grosse und die Hellentstische Wirtschaft, p. 61

(١٥١) Rostovtzeff: Foundations of Soc. and Econ. Life in Egypt. (Eg. Journ. of Arch., vl) , p. 172.

ظهر فى آسية الصغرى والنمو المطرد للقوات البحرية فى بلاد اليونان قاد مصر إلى أن تمد منطقه نفوذها السياسى إلى جميع مناطق البحر المتوسط ، لا لتغزو آسية الصغرى أو بلاد اليونان ، وانما ليكون فى مقدورها مراقبة أية دول بحريه منافسة ، وإحباط أية محاولة لعزل مصر عن الطرق البحرية المؤديه إلى شواطئها سواء فى الشمال أو فى الشرق . ولكن السيطرة على هذه الطرق لا يمكن تحقيقها إلا بامتلاك أسطول قوى ، ومثل هـذا الأسطول لا يمكن أن يتم بناؤه إذا اعتمدت مصر على مواردها الطبيعية من المواد الأولية فحسب ، فالخشب والمعادن اللازمة لذلك لا بد أن تأتى من الخارج ، ولكى تضمن مصر الحصول على كميات وافرة منها لا بد لها أن تحتل بعض المناطق الغنية بالغابات أو المناجم . وقد كان هذا هو السبب فى أن تحتفظ مصر دائما بشبه جزيرة سيناء (الغنية بمعادنها) ، وأن تمد سيطرتها إلى سورية وقبرص ، وأن تحاول احتلال بعض مقاطعات كآسيه الصغرى وبخاصة لوقيه Lykia (الغنية بغاباتها) . كذلك تعتمد قوة مصر (وهى لازمة لتحقيق هذه السيطرة) على انتظام تجارتها الخارجية إذ أن قيام أسطول وجيش قويين يحتاج إلى مبالغ وافرة من المال ، والحصول على مبالغ كافيه من الذهب والفضة لسك هذه النقود أمر لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق التجارة الخارجية ، وهذه لا تتسنى ممارستها على نطاق واسع إلا بالسيطرة على الطرق التجارية » .

وإلى جانب هذين الرأيين نجـد جوجيه Jouguet يطالعنا برأى وسط مؤداه أننا لا يمكن أن نفصل بين الاتجاه الامبراطورى وبين الاتجاه الاقتصادى فى سياسة البطالمة بشكل واضح ، لأن كل من هذين

الاتجاهين مرتبط بالاخر ، وإن كان أحد الاتجاهين يطغى على الثانى بدرجات متفاوتة تبعا للظروف . ودليله على ذلك أن مصر ، شأنها شأن بقية الدول المتأغرقة ، قد نبذت محاولات السيطرة على بحر إيجة بالقوة المسلحة ابتداء من القرن الثانى ق.م. حين بدأت رومه تنتهج فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط سياسة حفظ التوازن عن طريق مد نفوذها إلى المنطقة وسيطرتها عليها . ومع ذلك فإن هذه الدول ظلت متشبثة ، فى المناطق المحيطة بها ، بتأمين الطرق التجارية البحرية اللازمة لازدهار اقتصادياتها ، كلما وجدت إلى ذلك سبيلا . (١٥٢)

على أن هناك نقط ضعف فى هذه الآراء الثلاثة سأحاول الرد عليها بشكل سريع . ولنبدأ بالفكرة التى تتأرجح بين الامبراطورية المحدودة والامبراطورية العالمية . ففيما يتعلق بفكرة الامبراطورية نجد أن البطالمه حقيقة تأثروا بالفكرة المصرية التى عرفها المصريون فى أثناء حكم الفراعنة سواء فى جانبها العملى الذى يتعلق بالناحية الادارية تفصيليا . ولكن هذا الاتجاه الامبراطورى عند البطالمة لم يكن اتجاها ناضجا من حيث فكرته أو كاملا من حيث تنفيذه ، فمن جهة نجد أن بعض المناطق التى امتدت اليها سيطرة البطالمة وبخاصة بين الجزر اليونانية ، كانت لاتزيد تبعيتها لمصر عن مجرد اعتراف بالنفوذ المصرى ، دون أن تتم المقومات الاخرى التى تربط الدولة المسيطرة بالولاية ، مثل ارسال الولاة أو أخذ الضرائب أو غير ذلك من تفاصيل الادارة الامبراطورية . بل إن مناطق أخرى ، مثل جزيرة رودس وبعض المدن اليونانية كانت محاولات البطالمة فيها

(١٥٢) P. Jouguet : op. cit., 53

تنحصر فى مجرد استمالتها أو خطب ودها عن طريق المساعدات الاقتصادية كما رأينا فى مناسبة سابقة . وهى استمالة كانت لا تأمن مصر ، معها ، أن أن تنقلب بعض هذه المناطق ضدها إذا وجدت ذلك فى مصلحتها بشكل أو بآخر ، كما حدث فى أثناء الحرب السورية الثانيه حين وقفت رودس (التى طالما استمالها البطالمة) الى جانب أنطيوخوس الثانى ، الملك السلوقى وكانت سببا فى هزيمة بحرية للبطالمة حوالى ٢٦٠ ق. م. (١٥٣) .

ومن جهة ثانية فقد كانت بعض المناطق الأخرى التى امتد اليها النفوذ البطلمى تتحول فى الواقع إلى ممالك مستقلة يقوم على رأسها ملك ينحدر حقيقة من البيت البطلمى ، ولكنه لا يتبع الحكومة المركزية فى الاسكندرية وإنما يسوس مملكته بل ويتصرف فى مستقبلها كما يروق له حتى حين يصل هذا التصرف إلى حد توريثها لحكومة أخرى . وسنرى فى أثناء الكلام على المراحل التاليه هذه الفكرة تتبلور بشكل واضح حين تستولى رومه على قبرص التى كانت تحت حكم أحد أفراد البيت البطلمى ، دون أن يجد فى ذلك الملك البطلمى فى مصر ما يغضبه . سنرى بطلميوس السابع ملك برقه يوصى بمملكته للشعب الرومانى بينما تقبل رومه هذه الوصية فتضم برقه الى الامبراطورية الرومانية دون أن ترى فى ذلك اعتداء على ممتلكات مصر (١٥٤) .

* * *

أما عن فكرة العالمية التى تمثل الشق الثانى من هذه النظرية ، ففى رأيى لم تميز سياسة البطالمة بشكل كامل سواء من ناحية المكان أو من

---

(١٥٣) Polyaen.: V, 18

(١٥٤) راجع الباب التاسع من هذه الدراسات .

المضمون . فمن ناحية المكان نجد أن النطاق الذى توسع البطالمه فى حدوده تراجع إلى حد كبير عن نطاق إمبراطورية الإسكندر التى كانت تمثل الشطر الأكبر من رقعة العالم المتحضر المعروف فى ذلك الوقت بكل ما يتضمنه ذلك ، بالضرورة ، من أجناس ونظم وعادات مختلفة استطاع الاسكندر أن يجمعها داخل أطار سياسى واحد وأن يشدها جميعاً إلى مركز إدارى واحد .

أما من ناحية المضمون فنجد أن البطالمه لم يتبعوا الاتجاه العالمى فى مزج الحضارات ـ وهو الاتجاه الذى بدأه الاسكندر ـ حتى داخل نطاقهم التوسعى الضيق ـ إلا فى حدود معينة . فهم مثلا قد عملوا على جعل الاسكندرية مركزاً الاشعاع الثقافى ، تنتشر منه الثقافة اليونانية فى كل أرجاء القسم الشرقى للبحر المتوسط ، وكان من الممكن أن يقود هذا الاتجاه إلى نوع من عالمية الثقافة ـ وقد أدى فعلا إلى شىء يقترب كثيراً من هذا المفهوم . ولكن اتجاههم هذا كانت تشوبه ، كما رأينا ، سياسة دعائية يهدفون من ورائها إلى تدعيم مركزهم فى المنطقة ، كحكام لدولة « محددة » وهو اتجاه رأيناه يشوب كذلك ، على الأقل فى رأى أحد مؤرخى هذه الفترة من تاريخ مصر (ه. أ. بل) اتجاههم الذى تجسد فى ترويج عبادة سرابيس ، وهى العبادة التى مزجوا فيها ، فى مجال العقيدة ، بين جوهر شرقى (مصرى) وشكل غربى (يونانى) . وهكذا ، هنا أيضا ، يتحول مضمون له كل مقومات العالمية ، ليخدم هدفا محليا (١٥٥) .

---

(١٥٥) راجع الباب السابع من هذه الدراسات

كذلك نجد هذا التأرجح بين العالميه كفكرة ، وبين تدعيم نفوذهم فى منطقة محددة كواقع ، يصبغ نظرتهم إلى نظام الحكم فى المنطقـة التى امتد نفوذهم اليها فى صورة أو فى أخرى ، فهم لا يتدخـــلون فى نظام دولة المدينة polis – النظام اليونانى – الذى كانت تسير عليه المدن اليونانية التى دخلت ضمن نطاقهم التوسعى . بل إن بطلميوس يقيم فى مصر مدينة يونانية هى بطوليمايس . وهذا يوحى بنوع من المزج بين النظـام الشرقى المصرى والنظام الغربى اليونانى – وهو الاتجاه الذى كان يمثل فكرة العالمية فى إمبراطورية الإسكندر . ولكن هذا المزج مع ذلك كان بعيداً كل البعد عن أن يكون كاملا ، فالبطالمه ساروا أساسا على النظام المركزى الاوتوقراطى (الفردى) الذى كان يمثل الاتجاه الشرقى فى هذا المجال ، بيـــنما نجد الاتجاه اليـــونانى الذى يمثله نظام المدينة كوحدة سياسية قائمة بذاتها لا يظهر فى حكم البطالمه إلا بشكل صورى متنـاه فى ضآلته وهكذا نجد بطلميوس الأول يكتفى بإقامة المدينة التى أشرت اليها إلى جانب المدينتين الاخريين اللتين وجدهما قائمتين عندما بدأ عهده فى مصر وهما نقراطيس والاسكندرية ، وسنرى عند الكلام على إحدى هذه المـــدن ، وهى الاسكندرية ، كيف أن نظام الحكم اليونانى فى مصر لم يحظ فى الحقيقة بأكثر من شكله الخارجى دون أن تكون له مقوماته الجوهرية (١٠٦) .

* * *

هذه هى نقط الضعف فى نظرية الامبراطورية بشكليها المحدود والعالمى . أما عن نظرية روستوفتزف التى تربط التوسع البطلمى بسياسة اقتصـادية

---

(١٠٦) راجع القسم الأخير من هذه الدراسات

بحته يهدف من ورائها البطالمة إلى تأمين الحصول على موارد مملكتهم ، فهو يفسر لنا دون شك جانبا من سياسة البطالمة الخارجية ، مثل عناية بطلميوس الأول ببسط نفوذه على جزر بحر ايجه وبعض الأقاليم الواقعة على شواطىء آسيه الصغرى فى قليقية وبامفليه وليقيه وكاريه ، وحرصه ـ بعد أن فقد فى أواخر القرن الرابع ممتلكاته فى آسيه الصغرى التى أدت إلى فقدان سطوته البحرية ـ على استعادة هذه السيطرة فى بداية القرن الثالث بالصورة التى أصبح معها سيد جزر الكوكلاديس وشاطىء فينيقيه .

ولكن هذه النظرية رغم قوتها لا تفسر لنا وحدها بشكل مقبول كل اتجاهات البطالمة التوسعية ولنأخذ على سبيل المثال ، لا الحصر ، اتجاههم نحو بسط نفوذهم على برقة التى لم يكن بها من الموارد الاقتصادية ، كما لم يكن لها من الموقع الذى يتحكم فى الطرق التجارية ، ما يبرر رغبة البطالمه فى السيطرة عليها إذا كان ما يحدوهم فى توسعهم السياسى هو الاعتبار الاقتصادى فحسب . والشىء ذاته ينطبق على اتجاه البطالمة التوسعى فى المنطقة المتاخمة لحدود مصر الجنوبية .

٣ — تقييم الاتجاه التوسعى فى سياسة البطالمة

وهكذا نجد أن الاتجاه التوسعى للبطالمه لا يمكن تفسيره بشكل كامل إذا اكتفينا بنظرية الامبراطورية (سواء بشكلها المحدود أو بشكلها العالمى) كما يذهب كورنمان وفلكن ، أو بالنظرية الاقتصادية كما يذهب روستوفتزف ، أو بكليهما معا يذهب جوجيه ، وإنما أرى أن نضيف إلى هذة التفسيرات الثلاثة تفسيرا رابعا ، اذا أردنا أن نصل الى تقييم شامل لسياسة البطالمة التوسعية. هذا التفسير هو أن البطالمه وجهوا اهتمامهم بوجه خاص الى

الأماكن التى يستطيعون منها أن يدافعوا بشكل فعال عن ملكهم فى مصر . وهذا هو الذى يفسر لنا استيلاءهم على برقه ، فالحدود الغربية لمصر كانت نقطة شغب بالنسبة للمصريين فى أكثر من مناسبة فى الشطر الأخير من حكم الفراعنة ، وهو الشغب الذى وصل فى استمراره إلى درجة مكنت الليبيين من أن يتسللوا إلى العرش المصرى ليصبحوا فراعنة مصر فى الأسرة الثانية والعشرين على سبيل المثال (١٥٧).

والشىء ذاته ينطبق على اتجاه البطالمة نحو السيطرة على منطقة النوبة وشمالى السودان . حقيقة إن هـــذه المنطقة تشير إلى الطريق نحو أواسط أفريقية وإلى القسم الشرقى من أواسط هذه القارة حيث تمتد الطرق الملاحية إلى الهند مع ما يعنيه هذا من واردات من بينها التوابل والعطور والذهب والفضة والأحجار الكريمة ، مارا بالحبشة وبسواحل شبه جزيرة العرب لتسير عبر الطرق البحرية والصحراوية والنيلية فى مصر ، ثم تتجمع أخيرا فى الاسكندرية ليعاد توزيعها من هناك على شواطىء القسم الشرقى للبحر المتوسط . وحقيقة أن منطقه النوبة كانت تنتج قدرا من الذهب ـ وان كان ضئيلا . ولكنى لا أعتقد أن هذا الاعتبار كان هو الوحيد الذى دفع البطالمة إلى بسط نفوذهم على هذه المنطقة اذ لا نستطيع أن نغفل العنصر الدفاعى وراء سياسة البطالمه هناك . فالحدود الجنوبية لمصر ، تماما مثل الحدود الغربيـــة ، كانت منطقه شغب بالنسبة للحكام المصريين فى أكثر من مناسبة .

وستظهر لنا فترة أخرى من فترات التاريخ المصرى ، وان كان فترة لاحقه للعهد البطلمى ، أن الشغب الذى كانت تتعرض له مصر على

---

(١٥٧) Drioton et Vandier : L'Egypte, pp. 522. sq.

حدودها الجنوبية لم يكن أمراً عارضا وانما تكرر ظهوره فى أكثر من عهد . ففى بداية الفترة التى خضعت فيها مصر للحكم الرومانى نرى القوات الأثيوبية تقوم بعدة مناوشات على تلك الحدود يضطر معها كورنليوس جالوسى ، أول ولاة أغسطس على مصر ، إلى أن يوجه جهوده العسكرية إلى هذه المنطقة بشكل جدى ينتهى بوضع المنطقة الواقعة جنوبى الشلال تحت إمرة حاكم يدين بمنصبه وبولائه لرومه ، وبقبول الإثيوبيين للحماية الرومانيه . بل إنه مما يدل على مقدار الشغب الذى كان لا بد أن تنتظره أية حكومة لمصر من هذه الناحية أن القوات الأثيوبية عادت مرة أخرى لمناوشتها على حدود مصر الجنوبية فى ٢٥ ق.م. ولما تمضى على التسوية المذكورة أربع سنوات مما أضطر الوالى الجديد لمصر ، بترونيوس ، إلى أن يعيد مطاردة الإثيوبيين وأن يتخذ عددا من الاجراءات لحماية هذه الحدود — وهى إجراءات لم تكف لردع الأثيوبيين ، وكان لا بد أن تتلوها ، بعد سنتين ، إجراءات أكثر صرامة قبل أن تستقر الحدود بصفة نهائية (١٥٨) .

وما يقال عن منطقة النوبه ينطبق فى صورة أكثر وضوحا على سوريه فقد كانت لهذه المنطقه هى الأخرى أهمية اقتصادية لا جدال فيها سواء كمصدر للاخشاب التى كان البطالمه فى حاجة ماسة اليها لبناء الاسطول

---

(١٥٨) Dio Cassius, LIV, 5, 4 ; O. C. I. S. III, راجع : C.A.H., X, 240 sq. راجع التعليق على بعض النصوص فى:
عبد اللطيف أحمد على: مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، صفحات ٦١ - ٦٢

اللازم لفرض سيادتهم البحرية فى القسم الشرقى للبحر المتوسط ، فى وقت انتقل فيه مركز الثقل السياسى إلى هذه المنطقة ، أو كسوق تجارية لمصر كما يظهر لنا جليا فى أواسط القرن الثالث ق.م. حين نرى أبولونيوس ، وزير مالية بطلميوس فيلادلفوس يرسل فى ٢٥٩ ق.م ، فى أعقاب فتح فلسطين ، وفدا من التجار يجوبون منطقة جودايه مستخدمين فى ذلك كل وسائل المواصلات الممكنة بما فيها العربات والخيل والبغــال والحمير وحتى الجمال .

ولكن مع ذلك فهذا العامل الإقتصادى وحده لا يكفى لتفسير اتجاه البطالمه التوسعى فى هذه المنطقة - وهو إتجاه يدل على اصرار عنيد على الاستيلاء عليها بأى ثمن وبغض النظر عما يمكن أن يؤدى اليه من نتائج . ولنأخذ كمثال لهذا الإصرار موقفا أو موقفين أتخذهما بطلميوس الأول من هذه المسألة . فقد حاول بعد وفاة الاسكندر بفترة قصيرة أن يشترى إقليم الغور (Koile Syria) الواقع فى الجزء الجنوبى من سورية من واليه لاودمون ، ولكنه لم ينجح فى ذلك فاستولى على الاقليم بالقوة فى عام ٣١٩ - ٣١٨ منتهزاً فرصة ضعف السلطة المركزية فى الامبراطورية عقب وفاة انتيباتروس الذى كان وصيا على العرش الامبراطورى . وفى ٣٠١ عندما سيطر سليوقوس على سورية نجد بطلميوس يعيد احتــلاله لهذه المنطقة (وكان قد فقدها فى أثناء فترة الصراع بين قواد الاسكندر) أثناء اشتباك حلفائه (كسندرس وليسيماخوس وسليوقوس) مع ديمتريوس بن أنتيجونوس للقضاء بصفة نهائية على قوته . كما نجده يرفض النزول عنه

بعد ذلك رغم ما كان هذا الموقف ينطوى عليه من خطر الاشتباك مع سليوقوس الذى احتج نملا على ذلك وان كان لم يقم بعمل عسكرى إيجابى ضد بطليموس لظروف لا تعنينا فى هذا المقام (١٠٩).

على أن موقع سورية كخط دفاعى طبيعى لمصر يمكن أن يفسر لنا بشكل معقول ومقبول هذا الاصرار الذى أشرت اليه . وقد قدر لبطلميوس الأول نفسه أن يقدر هذا الموقع على حقيقته فى الفترة التى كان لايزال فيها فى موقف الدفع والجذب مع منافسيه وزملائه السابقين من قواد الاسكندر فى موقعة غزة عام ٣١٢ ق. م. حقيقة أن بطلميوس كان فى الجانب المنتصر فى هذه الموقعة ، ولكنه مع ذلك قدر دون شك أن أطماع هؤلاء المنافسين من الممكن أن تصل إلى هذه المنطقة ومن ثم يجب أن تكون سورية ، أو على الأقل الجزء الجنوبى منها ، خطا دفاعيا طبيعيا للدولة التى كان بسبيل إقامتها فى مصر . وقد ظهر فعلا صدق هذا التقدير فى ٢١٧ ق.م. فى عهد بطلميوس الرابع حين اشتبك مع السلوقيين فى موقعة دفاعية عند رفح . وقد أظهر حرصه على الانتصار فيها بأى ثمن مدى أهمية هذه المنطقة كخط دفاعى عن مصر لا يمكن إغفاله أو الاستغناء عنه . ولن تكون هذه الموقعه هى الاحتكاك الأخير بين الدولتين المتناحرتين على الحدود المصرية السورية ، فسنرى فى أثناء الكلام عن المرحلة الثانية من مراحل السياسة الخارجية البطلمية كيف أن الخطر السلوقى تجدد فى أكثر من مناسبة ليثبت مرة بعد أخرى مدى أهمية هذا الخط الدفاعى على الحدود الشمالية الشرقية لمصر .

أما عن الأماكن الواقعة إلى شمالى مصر فى القطاع الشرقى من البحر

(١٠٩) Diod. XXI, 1'5

المتوسط والتى ينطبق عليها التفسير الاقتصادى الذى قدمه روستوفتزيف انطباقا واضحا ، على أساس أنها تضم ضمن نطاقها الطرق التجارية البحرية المؤدية إلى مصر ، كما تضم المناطق التى كانت تأتى منها إلى مصر الموارد التى يحتاج اليها البطالمة - نقول أن هذه الأماكن رغم ميزاتها هذه الاقتصادية الواضحة ، تشير ، إلى جانب ذلك ، إلى السياسة الخارجية الدفاعية التى نحن بصدد التدليل عليها ونظهرها فى أوضح صورها . فقبرص مثلا التى أدخلها البطالمة فى حيز نفوذهم ، يجب ألا ننسى أنها كانت فى يوم من الأيام نقطة اشتباك عسكرى ذاق فيها بطلميوس مرارة الهزيمة حين قضى غرماؤه فى سلاميس (الواقعة بها) على أسطوله فى ٣٠٦ ق.م. وهكذا أصبحت هذه الجزيرة تمثل فى ذهن مؤسس الدولة البطلمية وفى ذهن خلفائه من بعده ، نقطة انطلاق لخطر هؤلاء الغرماء ، ومن ثم يجب أن تصبح نقطة ارتكاز دفاعية أمام نواياهم التوسعية .

والاتجاه ذاته يفسر لنا موقف البطالمة من كريت . حقيقة إن هذه الجزيرة لم تحدث فيها معركة مشابهة لتلك التى وقعت فى قبرص ولكن مركزها قرب الطرف الجنوبى لبلاد اليونان ، حيث منطقة نفوذ الأنتيجونيين فى مقدونية ، جعل البطالمة ينظرون اليها كحد يجب ألا يتعداه هذا النفوذ . وقد أثبتت الأيام أن الأنتيجونيون يشكلون خطرا حقيقيا على مصر ، حين تحالف أحد ملوكهم (فيليب الخامس) مع الملك السلوقى أنطيوخوس الثالث على احتلال مصر فى عهد بطلميوس الخامس ، بقصد اقتسامها فيما بينهما كما سنرى فى الأحاديث القادمة .

ولعل خير ما يثبت السياسة التوسعية الدفاعية التى انتهجها البطالمة فى هذا القطاع ، أن البطالمة رغم حرصهم الشديد على مد نفوذهم إلى هذا الخط الدفاعى الذى يصل بين قبرص شرقا وكريت غربا ، فإننا نجد هذا الحرص يكاد ينعدم فيما وراء هذا الخط من ناحية الشمال . وقد رأينا فيما سبق كيف أن بطلميوس حاول إحياء حلف كورنثه (فى بلاد اليونان) تحت زعامته حوالى ٣٠٩-٣٠٨ ق م. ، فلما أخفق فى ذلك أمام خطط كسندروس عاد إلى مصر ولم يطرق هذه المحاولة مرة أخرى .

الباب التاسع

المرحلة الثانية : التدخل الرومانى

١ ـ الظروف الدولية بعد رفح

المرحلة الأولى فى السياسة الخارجية لمصر فى عصر البطالمة كانت ، كما رأينا ، مرحلة توسع وصمود ، ابتدأها مؤسس هذه الأسرة منذ أن أصبح حاكما على مصر ، وحتى قبل أن يعلن نفسه ملكا عليها ، بمحاولات دائبة لمد نفوذ دولته الجديدة وتوسيع دائرة سيطرتها بكل طريقة وبأية طريقة ، رغم ما تعرض له فى سبيل تحقيق هذا الهدف من صعوبات بلغت فى بعض الأحيان حد الانتكاسات . وقد استمر هذا الاتجاه فى عهد خلفيه الأول والثانى ، وإذا كان اتجاه التوسع قد توقف فى عهد بطلميوس الرابع ، ثالث هؤلاء الخلفاء ، فإن موقف الصمود الذى ميز موقف أسلافه فى ميدان السياسة الخارجية قد استمر فى عهده وكانت موقعة رفح تجسيدا واضحا لهذا الصمود .

ولكن عام ٢١٧ الذى شهد هذه الموقعة كان يمثل الحد الذى وقفت عنده سياسة التوسع والصمود ، وبعدها بدأت فترة ركود مصرى فى المجال الدولى لم يلبث فيها المد التوسعى أن أخذ فى الانحسار . وهكذا بدأت فترة التدهور الذى ميز المرحلة الثانية من مراحل السياسة المصرية الخارجية فى عهد البطالمة . وقد بدأت مظاهر هذا الركود ثم التدهور تبدو واضحة قبل أن ينتهى عهد بطلميوس الرابع، فان هذا الملك الذى

ألمته حياة العبث والمجون وشلت حركته ثورات المصريين الذين أعاد لهم في رفح ثقتهم في أنفسهم ، لم يلق بالا إلى التيارات التي كانت قد بدأت تتحدد اتجاهاتها بشكل واضح في المجال الدولي بعد هذه الموقعة ، وتنذر بارتطام لابد أن يؤدي إلى تغيير كبير في المنطقة .

وقد كان أول هذه التيارات مصدره سورية التي أخذ ملكها ، أنطيوخوس الثالث ، يبذل جهودا فائقة ليعيد بناء أمبراطوريته بعد أن يسترد الممتلكات السلوقية في آسيه الصغرى وفي أواسط آسية ، ويتأهب في أثناء ذلك للثأر لهزيمته في رفح وتقويض أركان الإمبراطورية البطلمية . أما التيار الثاني فقد كان مصدره مقدونية التي كان ملكها فيليب الخامس يبني هو الآخر قوته ، ويمد نفوذه في المنطقة المتأغرقة ، ويتجه بأطماعه كذلك إلى الممتلكات المصرية . وأخيراً فقد كان مصدر التيار الثالث هو رومه ، القوة الجديدة الصاعدة على الحدود الغربية للعالم المتأغرق ، والتي كانت قد قاربت تدعيم سيطرتها الكاملة في غربي البحر المتوسط ، وبدأت تنظر إلى حفظ التوازن الدولي في القسم الشرقي لهذا البحر على أنه أمر جوهري وحيوي للابقاء على كيانها الدولي وعلى مصالحها .

وفي الواقع فان البطالمة إذا كانوا قد عرفوا الاحتكاك الذي وصل في بعض الأحيان إلى الصدام مع القائمين على الأمور في سورية وفي مقدونية ، وإذا كانت الظروف الجديدة بعد رفح ستؤدي إلى أن تصبح رومه بالتدريج عنصرا ظاهرا في البداية ، ثم مسيطرا بعد ذلك ، في توجيه السياسة المصرية ، فان هذا لا يعني أن البطالمة لم يحتكوا برومه قبل هذه المرحلة . فقد ابتدأت العلاقة بينها في وقت مبكر يرجع إلى الشطر الأول

من القرن الثالث ق. م. فى ذلك الوقت كانت رومه قد انتهت إلى حد ما من تدعيم قواتها فى شبه الجزيرة الايطالية وبدأت أول احتكاك جدى لها مع العالم المتأغرق ، حين اشتبكت مع بيروس Pyrrhos (ملك إبيروس) فى صراع امتد ست سنوات وانتهى فى ٢٧٥ ق. م بخروج رومة ظافرة لتصبح ، لأول مرة قوة معترفا بها فى البحر المتوسط . وقد كان ضمن من اعترفوا بهذه القوة الجديدة بطلميوس فيلادلفوس ملك مصر فى ذلك الوقت ، الذى كان يرقب دون شك هذا الصراع بين الدولة الناشئة والملك المتأغرق ، فقد أوفد إلى رومة سفارة فى ٢٧٣ ق م. كما أرسل مجلس الشيوخ الرومانى بدوره سفارة إلى مصر ، وكانت نتيجة هذا التبادل عقد اتفاق بين مصر وروما ، ورغم التفسيرات العديدة التى أعطيت لهذا الاتفاق وسواء أكان الغرض منه تجاريا أو كان فيلادلفوس يرمى من ورائه إلى كسب سياسى مباشر أو غير مباشر ، فان العلاقة التى قامت بين البلدين إذ ذاك والتى امتدت حتى فرغت رومة من حروبها مع قرطاجه لم تتعد الحدود الضيقة للتعامل التجارى والاعتراف السياسى المتبادل (١٦٠) .

ولكن رومه ، بعد أن تخلصت من الخطر القرطاجى فى موقعة زامه Zama (٢٠٢ ق. م.) ، واطمأنت بذلك بعض الشيء لمركزها فى غربى

---

(١٦٠) عن السفارة التى أرسلها فيلادلفوس: Liv, xlll p , l sq. عن مغزى السفارة راجع : Rostovtseff: Sac. & Econ. Hist. of the Hell. world, I, 395 :. Bouché - Leclercq. op. cit., I,319
محمد عواد حسين : نشأة المسألة المصرية فى السياسة الرومانية (المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ ، عدد ١ ، ١٩٥١) ص ١ .

المتوسط ، لم تلبث أن وجهت اهتمامها لمعالجة الوضع الناجم عن الأطماع المتضاربة لحكام سورية ومقدونية ، الذين رأيناهم يتحفزون لابتلاع ممتلكات مصر والسيطرة على النصف الشرقى للبحر المتوسط . وهكذا وجدت روما نفسها مدفوعة ، فى سبيل المحافظة على قوتها الجديدة ، إلى التدخل لوضع حد لنشاط هؤلاء الحكام - وتحت هذه الظروف ، ونتيجة لها ، بدأت مصر تعرف روما ، لا كنظير يقف منها على قدم المساواة كما كان الحال منذ اتفاق فيلادلفوس ، ولكن كقوة كبرى لها صفة جديدة ووضع جديد :

٢ - بداية التدخل الرومانى فى شئون مصر

على أن هذه العلاقة الجديدة بين مصر وروما ، التى شهدت بداية التدهور السياسى المصرى ، والتى قادت فى النهاية إلى فتح الرومان لمصر ، كما تقود المقدمة إلى النتيجة ، لم تتخذ فى مرحلتها الأولى سوى شكل سلبى، فروما لم تتدخل فى شئون مصر إلا لتحد من أطماع واحد أو أكثر من أعدائها حين كان مجلس الشيوخ الرومانى يجد فى مد هذه الاطماع عبر حدود مصر أو أملاكها ما يؤدى إلى تضخم قوة أحد حكام العالم المتأغرق ، وبالتالى إلى اضطراب التوازن الدولى فى هذه المنطقة ، مما يعرض نفوذ روما للخطر من الشرق . فاذا لم يكن هناك خطر خارجى على مصر لم تتدخل روما إلا حين يثور النزاع الأسرى على العرش بين أفراد البيت الحاكم البطلمى (وما أكثر ما كان يثور فى ذلك الوقت)، وحتى فى فض هذا النزاع نجد أن تدخل روما يحتفظ بشكله السلبى فتجتزىء منه روما بإقرار الأمور فى مصر لكى لا تتعرض للذبذبات

الناجمة عن محاولات التضخم السياسى فى هـذه المنطقة ، حتى إذا فرغت من فض النزاع الذى دعت من أجله تركت مصر وشأنها حتى يثور طرف آخر يستدعى تدخلها .

وقد بدأ هذا التدخل فى ١٩٠ ق.م. ففى السنة السابقة لهذا التاريخ وجد بطلميوس الخامس (إبيفانيس) Epiphanes نفسه يواجـه تهديدا مزدوجا ، إذ كان انطيوخوس الثالث ، الملك السلوقى ، وفيليب الخامس ملك مقدونية قـد اتفقا فيما بينهما على اقتسام أملاك مصر ، وأمام هـذا الخطر المحـــدق بمملـكته بعث الملك البطلمى إلى رومه يستعديها على أنطيوخيوس ودعم رسالته بهـدية من القمح والمال وبعرض يضع بموجبه موارد مصر تحت تصرف رومة . وقد رفضت رومة العرض والهدية ، ولـكنها بانتصارها على القـوات السلوقية فى موقعة ماجنيسيه Magnesia فى ١٩٠ وبمعاهدة أباميه Apamia بعدها بسنتين استطاعت أن تستذل كلا من انطيوخوس وفيليب واصبحت المتصرفة فى شئون الشرق بما فى ذلك مصر(١٦١) . حقيقة إن رومه لم تجن كسبا ماديا سواء فى مصر أوخارجها ولـكن الدعوة التى وجهها اليها ملك مصر والموقف الحاسم الذى وقفته رومه من اعدائه ، وان كان أولا وآخراً لصالح النفوذ الرومانى فى الشرق إلا أنه وضع مصر فى وضع التابع من رومة .

على أن موقف بطلميوس الخامس لم يـكن إلا الحلقة الأولى من سلسلة المواقف التى ربطت مصر بصفة نهائية بعجلة النفوذ الرومانى ،

---

(١٦١) Polyb.: III, 2; xIII, 1. 3, xv. 20 ; Bevan: op.cit, 273 : M.Cary A Hist. of Rome, 195 - 203

ففى عهد خلفه بطلميوس السادس philometor ، يتكرر الموقف السابق مع اختــلاف طفيف فى التفاصيل . فحين يحاول ملك مصر استرداد الاملاك المصرية فى فلسطين يرد عليه انطيوخوس الرابع بدخول مصر ومحاصرة الاسكندرية (١٧٠ - ١٦٨ ق.م.) وهنا ، مرة أخرى ، يستنجد الملك البطلمى بروما ويتدخل مجلس الشيوخ الرومانى بصورة حاسمة فيرسل مبعوثه بوبليوس لايناس C. Popilius Laenas ليفض هذا الموقف الذى قد يؤدى إلى تقوية نفوذ الملك السلوقى على حساب النفوذ الرومانى . ويقـال فى هذا المجـال إن مبعوث مجلس الشيوخ حين أمر أنطيوخيوس بالانسحاب من مصر فورا ، رسم بعصاه دائرة حول المكان الذى يقف فيه هذا الملك وطلب إليه أن يعطيه جوابا قاطعا بالموافقة أو الرفض قبل أن يخطو خارج هذه الدائرة (١٦٢) . وسواء أصحت هـذه الرواية أم قصد بها القاء ضوء مسرحى على الموقف الحاسم الذى وقفته رومه ، فقـد أنسحب أنطيوخوس من مصر وبذلك أصبح الملك المصرى مدينـا بعرشه لرومه .

ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد الذى دعم من نفوذ رومه فى مصر فى عهد هذا الملك ، فقد ثار موقف آخر حين تنازع بطلميوس السادس مع اخيه الاصغر بطلميوس السابع على العرش ، وحاول كل منهما أن يحصل على تأييـد مجلس الشيوخ الرومانى لـكى ينفرد بالحـكم . ففى ١٦٤ يسافر الأخ الأكبر إلى رومه ويحصل على تأييد منها بأن تـكون له مصر

---

(١٦٢) Lv.XLV, 12, Polyb.: XXIX 27, Diod : XXXI 2.

وكل الممتلكات المصرية خارج الحدود ، وفى السنة التالية يسافر الأخ الأصغر بدوره ويقنع مجلس الشيوخ بتعديل قراره السابق وتنصيبه ملكا على قبرص (احد الممتلكات المصرية) . ولكن روما فى موافقها هذه لاتدعم تأييدها بأية مساعدة مادية لأحد الاخوين ، وهكذا يستمر النزاع بينهما ويتكرر ذهاب كل منهما إلى رومه طالبا العون والتأييد ومبرهنا على ولائه لها بشتى الطرق ، ويتكرر تبعا لذلك موقف رومه من تأييد هذا مرة وذاك مرة أخرى دون أن تحسم النزاع بشكل نهائى . وواضح أنها كانت ترمى من وراء ذلك إلى ترك الامر على ما هو عليه مادام لايسبب متاعب حقيقية لنفوذها فى الشرق ، وربما كانت ترى كذلك فى استمرار هذا النزاع ما يزيد من تدعيم نفوذها على أساس نظرية فرق تسد divide et impere التى بلورها الرومان إلى حد كبير .

ولعل خير مثال يدل على مدى اندفاع الحكم المصرى إلى فلك النفوذ الرومانى فى تلك الفترة هو الوصية التى كتبها بطلميوس السابع فى ١٥٤ ليوصى فيما بملكه فى برقه Kyrene للشعب الرومانى إذا توفى لأى سبب دون أن يترك وريثا لعرشه (١٦٣) .

أما التدخل الذى أعقب ذلك فقد حدث فى ظروف يمكن أن نعتبرها إلى حد كبير امتدادا لظروف التدخل السابق ، وإن كان التدخل نفسه قد بدأ يأخذ فى هذه المرة طابعا ينبىء بأن مرحلة التدخل السلبى الذى درجت عليه

---

(١٦٣) U. Wilcken : Urkunde der Ptolemaïerzeit, I, 188, Bevan : op. cit., 291 M.N.Tod : Greece and Rome, II, 47 sq.

رومه حتى الآن قد استنفدت غرضها من مجرد حفظ التوازن السياسى فى هذه المنطقة ، وأن مرحلة أخرى من التدخل تتسم بطابع آخر مختلف قد اصبحت وشيكة البدء . فى هذه المره يثور النزاع الاسرى مرة أخرى بين أفراد الأسرة البطلمية ، فبطلميوس السابع لم يكد يخلو له الجو بوفاة اخيه الاكبر الا ليواجه منافسة أميرتين من أعضاء البيت المالك ، وهنا تقوم رومه مرة أخرى ، أمام بعض الشكاوى التى وصلت اليها من منافستى الملك ، بتكليف احد مبعوثى مجلس الشيوخ إلى المنطقة الواقعة فى شرق المتوسط ، وهو سكيبيو ايمليانوس Scipio Aemilianos بفصل الامر بين المتنازعين .

وحقيقة أن موقف سكيبيو من هذه المسألة لن يتعدى بعض المعاملة الجافة مع بطلميوس ليظهر له أن رومه غير مرتاحه إلى موقفه . بينما يترك الأمر ليسويه المتنافسون فيما بينهم بطريقتهم الخاصة ، ولكن عاملا جديدا سيميز موقف روما هذه المره عن مواقفها السابقة . فالزيارة التى قام بها سكيبيو إلى مصر لم تكن لمجرد فض النزاع بين الامراء المصريين ، ولكنها كانت جزءاً من جولة كلفه بها مجلس الشيوخ ليتفقد احوال الممالك الواقعة فى شرق البحر المتوسط ، وهو حين يزور مصر لا يكتفى بمجرد إبلاغ رغبة مجلس الشيوخ الرومانى فيما يخص النزاع الاسرى البطلمى ، ولكنه يعاين الاسكندرية بمينائها ومنـــارتها ، ويركب النيل حتى منف ويرى الحقول الغنية بالمحصول والعدد اللانهائى من القرى والمدن الريفية التى تتكتل بين الحين والحين عبر هذه الحقول ، وهو فى اثناء ذلك لابد سيقدر القيمة الاقتصادية لتجارة الاسكندرية ولنتائج حقول الدلته ، وسيدرك كيف احسن بطلميوس الأول الاختيار حين اتخـــذ مصر قاعدة لملكه ومركزا لنشر نفوذه فى شرق

المتوسط ، وكيف يمكن أن تصبح مملكة البطالمة موردا هاما من موارد الامبراطورية الرومانية وقاعدة لحفظ نفوذها فى الشرق (١٦٤).

٣ — تزايد التدخل الرومانى فى شئون مصر

الحلقة الثانية من تدخل رومه فى شئون مصر يشغل أغلبهـــا حكم بطلميوس الحادى عشر Auletes الذى قضى كل فترة حكمه (٨٠ - ٥١ ق.م.) يدافع عن عرشه مرة أمام عدم اعتراف رومه به ومرة أمام ابنته بيرينيكى الرابعة التى كانت تطمع فى هذا العرش ومرة أمام الشعب السكندرى الذى ناصبه العداء فى أكثر من مناسبة ، أما الجزء الباقى فيشغله حكم بطلميوس الثانى عشر وبطلميوس الثالث عشر والقسم الأول من حكم كليوباتره السابعة ، التى قدر لها فى نهاية حكمها أن تلعب أهم دور فى علاقة مصر برومه .

وقد ميز هذه الفترة من التدخل الرومانى فى شئون مصر ، عدد من العوامل التى لم تظهر فى خلال المرحلة السابقة . أول هذه العوامل هو أن المسألة المصرية بدأت تظهر بشكل واضح فى السياسة الرومانية ، إذ بدأت تدخل كعنصر هام فى برامج الاحزاب المتصارعة على الحكم داخل رومه ، كل يحاول أن يكون له السبق فى الاستيلاء عليها بينما يعمل جاهدا على إحباط مساعى الحزب المناوىء فى هذه السبيل . والسبب فى ذلك مزدوج

---

(١٦٤) Justin. : XXXVIII, 8, 8; Athen.: XII, 549 - 50 ; Diod. : XXXIII, 28 : راجع تعليقات - Bevan;op. cit., 310; Bouché Leclercq, op. cit., II, 86; Cary: op. cit., 224

فالفترة التى نحن بسبيل الحديث عنها كانت تشهد تطوراً سريعا فى الاتجاه السياسى فى رومه علا فيه نجم القواد العسكريون ، بعد أن أصبح توسيع حدود الامبراطورية والمحافظة على هذه الحـــدود رهنا بكفاية هؤلاء القواد ، وقد كان من الطبيعى تحت هذا الظروف أن يدرك هؤلاء القواد قيمة كفاياتهم الحربية فى مجال مد النفوذ السياسى لرومه ، ولم يمض وقت طويل قبل أن يبدأوا فى استغلال المجد الذى يكسبونه فى ميدان القتال كدعامة يقوم عليها ظهورهم السياسى داخل رومه ، وبخاصة إذا عرفنا أن سيطرتهم على جنودهم كانت تامة ، إذ كانت التعبئة العسكرية فى رومـــه تقوم أساسا ، فى تلك الفترة ، على التطوع ، وكان تمويل القوات المتطوعة ، سواء فى أثناء جمعها أو من حيث تكاليفها فى الميدان أمرا يقع على عاتق القائد بصفته الشخصية ، وليس على عاتق الدولة [١٦٥] ، وهكذا انتقل ولاء الجندى من الدولة إلى القائد ، وتحت هذه الظروف أصبح ضم دولة مثل مصر إلى ولايات الامبراطورية عملا يحقق المجد العسكرى للقائد الذى يقوم به كما يؤدى إلى التفوق السياسى له وللحزب الذى ينتمى اليه . أما السبب الآخر فهو أن ثروة مصر ومواردها ستصبح دون نزاع دعامة اقتصادية من الطراز الأول للحزب الذى يتيسر له الاستيلاء عليها ، كما لا بد أن يؤدى تدفق هذه الثروة وهذه الموارد إلى رومه إلى إنعاش الحالة الاقتصادية فى المجتمع الرومانى عموما .

---

(١٦٥) الذى قام بادخال هذا النظام فى القوات العسكرية الرومانية هو ماريوس Marius فى أواخر القرن الثانى ق م.

فى هذه الظروف إذن بدأ الصراع بين الاحـــزاب الرومانية على الاستيلاء على مصر ، وبدأ زعماء هذه الاحزاب فى اختلاق الأعـــذار وترتيب المناورات للوصول إلى ذلك . وسأجتزىء لتصـوير هذا الوضع بذكر محاولتين للحزب الديمقراطى فى هذا المجال وقد ظهر فى المحـاولتين يوليوس قيصر كأحد زعماء هذا الحـزب ، وكان يرمى من ورائهـما إلى موازنة الظهور العسكرى والسياسى الذى وصل اليه قائد آخـــر هو يومبيوس Pompeius ، بعد أن وصل نفوذ هذا الأخير إلى درجة هائلة عندما أعطى سلطة غير عادية مرة فى ٦٧ ق م. للقضاء على خطر القراصنة الذين كانوا يهددون مصالح رومه فى شرق البحر المتوسط ، ومرة أخرى فى السنة التالية لقيادة الحرب ضد مثراداتيس الذى كان يهدد نفوذ رومه فى الشرق(١٦٦) .

وفى المحاولة الاولى نجد الحزب الديموقراطى يتقدم عن طريق المناورات الدستورية باقتراحين يقضى أولهما بفرض جزية على مصر لمواجهة النفقات التى تتـكلفها رومه فى حربها ضـد مثراداتيس ، بينما يقضى الآخر بمنح يوليوس قيصر سلطة استثنائية ليقوم بتنظيم ولاية مصر الرومانيـــة ، معتمدين فى ذلك على أن مصر قد أصبحت ، من الناحية القانونية ، ولاية رومانيـة ، بمقتضى وصية كان قد تركها بطلميوس العـاشر يوصى

---

(١٦٦) يجد القارىء العربى تفصيلا لظروف إعطاء بومبيوس هاتين السلطتين فى: عبد اللطيف احمد على : التاريخ الرومانى ، عصر الثورة ، صفحـات ١٢٤ — ١٢٦

فيها بمصر بعد وفاته للشعب الروماني (١٦٧) . وحين استطاع شيشرون ، وهو إذ ذاك من أنصار بومبي وحزب المحافظين ، أن يحبط هذه المحاولة ، حاول الديموقراطيون أن ينفذوا خططهم مرة أخرى بأن يقدموا فى ٦٤ ق. م. مشروع قانون زراعى مؤداه أن تنشأ مستعمرات لعامة الرومان فى الأراضى الصالحة للزراعة داخل إيطالية ، فاذا لم تكف هذه ، فتشترى لهذا العرض مساحات أخرى من الأراضى الخاصة ، على أن يحصل المال اللازم لذلك عن طريق بيع أجزاء من الأملاك الرومانية الواقعة خارج إيطالية . ورغم البراءة الظاهرة لهذا المشروع الذى أوحى به قيصر ، فقد هاجمه حزب المحافظين مرة أخـــرى على لسان شيشيرون الذى أظهر فى لباقة سياسية فائقة أن حدود هذا المشروع تتسع فى الحقيقة ، لتشمل ممالك بأكملها مثل بيثنيه والاسكندرية ومصر، (١٦٨) .

* * *

(١٦٧) عن الاقتراحين أنظر Plut: Crassus, 13, Suetonius) Caesar,xl
راجع التعليق على ما ذكره سويتونيوس فى :
محمد عواد حسين : نشأة المسألة المصرية ...الخ ، ص ، ١٥ ، حاشيه ٢ .
عن الوصية واحتمال أنها كانت مزيفة راجـع : عبد اللطيف أحمد على :
مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، ص١٣ ، كذلك:
Volterra: Le Testament de Ptolemée Alexandre II Roi d Égypte (Bulletin de l'Inst Fr. d. Arch. xxl)

(١٦٨) كان الرومان ينظرون إلى الاسكندرية على أنها كيان قائم بذاته ومن هنا تسميتهم لها Alexandria ad Aegyptum أى الاسكندرية المجاورة لمصر. قام بتقديم المشروع للمناقشة نقيب العامة Servilius Tullus عن رد شيشرون على المشروع أنظر : Cicero : Leg. Agr عن مناقشة المشروع والتعليق عليه راجع : محمد عواد حسين : نفسه ، صفحات ١٦ - ١٨ ، كذلك : عبد اللطيف أحمد على نفسه ، صفحات ١٥٥ - ١٥٨ .

والعامل الثانى الذى ميز هذه الفترة هو التدخل العسكرى الرومانى فى مصر . حقيقة إن التدخل لم يكن سياسة رئيسية موجهة من جانب رومة ، بل كانت تغلب عليه النزعة الفردية ، بحيث يمكن اعتباره مجرد مغامرات شخصية متفرقة لغرض عسكرى أو سياسى ، وحتى مع هذا فلم يكن الدخول فى مصر فى كثير من كثير من هذه المغامرات مقصودا لذاته ، وإنما كان يتم كجانب من خطه تهدف إلى غرض آخر أوسع . ولكن رغم كل ذلك كان هذا التدخل العسكرى سابقة أشارت دون شك إلى طرق جديدة يمكن أن تسلكها رومة فى علاقتها مع مصر ، وجعلت مسألة التدخل المسلح مسألة لا تحتاج بعد ذلك إلى دفع وجذب كثيرين من الأحزاب . ومن أمثلة هذا التدخل ما حدث فى ٥٥ ق. م. حين وجد بطلميوس الحادى عشر ابنته بيرينيكى الرابعة تنازعه عرشه بعد أن نصبها السكندريون ملكة على مصر فى غيابه . لقد طلب بطلميوس إلى جابينيوس الحاكم الرومانى لسورية ، أن يتدخل ليعيده إلى عرشه واستجاب جابينيوس لطلبه ، فزحف على مصر واحتلها لحساب الملك المصرى المخلوع فى ربيع العام نفسه ، وإن كان عمله هذا لم يمض دون مؤاخذة شديدة من جانب السلطات فى رومة (١٦٩) .

ولم يكن تدخل جابينيوس على هذا النحو هو المثال الوحيد لهذا الاتجاه العسكرى الجديد ، فقد كانت مصر مسرحا لتدخل جديد فى ٤٧ ق . م . حين كان قيصر بسبيل مطاردة بومبيوس ، خصمه السياسى . لقد احتمى بومبيوس فى مصر وكان لا بد لقيصر أن يدخل بقواته ليأسر غريمه :

---

(١٦٩) Opseph.: Antica Jud., xlv, 6,2

وحقيقة إن پومپيوس أغتيل قبل أن يقع فى يد قيصر ، ولكن هذا الأخير لم يلبث أن وجد نفسه يخوض معركة مع القوات المصرية عرفت باسم حرب الاسكندرية Belluw Alexandrinum انتهت بانتصار قيصر ومقتل الملك المصرى ، وإن كان قيصر قد اكتفى من هذا النجاح العسكرى بأن نصب على عرش مصر اثنين من أمراء البيت البطلمى كان يعتقد فى ذلك الوقت أنهما على قدر كبير من الولاء له ولروما ، وهما كليوباترة السابعة وأخوها الأصغر بطلميوس الرابع عشر (١٧٠) .

اما المثال الثالث للتدخل العسكرى فقد تم بعد ذلك بستة أعوام حين دعت كليوباتره السابعة أنطونيوس لزيارة الاسكندرية وليساعدها ، لقاء معونتها المالية له ، فى القضاء على أختها الصغرى ، أرسينوى ، التى كانت تنافسها على عرش مصر . وكان يوليوس قيصر قد رأى أن يقصى هذه الأميرة عن مصر عندما نصب على عرشها كليوباترة وأخيها ، تفاديا لنشوب نزاع على العرش فأرسلها إلى رومة (حيث عرضت فى موكب النصر الذى أقامه قيصر فى ٤٦ ق. م.) ثم نقلت بعد ذلك إلى معبد إفسوس وهناك لقيت مصرعها بتدبير من أنطونيوس على ما يبدو ، استجابة لرغبة كليوباترة (١٧١) .

* * *

على أن ظهور المسألة المصرية فى السياسة الرومانية والتدخل العسكرى فى مصر لسبب أو لآخر لم يكونا الظاهرتين الوحيدتين اللتين ميزا علاقة

---

(١٧٠) Plut.: Caesar, 49, Dio Cassius : XLII ,34 راجع كذلك :
Cary : op. çit., 404; Bevan: op. cit., 363

(١٧١) Dio Cassius: XLIII, 3; Joseph.: Ant. Jud, xv,4

رومة بمصر فى هــذه المرحلة ، وإنما ظهرت إلى جانب ذلك عوامل أخرى ، فقد بدأت روما تتحين الفرص لتقتطـع أجزاء من الممتلـكات المصرية ثم تحولها بصفة نهائية إلى ولايات رومانية . لقد حدث ذلك فى برقة التى مات ملـكها فى ٩٦ ق. م. بعد أن أوصى بها لرومة ، وقــد أعتدت رومة على هذه الوصية ففرضت نفوذها على برقة وإن لم يتعد هذا فى بداية الأمر الاستيلاء على أراضى الملك وفرض بعض الضرائب ، بينما تركت الأمور الداخلية تسير فى مجراها المعتاد تحت إمرة أحد أفراد البيت البطلمى . ولـكن هذا الوضع لم يستمر ، ففى ٧٤ ق. م. حولت برقة إلى ولاية رومانية وعين لها حاكم رومانى (١٧٢) ، وهكذا انتقلت هذه المنطقة إلى رومة بعـد أن ظل البطالمة يحكمونها مدة ٢٢٦ عاما وأصبح الخطـر الرومانى يربض بصفة دائمة على مسافة ٨٠٠ كيلو متراً غرب الاسكندرية .

ولم يـكن الاستيلاء على برقة هـو الاعتداء الوحيـد على الممتلـكات المصرية ، فقد تـكرر فى ٥٨ ق م. حـين قدم كلوديوس ، أحد أعوان يوليوس قيصر ، مشروع قانون يقضى بأن تصبـح قبرص (وكانت من ممتلـكات مصر) ولاية رومانية . وقد تمت الموافقه على هذا المشروع وأرسل مجلس الشيوخ ماركوس كاتو إلى الجزيرة لـكى يقنـــع ملـكها

(١٧٢) Juslin.: xxxix, 5 , 2، راجع Bevan: op. cit., 332 هذا وكانت مسألة توريث برقة لرومة قـد وردت قبل ذلك فى وصية كتبها بطلميوس يوارجيتيس الثانى (والد الملك الذى نتحدث عنه) حين كان ملـكا على برقة. ولـكن هذه الوصية لم توضع موضع التنفيذ لظروف تتعلق باسترداده عرش مصر وتوريثه برقه لابنه . راجع ترجمة عربية لهـذه الوصية فى : عبد اللطيف على نفسه ، ص ١٠

المصرى بأن يوصى بمملكته لرومة . وقد آثر الملك ، أمام الضغط الرومانى أن يضع حدا لحياته ، وهكذا انتقل جزء آخر من الممتلكات المصرية إلى رومة التى قدمت كسبب لخطوتها هذه أن هذا الملك الثرى لم يظهر فى علاقاته مع الرومان كرماً كافيا (١٧٣) .

* * *

وأخيرا ، وإن لم يكن آخرا ، فقد أخذ الساسة الرومان يدخلون فى اعتبارهم ، فيما يتعلق بمصر ، عنصرا لم يكونوا يعيرونه انتباها كبيرا من قبل - ذلك هو ثروة البيت المالك المصرى . لقد رأينا فى مناسبة سابقة كيف رفضت رومة الهدايا المصرية من القمح والمال وعروض ملك مصر بوضع موارد مملكته تحت تصرف الرومان فى سبيل مساعدته فى وجه الخطر السلوقى المقدونى المشترك الذى كان محدقا به ، أما الآن فقد تغير الموقف تغيرا كليا بحيث أصبح ما كان يرفض بالأمس هو قاعدة التعامل المعترف بها ! فملك مصر لا يتوانى عن بذل الرشاوى الباهظة ليحصل على اعتراف رومة بعرشه ، وأولو الأمر فى رومة ، سواء من القواد أو زعماء الأحزاب السياسية أو أعضاء مجلس الشيوخ ، يخلون فى برامجهم جانبا لهذه الرشاوى ، بل ويطلبونها إن لم تأت من تلقاء نفسها .

لقد حدث ذلك فى ٦٠ ق.م فنى هذه السنة ظفر يوليوس قيصر بمنصب القنصلية وأصبح فى مقدوره أن يستغل ما لهذا المنصب التنفيذى

(١٧٣) يجد القارىء العربى عرضا وافيا لمشكلة قبرص فى : عواد حسين ، نفسه ، صفحات ٢٢ - ٢٥ (المصادر فى ذيل الصفحات) .

الأول فى روما من وزن ، سواء فى معرض المناورات الدوستورية ، أو فى مجال الضغط الأدبى لتحقيق ما كان يهدف إليه من إدخال مصر فى نطاق الامبراطورية الرومانية ، وهنا نجد قيصر يرسل إلى بطليموس أوليتيس يطلب اليه مبلغ ستة آلاف تالنتا ثمنا لا عتراف روما بوضعه كملك لمصر ، ويسارع الملك البطلمى فيدفع المبلغ المطلوب يفتدى به عرشه . وتكون النتيجة هى أن يمرر قيصر ، رغم معارضة الأرستقراطيين ، قانونا فى أوائل السنة التالية تعترف فيه روما بأوليتيس ملكا شرعيا لمصر ، وتدعمه بمعاهدة يصبح بمقتضاها الملك المصرى «حليفا وصديقا للشعب الرومانى» (١٧٤) .

وقد تكرر الوضع مرة أخرى بين ٥٨ - ٥٥ ق. م. حين احتدم النزاع بين أوليتيس وشعب الاسكندرية . فقد ذهب الملك ، الذى كاد يفقد عرشه ، إلى روما ليحصل على التأييد اللازم لموقفه وفى سبيل ذلك وزع على الساسة وأصحاب النفوذ من الرومان كل ما معه من هبات وأموال ، بل واضطر فوق ذلك أن يستدين مبالغ طائلة لكى يتمكن من تقديم هذه الرشاوى . ويمكننا القول أنه نجح بهذه الطريقة فى أن يشترى تأييد أعضاء مجلس الشيوخ جميعا ، حسبما يذكر لنا شيشرون فى دفاعه عن رابيريوس بوستوموس ، أحد الممولين الرومان الذين اقترض منهم الملك المصرى مبالغ كبيرة فى هذه المناسبة (١٧٥) .

ولم تنته هذه الفترة التى غابها أوليتيس عن مصر دون أن تشهد أمثلة أخرى من الرشوة التى أصبحت أحد العناصر الأساسية فى علاقة مصر

---

(١٧٤) راجع : Suetonius: Caesar, 54, Cicero: Ad Attic. II 5-16
Bevan: op. cit., 352

(١٧٥) Cicero: Pro Rab., 3

برومة فى ذلك الوقت . فالملك المصرى الذى استطاع أن يحصل على التأييد السياسى والأدبى من أعضاء مجلس الشيوخ ، لا يلبث أن يتصل بجابينيوس الحاكم الرومانى لسورية على نحو ما فصلت ويقدم له مبلغا باهظا من المال كثمن لمساعدته عسكريا على استعادة عرشه (١٧٦) . وقد أشرت فى مناسبة سابقة إلى المعونة التى قدمتها كليوباترة السابعة إلى أنطونيوس ليساعدها فى التخلص من أختها التى كانت تنافسها على العرش .

(١٧٦) عن التفاصيل راجع : عواد نفسه ، صفحات ٣٨ - ٤١ (المصادر فى ذيل الصفحات) .

الباب العاشر

المرحلة الأخيرة : عهد كليوباتره السابعة

١ — اتجاه جديد فى السياسة الخارجية البطلمية

ثم يأتى عهد كليوباتره السابعة (٥١ - ٣٠ ق.م.) ، آخر حكام البيت البطلمى ، وهو يغطى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل السياسة الخارجية البطلمية . وفى بداية هذا العهد نجد استمرارا لموقف التبعية لرومه ، الذى لمسناه فى المرحلة السابقة ، فيوليوس قيصر هو الذى سيفصل فى مسألة تولى العرش حين يموت بطليموس أوليتيس ، فيضع ابنته كليوباتره وأكبر أخويها على هذا العرش حسب وصية أبيهما ، ويبعد عن مصر أختها التى كانت تنافسها فى الملك . كذلك نجد كليوباترة ، على نحو ما مر بنا ، تلجأ إلى أنطونيوس ، القائد الرومانى ، لكى تتخلص نهائيا من أختها هذه التى كانت كليوباترة لا تطمئن على عرشهـــا طالما بقيت (الأخت) على قيد الحيـاة .

ولكنا مع ذلك نلمس إلى جانب هذا الاتجاه ، إتجاها آخر جديدا مؤداه أن هذه الملكة كانت تهدف إلى ماهو أكثر من مجرد الحصول على اعتراف رومانى بالعرش الذى تشغله . فحين يأتى قيصر إلى مصر لا تكتفى باعترافه بمركزها مع أخيها على عرش مصر ، وإنمـا تحاول أن تكسب قيصر بطريقة جديدة لهدف أبعد من ذلك . فهى تنجب ابنا منه فى ٤٧

ق م. وتعطى هذا الحدث (رغم عدم شرعيته الظاهرة) وضعا شرعيا فتسجل على جدران معبد أرمنت أنها أنجبت هذا الإبن من آمون رع ، بعد أن تبدى لها وخالطها فى صورة يوليوس قيصر - وهو وضع إن دل على شيء ، فعلى اتجاه جديد مؤداه محاولة الارتباط بقيصر ، لتصبح معه على رأس إمبراطورية تكون مصر مجرد ولاية من ولاياتها [(١٧٧)]. فقد كانت كليوباتره تدرك دون شك قوة مركز قيصر ، وهو مركز جعل منه سيدا فعليا لرومه .

ومن المحتمل أن قيصر ، من جانبه كان على اتفاق معها على هذه الرابطة عن طريق الزواج ، فقد اعتبرت كليوباتره نفسها زوجة له بالخطوة التى أقدمت عليها فى معبد أرمنت - وهو أمر كان يضعها فى أكثر من مأزق إذا لم يكن قيصر متفاهما عليه ، أو على الأقل راضيا عنه ، كذلك فان مؤرخا واحدا على الأقل يذكر أن قيصر أعترف بأبوته لهذا الإبن ، وفوق ذلك فقد ذهبت كليوباتره فعلا إلى رومه وأقامت هناك فترة على مقربة منه . ولكن على أى الأحوال فان هدف كليوباترة من علاقتها بقيصر لم يتحقق ، إذ كان أعداؤه (وبعض أصدقائه الذين كانوا يخشون أن يعلن نفسه ملكا على رومه - ذلك اللقب البغيض إلى نفوس الرومان) - أقول كان أعداؤه أسبق من آمال كليوباتره التى عقدتها على الارتباط به ،

---

(١٧٧) عن انجاب كليوباترة إبنا من قيصر : Plut. : Caesar, 49; Dio Cass.; XLVII, 31 ، عن التعليق على هذا الحدث وعلى إعلان كليوباتره لأصل هذا الميلاد راجع . نصحي ، نفسه ، ج ١ ، ط ٢ ، صفحات ٢٨٢ - ٢٨٣

فقتلوه فى ٤٤ ق م. وقنعت الملكة البطلية من الغنيمة بالإياب ، بعد أن تأكدت أن حياتها ستكون معلقة على كف القدر إذا هى بقيت فى رومه مدة طويلة ، وبخاصة إذا عرفنا أنها أوغرت ، بتعاليها ، كل الصدور ، بما فى ذلك حتى من أرادوا التقرب إليها (١٧٨).

* * *

ولكن إذا كانت هذه الملكة قد قدر لمحاولتها ألا تأتى بالنتيجة التى كانت تهدف اليها ، فقد ظل الأمل يراودها فى نفس الاتجاه ، وقد جعلت وسيلتها إلى تحقيق هدفها أن تستغل ، لمصلحتها ، الظروف التى كانت تسود رومه فى ذلك الوقت . وحقيقة إن محاولتها ستنتهى بالاخفاق وبسقوط مصر لتصبح إحدى ولايات الإمبراطورية التى كانت كليوباترة تمنى وتهدف إلى أن تصبح على رأسها كشريكة لمن يصل إلى مركز السيادة فى رومه ، ولكن مع ذلك فقد شكلت هذه المحاولة أول (وآخر) عمل جرىء فى الشطر الثانى من حكم البطالمة لانتشال السياسة المصرية الخارجية من وهدة التدهور الذى كانت قد تردت فيه .

وتفصيل ذلك أن المسألة المصرية التى كانت قد أصبحت فى القرن الأخير قبل الميلاد احد العناصر الرئيسية فى برامج الأحزاب المتصارعة فى رومه ، قد تطورت أثناء حكم كليوباترة السابعة لتصبح العنصر الاساسى

(١٧٨) اعتراف قيصر بأبوته لابن كليوباترة منه Suetonius: Caesar, 52: ذهاب كليوباترة إلى رومه Dio Cassus: XLIII, 27: . عودة كليوباترة إلى مصر بعد مصرع قيصر Cicero: Ad. Attic , XIV, 8. عن تعالى كليوباتره وضيق الشخصيات الرومانية من هذا التعالى Ibid. XV,15

الذى سيحدد مصير روما والامبراطورية التى تدور فى فلكها . فى ذلك الوقت كانت الاحوال السياسية فى روما قد بدأت تتخذ اتجاها قدر له أن يقودها إلى أخطر انتقال سياسى لها منذ سقوط الملكية قرابة خمسة قرون قبل ذلك . فالقادة العسكريون الذين بدأ نجمهم فى الصعود منذ أيام ماريوس بعد أن أصبحوا يشكلون الدعامة الاولى لتوسيع الأملاك الرومانية ، لم يعودوا فى الفترة الأخيرة يستمدون قوتهم من مناصرتهم لطبقة العامة مرة ولطبقة الارستقراطيين مرة أخرى ، وإنما أصبح الهدف الصريح الذى يرمى اليه كل منهم هو الحصول على سلطة فردية لنفسه بعد أن فقد الصراع القديم بين الطبقتين عمقه ومغزاه السياسى نتيجة لحصول العامة على مطالبهم الاجتماعية والسياسية . وهكذا قام القواد العسكريون من حيث الواقع ، بالدور الأول فى تصريف أمور الدولة ودفعوا بالمجالس التى تمثل طبقتى الأرستقراطيين والعامة إلى مؤخرة المسرح السياسى ليقوموا فيه بدور ثانوى هو مجرد إضفاء الصفة الدستورية على تصرفات القواد المتصارعين على الانفراد بالسلطة (١٧٩) . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان الحكومة الثلاثية الثانية التى قامت فى روما بين أنطونيوس وأكتافيان وليبيدوس كانت قد أصبحت فى الحقيقة دكتاتوريه ثنائية ، بعد أن نجح أنطونيوس وأكتافيان فى إقصاء شريكهما ، وبعد أن قسما الامبراطورية فيما بينهما إلى منطقتى نفوذ .

---

(١٧٩) عن وصول القادة العسكريين إلى مركز القوة فى السياسة الرومانية راجع : Léon Homo : Roman Political pp. 147 — 67 Institutions (ترجمة انجليزية) .

وقد أدى هذا الوضع الجديد ، بجانبيه ، إلى تطور جديد فى التسابق على السلطة فاختفاء الشريك الثالث فى حكومة القواد الثلاثة أفقد هذه الحكومة عنصر التعادل بين أطماع كل من أنطونيوس وأكتافيان ، وعجل بدفع هذه الاطماع المتعارضة إلى مرحلة الصدام المكشوف . كما أدى ارتخاء الصراع بين طبقتى الارستقراطيين والعامة وانحدار المبادىء التى كانت تشكل محور هذا الصراع إلى المرتبة الثانية فى المجال السياسى ، إلى افتقار القواد المتنافسين إلى الشعار الملموس الذى يدفعون جنوهم إلى النضال فى سبيله ، وهكذا كان على القائد الذى سيقدر له النصر فى الصراع حول الانفراد بالسلطة أن يبحث عن شعار جديد ، يدعم به مركزه السياسى ويرى جنوده فى الدفاع عنه دفاعا عن مبدأ وليس مجرد تأييد لقائد مغامر يسعى إلى تحقيق مطمع شخصى .

تحت هذه الظروف ، إذن ، تحدد الاتجاه الذى كان على اكتافيان وأنطونيوس أن يتبعاه فى تسابقهما نحو السيادة السياسية ، لقد كان على كل منهما ، أو على الأقل على أكثرهما جديه وذكاء فى مساعيه للحصول على هذه السيادة أن يجد هذا العنصر الجديد ، هذا الشعار اللازم لتدعيم موقفه السياسى والعسكرى . وقد كان موقف مصر إذ ذاك ، أو بعبارة أدق موقف ملكتها كليوباترة ، هو العنصر الذى بدأ باعطاء أحد الشريكين المتنافسين الشعار الذى يبغيه - وهـو الموقف الذى لم يلبث أن تطور ليخط بصفة حاسمة المصير السياسى والحربى لمصر من ناحية وللامبراطورية الرومانية من ناحية أخرى .. ففى سنة ٣٨ - ٣٧ ق. م. عزم أنطونيوس على القضاء على خطر البارثيين الذى كان يهدد نفوذ رومه فى الشرق ، راميا من وراء ذلك إلى نصر يدعم به موقفه الحربى ، وبالتالى موقفه

السياسى ، أمام شريكه وخصمه أكتافيان ، ولكن الموقف يفلت من يده فى هذه الحملة فتنتهى بالاخفاق ويفقد فيها عدداً لا يستهان به من خيرة جنوده ، وزاد من فداحة هذه الخسارة أن انطونيوس لم يكن فى مقدوره إذ ذاك أن يعوضها بالحصول على جنود آخرين ، وذلك لبعده عن رومه - هذا فى الوقت الذى تغلب فيه اكتافيان فى الغرب على غريمه سكستوس واصبح نتيجة لذلك سيد ٤٥ فرقة من خيرة فرق الجيش .

٢ - الصراع بين مصر ورومه .

فى هذا الموقف يذهب أنطونيوس ، بدعوة من كليوباتره ، إلى الاسكندرية ريثما يتدبر موقفه . وهنا تستغل الملكة المصرية حاجة أنطونيوس إلى المساعدة الادبية والمادية لتبدأ الصراع المثلث على السيادة فى العالم اذ ذاك - هذا الصراع الذى ستتدخل شخصيات الأطراف المتنازعة بقـــدر ما تتدخل الظروف السياسية لتحدد نتيجته النهائية .

أما كليوباترة فقد كانت تحلم بالسيطرة على الامبراطورية الرومانية ، تشهد بذلك تسميتها لابنها بطلميوس قيصر الذى يرمز اسمه الأول إلى حقه فى عرش مصر بينما يرمز اسمه الثانى إلى حقه فى سيادة رومه ، ويشهد بذلك القسم الذى ينسبه المؤرخ ديو كاسيوس Dio Cassis إليها والذى تظهر فيه واثقة كل الثقة من أنها ستفصل فى شئون الرومان فى الكابيتول (مركز السيادة الرومانية ورمزها) فى يوم من الايام (١٨٠) . ويشهد بذلك حتى أعداؤها من الرومان كما يظهر من أحد أناشيد هوراتيوس الذى نظمه بعد موت كليوباتره مباشرة وتغنى فيه بخلاص رومه من خطرها .

---

(١٨٠) Dio Cassius : L, 5,4

وهو يستهله بقوله :

لنشرب الآن ، ولندق الارض رقصـــا بأقدام لا تعرف الكلل . .

فالآن ، أيها الرفاق ، يحق لنا أن نمد أرائك الآلهة لمآداب لاتعرف للبذخ حـدا .

أما قبل الآن ، فقد كان إثما أن نخرج من الخوابى الخمر المعتقة ...

بينما كانت الملكة تسعى إلى تدمـــير الكابيتول ، وتبيت الخراب للامبراطورية (١٨١) .

وأخيرا فان الحلم الذى كانت ترعاه كليوباتره يظهر فى أوضح صوره فى محاولتها للتأثير على الرأى العـام المحيط بها عن كثب فى مصر ، أو الذى يتتبع نشاطها من بعيد فى رومه وفى الولايات التى تتبعها وبخاصة فى الشرق ، وذلك عن طريق العدد الكبير من النبوءات التى أطلقتها إذ ذاك ، والتى كانت تحاول أن تشن بها حربا نفسية على رومه كمقدمة لكسب اشتباك مسلح معها . والذى ينظر إلى هذه النبوءات عن كثب يرى فيها احتياطا من جانب الملكة المصرية لكافة الاحتمالات التى يمكن أن يتمخض عنها مثل هذا الاشتباك .

ومن بين هذه النبوءات تلك التى تؤكد أن الوقت قد أزف لسقوط رومه واستعبادها على يد آسيه ، وهى تمثل أكثر هذه الاحتمالات تفاؤلا ثم هنـاك نبوءة الإغريقى الذى لم يصلنـا اسمه والذى تنبأ بأن كليوباتره

---

(١٨١) Horace : The Odes, Book I, Ode XXXVII. (ed. Allcroft & Hayes).

حين تنجح فى إسقاط رومة ستمد لها يد المساعدة وتقيلها من عثرتها لتبدأ عهداً ذهبيا ينتهى فيه الصراع الطويل بين الشرق والغرب وتسهم كل من آسيه وأوروبه فى حكم يسوده العدل والمحبة ـ ولعل هذه النبوءه تمثل نوعا من خط الرجعة الذى اتخذته كليوباترة فى حربها النفسية لتقابل به ، أمام شعوب الامبراطورية نصرا غير حاسم فى اشتباكها المسلح مع رومة قد تضطر فيه إلى مهادنتها أو إلى تقسيم مناطق النفوذ فى الولايات معها . وإلى جانب هاتين هناك النبوءة التى أشاعها اليهود إذ ذاك ومؤداها أن نصر كليوباترة سيكون نهاية للفترة القائمة فى تاريخ العالم ، وبداية لفترة أخرى يظهر فيها المسيح وينشر حكمه بين الناس ـ وفى رأيى أن الغرض الذى كانت تهدف اليه كليوباترة من هـذه النبوءة الأخيرة ، وأغلب ظنى أنها أطلقت بايعاز منها ، هو الاستعداد أمام العالم لموقف تنجح فيه المملكة المصرية فى القضاء على قوة رومه ولكنها لا تتمكن ، لسبب أو لآخر من متابعة هذا النصر أو استغلاله (١٨٢) .

ولعلى لا أبعد كثيرا عن الصواب إذا ذكرت أن ما تدل عليه هذه الشواهد والمظاهر لم يكن مجرد حلم يراود كليوباتره ، وإنما كان حقا تعتقد فى عدالة مطالبتها به . لقد استذلت رومه أسرتها قرنا أو يزيد ، واقتطع ساسة هذه الدولة أجزاء من ممتلكات الدولة التى تجلس على عرشها ، وهناك الآن أكثر من دليل على أن اكتافيان يحاول أن يضع نهاية لما تبقى

---

(١٨٢) عن هذه النبوءات، راجع Sibyll., III, 46 54, 75-92, 350-61, 367-80
راجع كذلك : Cument: (Rev. de l'Hist. des Rligions, CIII, 1931) pp. 65-72 Tarn: (C. A. H.) x, 82-3

لهذه الدولة من مظاهر السيادة ، وأن يدخل هذه البقره الحلوب في حظيرة الامبراطورية الرومانية ، ألم يكن من العدل بعد كل ذلك (من وجهة نظر كليوباترة) أن تحاول إضعاف النفوذ الرومانى ، أو مشاركة رومة سيادتها إذا أتيحت لها الفرصة أو انتزاع هـــذه السيادة لحسابها إذا استطاعت إلى ذلك سبيلا ؟

على أن كليوباترة ، التى كانت على بينة من أمرها من البداية ، كانت تدرك أنها لا تستطيع أن تعتمد فى تحقيق هدفها على قوتها الحربية فحسب كما كانت تعلم أن ثراءها وحده لا يمكنها من شراء السيادة التى تنشدها وهكذا كان لا بد لها ، إذا كان للورقة التى فى يدها أن تكسب ، أن تستغل الظرف السياسى السائد فى رومة إذ ذاك ، وهو انتقال الصراع من دائرة الأحزاب إلى دائرة القواد العسكريين على نحو ما اسلفت ، وذلك بأن تستعدى قائدا رومانيا على قائد رومانى آخر ، فان أى نصر على رومة لا يمكن إلا أن يكون على يد قائد من رومه .

ولم تكن هذه الفكرة جديدة على كليوباترة فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ، فقد حاولت ، كما رأينا ، أن تنفذها حين اتى يوليوس قيصر إلى مصر ، وان لم تصل بمحاولتها الى ما كانت تهدف اليه بعد أن سبقتها ظروف رومة الى احباط هدفها . والآن اصبح أمامها أنطونيوس ، القائد الرومانى الذى دفعت به ظروفه العسكرية والسياسية الى الشرق ، وهو قائد له من كفايته الحربية ما يتفوق به على أكتافيان وله من مكانته السياسية ما يجعله نظيرا له وبالتالى فإن احتمال نجاحه فى صراعه على السيطرة مع زميله وخصمه متكافىء ، ان لم يكن فى الواقع مرجحا .

وقد عملت كليوباتره من البداية على استمالة انطونيوس اليها بكل الوسائل التى يمكن أن تلجأ اليها امرأة تملك ، إلى جانب ثروتها الضخمـــة ، دهاء سياسيا جعل منها احدى شخصيتين خشيتها رومه فى تاريخها الطويل الذى لم تخشى فيه فردا أو دولة ، كانت أخراهما شخصية هانيبال . وكانت الخطة التى اتبعتها هى أن تفصل نهائيا بينه وبين اكتافيان وأن تعرقل استمرار أية رابطة بينهما - وقد كان بينهما أكثر من رابطة سياسية وشخصية - من شأنها أن تؤدى إلى اتفاقهما ، سواء تم ذلك على قدم المساواة أو على أساس طغيان شخصية أحدهما على شخصية الآخر ، هذا فى الوقت الذى تضمه فيه إلى جانبها بحيث يصبح أى نصر يحرزه نصرا فعليا لها .

وقد ابتدأت كليوباتره علاقتها بأنطونيوس بشكل يفصح عن خطتها هذه فى وضوح شامل . فكان أول ما قامت به بعد أن اجتذبته بأكثر من طريقة إلى الإقامة فى الاسكندريه ، هو أن ربطته بشخصها برابطـة الزواج فى خريف ٣٧ ق.م فى الوقت الذى كان فيه متزوجا من أخت أكتافيان ، خصمه وشريكه فى الحكومة الثلاثية . أما الخطوة الأخرى التى قامت بها فى هذه السبيل فهى أنها أحاطت أنطونيوس بكل المظاهر السياسية التى تبعده شيئا فشيئا عن رومه ، فوثائق الحكم التى كانت تؤرخ حتى ذلك الوقت بتاريخ واحد هو اعتلاؤها العرش ، أصبحت تؤرخ الآن بتاريخين ثانيهما يتخذ سنة زواجها من أنطونيوس بداية لها - وقد استمرت هذه الطريقة فى تاريخ وثائقها حتى نهاية حكمها فى ٣١ ق.م. الذى وافق العام الثانى والعشرين لاعتلائها العرش والعام السابع من الحكم المشترك (١٨٣).

---

(١٨٣) يرى تارن هذا الرأى (C.A.H., X, 81 & n. 3) وهناك رأى

ومما يدل على هذا الاتجاه كذلك أن أنطونيوس ، بعد غزوه لارمينيه فى ٣٤ ق.م. احتفل بانتصاره فى الاسكندرية ، وهو أمر أرجح كثيرا أنه قام أرضـــاء لها وتحت اقناعها أو اغرائها ـ وقد كان هذا أمرا شاذا بالنسبة لقائد رومانى ، وكانت ثانى مرة فى تاريخ رومه يحتفل أحد قوادها بالنصر خارج أسوارها (١٨٤) .

* * *

أما أنطونيوس فقد ساقتـه الظروف إلى أن يحقق ماكانت كليوباتره تهدف اليه ، وهو الانفصـــال عن اكتافيان بشكل يجعل التفاهم بين الشريـكين القديمين أمرا متعذرا ، إن لم يكن مستحيلا ـ وقد كانت بداية التشاحن هى موقف أكتافيان من وعده بعد اتفاق تارنتوم . لقد تضمن هذا الاتفاق ضمن بنوده أن يمد أنطونيوس زميله بأسطول يساعده على إتمام حربه فى صقليه ، بينما يمده اكتافيان نظير ذلك باربع فـــرق ليُنهى حربه فى بارثيه . وقد أقام أنطونيوس لتوه بتنفيذ الجزء الذى يخصه من الاتفاق بينما راوغ اكتافيان فى الوفاء بوعده لمدة سنة ونصف . وحتى حين يبدأ فى تنفيذ هذا الوعد فى ربيع ٣٥ ق م. فانه لا يرسل الفـرق المطلوبة ، وإنما يرسل ما تبقى من أسطول أنطونيوس ـ وهو ما لم يـكن هذا الأخير يطلبه أو يريده فى ذلك الوقت الذى كان يعنيه فيه أن يضع نهاية للخطر البارثى بشكل يقفز بمكانته الحربية إلى القمة وبالتالى يدعم مركزه السياسى فى رومه .

= معارض لايرى فى ذلك إشارة إلى الحكم المشترك . أنظر : عبد اللطيف احمد على ، نفسه ، ص ٢٢ ، حاشيه ٢ والمراجع عن هذا الرأى المعارض فى استمرار الحاشيه على ص ٢٣

(١٨٤) Tarn : op. cit., p. 79

لقد عرف أنطونيوس إذن نية شريكه وأدرك أن وعوده لا قيمة لها وأن الانفصال النهائى بينهما واقع لا محالة ، فاذا كان الأمر كذلك فليعجل به وليتم الانفصال على وجه سريع وصريح . وفى سبيل الكيد لخصمه بدأ يقع تحت تأثير كليوباترة وبدأ فى الواقع ينفذ خطتها . وقد بدأ أنطونيوس خطواته فى هذا الاتجاه فى أول فرصة واتته بعد هذا الموقف فبعد أن غزا أرمينية فى خريف ٣٤ ق م لم يقم احتفاله بالنصر فى روما بل فى الاسكندرية على نحو ما ذكرت فى مكان سابق ، رغم ما فى هذا الاجراء من خروج على التقاليد الحربية الرومانية ، وفى هذا الاحتفال قدم أنطونيوس أسراه من الارمينين إلى كليوباترة التى كانت تستقبله استقبالا رسميا كملكة مصر . وقد يكون هذا ، بل من المرجح أنه كان ، مجرد إجراء كيدى لا يقصد منه أنطونيوس سوى أن يظهر عدم تقيده باكتافيان شريكه فى الحكومة الثلاثية . ولكنه كان يكفى فى نظر رجل الشارع فى رومة ـ وهو يمثل الطبقة التى كان أنطونيوس يعتمد عليها فى جميع جنوده ـ لأن يكون تمجيدا لكليوباترة ، ورمزا واضح الدلالة على اتجاه نية أنطونيوس إلى نقل عاصمة الامبراطورية إلى الاسكندرية .

أما الخطوة التالية التى قام بها أنطونيوس فى سبيل أفصاحه عن خصومته لاكتافيان فهى تقديمه عددا من الولايات الرومانية والممالك المحالفة لها كهدية للملكة المصرية ولأبنائها ، ومنحهم ألقابا تضفى عليهم صفة الشرعية فى سيادتهم على هذه الاقطاعات . وحقيقة أن هذا الاجراء فى حد ذاته لا يمكن أن ينظر اليه كخيانة وطنية من جانب أنطونيوس ، فمنح السيادة الشكلية على أجزاء من الامبراطورية كان أمرا أقدم عليه أكتافيان نفسه فيما بعد دون أن يثير بذلك أى شعور إمبراطورى عند

رجل الشارع فى رومه . كما أن هذه الاقطاعات ، أو « المنح السكندرية » كما أصبحت تدعى ، ولم تكن تمثل إقطاعات حقيقية من الامبراطورية ، فميديه وبارثيه اللتان كانتا ضمن نصيب أحد أبناء كليوباترة كانتا لاتزالان فى حوزة ملوكها وكان تقديمها ضمن هـــذه المنح على سبيل ما سيكون وليس ما هو كائن بالفعل ، بينما كان فى أرمينيه وفلسطين ونباتايه التى ظهرت قائمة المنح السكندرية حكام محالفون لرومة (١٨٥) .

ولكن إذا لم يكن ما قام به أنطونيوس يضر بالامبراطورية اضرارا مباشرا ، وإذا لم يكن فى حد ذاته خيانة وطنية ، إلا أن أى خصم لأنطونيوس كان فى مقدوره إذا أستغل الظروف القائمة بشىء من الذكاء الاجتماعى ، أن يترجم ما حدث إلى خيانة فعلية لقضية الوطن والامبراطورية ، وكان فى إمكانه فوق ذلك أن يجد تحت تصرفه ما يشير إلى هذه الخيانة ، فالعمله التى سكها أنطونيوس فى هذه المناسبة تحمل على أحد وجهيها رأس كليوباترة مع لقب « ملكة الملوك وملكة أبنائها الذين هم ملوك » مما يوحى به هذا من الاعتراف بها كسيدة للشرق كله من ميديه شرقا إلى حدود آسيه الصغرى وبرقة غربا (وهى الحدود التى تضم منح الاسكندرية) بينما يحمل الجانب الآخر صورة أنطونيوس قاهر أرمينيه (١٨٦) ، يوحى به هذا الارتباط على جانبي قطعة واحدة من العملة من أن ما يصل اليه أنطونيوس تشاركه فيــه كليوباترة ـ حتى إذا كان ما يصل اليه هو مركز الامبراطور .

---

(١٨٥) Dio Cassius : L, 3,5 عن التعليق على حقيقة هذه الهبات راجع :
Cary:op. Cit., p. 442

(١٨٦) راجع صور هذه العملة فى : Iv, 198 sq (مجلد الصور) C. A. H.

على أن هذا لم يكن الخطأ الوحيد الذى وقع فيه أنطونيوس فى سبيل محاولته إظهار عدائه لاكتافيان ، بل لقد أقدم على خطأ آخر وهو بسبيل الكيد لشريكه وغريمه ، وذلك باعلانه أن كليوباتره كانت زوجة شرعية ليوليوس قيصر ، وأن بطلميوس قيصر ، ابنها منه ، (وهو الذى سماه السكندريون قيصرون) [١٨٧] هو ابنه الشرعى وأنه (أى أنطونيوس) يرى فى إعلان ذلك تأدية لواجب لابد من أدائه لذكرى القائد الكبير . وقد كان أنطونيوس يرمى من وراء ذلك إلى اضعاف مركز اكتافيان الذى حمل اسم قيصر كوريثه الوحيد فى غياب أى وريث آخر ، وحمل مع هذا الاسم الحق الأدبى فى ولاء جنود يوليوس قيصر واتباعه له . ولكن أنطونيوس فى ثورة حنقه على شريكه الذى حنث بوعده ، لم يرى الوجه الآخر للصورة ـ فلم يدرك أن تدعيمه بهذه الطريقة لمركز كليوباتره والشرعية ابنها من قيصر كان من الممكن أن يفسر تفسيرا آخر من خصم يستطيع أن يلهب الرأى العام فى عاصمة الامبراطورية ، لسبب بسيط هو أنه يقيم بالفعل بها .

* * *

أما موقف اكتافيان فقد كان واضحا ومحددا من البداية ، وكان فى وضوحه وتحديده يشير إلى نيته فى الانفراد بالأمر فى الامبراطورية . وكان قد مهد لذلك من قبل بالتخلص من غريمه سكستوس بومبيوس

---

(١٨٧) عن هذه التسمية أنظر: Dio Cass.: XLVII, 31; Plut.: Caes.49
عن الواقعة ذاتها أنظر: Dio Cass.: XLIX, 41, L, 1, 5; Plut.: Ant., 54; Suetonius: Div. Iul., 52, 2

وبتعاونه مع أنطونيوس فى التخلص من مزاحمة لبيدوس ، الشريك الثالث فى الدكتاتورية المثلثة ، بحيث أصبحت فى الواقع دكتاتورية ثنائية على نحو ما أسلفت ، والآن أصبح من الواضح أن شخصية أنطونيوس تعترض سبيله ، ولاشك أن اكتفيان وجد فى زواج أنطونيوس من كليوباترة فى الوقت الذى كان لايزال فيه متزوجا من أخته (أى أخت اكتافيان) أكتافيا ، ثم معاملته المهينة لها بعد أن ظلت ترعى مصالحه السياسية فى رومه ، وحتى حين حاولت السفر اليه فى الشرق ومعها الأموال اللازمة له وعشرون الفا من الجنود الذين كان فى مسيس الحاجة اليهم ـ لا شك أن اكتافيان وجد فى ذلك ما يبرر موقف العداء الذى اتخذه من أنطونيوس أمام نفسه وأمام الشعب الرومانى .

وهكذا سارت خطته من البداية فى حلقات متصلة ، فهو لا يبر لأنطونيوس بوعده الذى قطعه على نفسه فى تارنتوم بإمداده بالمعونة العسكرية اللازمة ، هذا فى الوقت الذى كان يدرك فيه كل الادراك بعد أنطونيوس عن ايطاليه (حيث المكان الذى يستطيع فيه أى قائد أن يجمع ما يحتاجه من جنود) سيكون نقطة ضعف فى جانبه ، بل ربما كانت نقطة الضعف القاضية . ثم كان ما ذكرت من تمجيد أنطونيوس لكليوباتره ومن تعزيزه لمركزها فى مسألة منح الاسكندرية رغم ما ظهر من طموحها الذى لم تكن تحده إلا حدود الامبراطورية نفسها ـ الأمر الذى أكد موقف اكتافيان وحدده بشكل نهائى وجعل استمراره فيه ، بعد أن خطا خطواته الاولى ، أمرا محتوما .

وهكذا أصبح الشقاق بين الشريكين المتنازعين أمراً واقعا ، وفى هذا

الشقاق وقفت ملكة مصر إلى جانب أنطونيوس ، أو إذا أردنا أن نضع الأسماء على مسمياتها ، لقد أصبح الصراع أمرا واقعا بين الغرب تمثله رومه فى شخص اكتافيان وبين الشرق تمثله مصر فى شخص ملكتها كليوباتره ، ووقف إلى جانب كليوباتره زوجها أنطونيوس .

٣ — الصراع ونهاية ملك البطالمة

لقد تحدد الموقف ، إذن ، بوقوف أنطونيوس فى صف كليوباتره ، وما حدث بعد ذلك لم يكن إلا إستعداداً لنهاية الشوط الذى تمت بدايته بالفعل ، ولم تكن نهاية الشوط إلا الصدام الفعلى الذى سيحدد إذا ماكانت مصر ستصبح سيدة للعالم الرومانى أو تابعة تدور فى فلكه . وستشهد المرحلة التمهيدية لهذا الاستعداد مناورات دعائية يهدف من ورائها كل من أنطونيوس وأكتافيان ، سواء بطريق مباشرة ، أو غير مباشرة ، إلى أن يقنع مجلس الشيوخ بوجاهة موقفه من الناحيتين الوطنية والدستورية فى الحدود التى لا تقف مقدما فى سبيل ما يضمره من الانفراد بالسلطان فى المستقبل (١٨٨) . حتى إذا بدأ الاستعداد الفعلى فى ٣٢ ق.م. للمعركة الفاصلة وجدنا الطرفين يكادان يتمادلان فى جميع الامكانيات التى جندها .

فمن الناحية الحربية ، إذا كان اكتافيان قد استطاع أن يجمع ٨٠ الف جندى من المشاه ، و ١٢ الفا من الفرسان وأربعمائة مركبا فقد عاد له أنطونيوس وكليوباتره بقوة قوامها من ٧٠ إلى ٧٥ الفا من المشاة و ١٢ الف فارس وفوق خمسمائة مركبا ، واذا اكتافيان قد أعتمد على عبقرية

---

(١٨٨) Dio Cass : L, 2 sq.

القائد أجريبه Agrippa فى ناحية القيادة البحرية ، فان كفاية أنطونيوس العسكرية كانت كفيلة بأن تجعله سيد أية موقعة بريه ومن الناحية المالية إذا كان اكتافيان قد استطاع أن يستعد لتكاليف الحرب بفرض عدد من الضرائب على البلديات الايطالية فقد اسهمت كليوباتره فى التجهيز الفعلى للقوة التى سيقودها أنطونيوس ، هذا إلى ما أخذته على عاتقها من امداد الجيش والاسطول بالتموين اللازم لها ومن تقديم ٢٠ الف تالنتا للابتداء فى الانفاق على القوة الضاربة (١٨٩) ، وأخيرا فالحماس الذى كان يدفع أكتافيان الى الحصول بأية طريقة على النصر الذى سيجعله سيد الامبراطورية الرومانية ، كان يعدله او يزيد عليه طموح تضج به نفس كليوباترة ويأخذ عليها كل مسالك تفكيرها ليجعلها ترمى بكل ما تملك فى هذه المغامرة الكبرى التى إذا قدر لها أن تنجح ، لا بد أن تغتصب لها السيادة من براثن رومه .

* * *

على أن عوامل وظروف محددة كانت تقف فى سبيل كليوباترة وانطونيوس ، وقد كانت أول هذه العوامل الدعاية الناجحة التى قام بها اكتافيان لتدعيم موقفه ، فهو قد أثار الرأى العام فى ايطاليه بشائعات مؤداها أن أنطونيوس قد ترك قياده لغانية أجنبية من الشرق واقترح (أى اكتافيان) أن يضع الشعب ثقته فيه كزعيم وقائد لإيطالية ، فى وقت ايد دعايته هذه بموقف انطونيوس حين أرسل هذا الأخير فى مايو أو يونية ٣٢ ق.م. إلى اكتافيا (زوجة أنطونيوس وأخت أكتافيان) خطابا رسميا

(١٨٩) Tarn; "Class. Quarterly, XXVI"; p. 75; (C.A.H X), 100 - 102

للطلاق ، كما أيدها باذاعته لوصية أنطونيوس التى أكد فيها الزيجة السابقة لـكليوباتره من يوليوس قيصر وشرعية إبنهـا منه وبين ما ورثه لابنائه من كليوباتره كما أظهر فيها رغبته (أى رغبة أنطونيوس) عند موته فى أن يدفن الى جوارها فى الاسكندرية (١٩٠).

لقد كانت هذه الدعاية حاسمة فى النتائج التى أدت اليها والتى دعمت موقف اكتافيان بينما أطاحت بأية ثقة كان من الممكن أن يحصل عليهـا أنطونيوس فى صراعه على السيادة فى رومه ، اذ جعلته يخسر كثيرا من أشد أتبـــاعه مراسا من أمثال بلانـكوس وتيتيوس Blancus, Titius الذين انتقلا الى صف أكتافيان بكل ما يحمل اسمها من قوة دعائيـة ، وبكل ما يعرفانه من أسرار عن استعدادات أنطونيوس ، كما جعلت رجل الشارع فى رومه يعتقد أن أنطونيوس كان يهدف الى نقل عاصمـة الامبراطورية الى الاسكندرية - الأمر الذى دفع بـكثير من المترددين ، بشكل نهائى ، الى جانب اكتافيان .

وقد وصل نجاح هذه الدعاية الى أقصى درجاته حين أشتركت كل المدن الايطالية واحدة تلو الأخرى فى قسم coniuratio بايعوا فيه اكتافيان كقائد لهم فى جهاد مقدس ضد الخطر الآتى من الشرق ولم يلبث هذا القسم أن انتقل الى خارج حدود ايطاليه لتأخذه على نفسهـــا بلديات الولايات الغربيـــة وصقلية وسردينيه وأفريقية وولايتا غالة وولايتـا

---

(١٩٠) Dio. Cass.; L,3,3-5; Suet : Aug., 17; Plut : Ant 58

اسبانيه (١٩١) . ونتيجة لهذه المبايعة العامة استطاع اكتافيان أن يصل الى حرمان أنطونيوس من منصب القنصلية الذى كان من حقه بالاشتراك مع اكتافيان فى سنة ٣١ ق.م. بينما نجح اكتافيان ، الذى تقلد منصب القنصلية للمرة الثالثه فى أن يوجه الاعلان الرسمى ضد كليوباترة لحرب تستهدف نصرة الحق iustum bellum ـ وقد كان اعلان هذه الحرب ضد كليوباترة وحدها دون ذكر اسم انطونيوس (الذى كان رغم كل ماحدث لايزال يتمتع بمناصرة جانب من الشعب الرومانى) حافزا لأن يتكتل الرأى العام من خلفه أكتافيان (١٩٢) .

العامل الأخير الذى فت فى عضد الطرف الشرقى فى هذا الصراع بين الشرق والغرب هو اصطحاب أنطونيوس لكليوباتره فى المعركة ، أو بعبارة أدق ، اصرار كليوباترة على أن تكون موجوده فى وسط المعركة . لقد وقفت كليوباتره الى جانب أنطونيوس منذ أن استقر رأيه بعد عودته من أرمينيه فى ٣٣ ق.م. على أن يحارب اكتافيان ، وقد أمضت فى افسوس شتاء ٣٣ - ٣٢ فى استعدادات مضنية ، ومنذ ذلك الوقت وهى ملازمة له تمده بالسلاح والمال والمؤن ، ولم تتركه لحظة واحدة حتى فى أثناء المعركة الفاصلة أمام اكتيوم Actium ، وموقفها فى كل هذا واضح ، فبالنسبة لها كانت الحرب مع أكتافيان أكثر من مغامرة قائدين لقد كانت حرب مصر مع رومه ، ولم يكن أنطونيوس فى هذه الحرب ،

---

(١٩١) Res Gestae, 25, Suet.; Aug.,17, 2

(١٩٢) K Scott: Octavian's Propaganda C. Q.,XXIV;: The Political Propaganda of 44-30 B.C. (Mem. of American Acad., XI)

من وجهة نظرها ، سوى القائد الرومانى الذى يستطيع أن يقف أمام أكتافيان ـ وهو القائد الرومانى الآخر الذى كان يقف فى سبيل تحقيق حلمها .

على أن ملازمة كليوباترة لأنطونيوس سواء فى استعداداته أو فى تحركاته قبيل المعركة وفى أثنائها ، وتدخلها فعليا فى بعض الأحيان فى تحديد التحركات العسكرية اللازمة (كما حدث قبل أكتيوم حين رأى كانيديوس Canidius ـ أحد مساعدى أنطونيوس ـ أن يترك الأسطول وأن ينتقل بجنوده إلى مقدونية حيث يقابل جنود أكتافيان وجها لوجه وأصرت كليوباترة على أن يشترك الأسطول فى المعركة ووافقها انطونيوس على ذلك) ـ هذه الملازمة مهما كانت مبرراتها ، وهذا التدخل مهما كانت وجاهته كانت لها نتيجة سيئة ، هى أن تتأكد فى ذهن اتباع أنطونيوس وجنوده حقيقة ظاهرة ، وهى أنهم يحاربون تحت لواء كليوباتره ، الملكة المصرية ، وليس تحت لواء أنطونيوس الزعيم الرومانى . وقد كان لهذا أثره السيء على هؤلاء الاتباع والجنود ، الذين أعربوا عن سخطهم ، صدعت إلى حد كبير الدعامة التى يرتكن اليها أنطونيوس ، وهكذا ، منذ أن بدأت تحركاته حول الخليج الامبراسى بدأت الخيانة تدب فى صفوفه ممثلة فى البداية فى انتقال اثنين من اتباعه هما رويمتالكيس Rhoemetalces حاكم مقدونية وديوتاروس Delotarus حاكم بافلاجونية إلى صفوف اكتافيان ، اليهم أمينتاس Amyntas حاكم جالاتية ، الرجل الذى كان يدين بمركزه لانطونيوس ، ومعه قوته التى كان قوامها الفى فارس ، ولم يكن هذا إلا بداية الموقف ، فحين تحرجت الامور بعض الشيء بدأ

الفرار من صفوف أنطونيوس إلى صفوف اكتافيان يتم على نطاق واسع وحتى حين حاول أنطونيوس أن يضع حدا لذلك باستعمال الشدة كما حدث حين أعدم يامبليخوس Iamblichus (حاكم أميسه وأحد أعضاء الشيوخ الرومانى) ومن كانوا فى ركابه ، لم يزد ذلك الفارين إلا إمعانا فى فرارهم حتى دومتيوس Domitius ، الذى كان يحتضر ، آثر أن يذهب إلى أكتافيان ليقضى ساعاته الأخيرة هناك ، ولم يكن هذا الموقف قاصرا على الاتباع من أصحاب المركز والنفوذ فحسب ، بل انتقل كذلك إلى الجنود واستمر كذلك حتى فى أثناء معركة أكتيوم نفسها ، وبعدها فى أثناء عودة أنطونيوس إلى مصـــر ، حيث حاول أن ينظم بعض فرقه فتركته وانضمت إلى جالوس Gallus نائب اكتافيان كما اتجهت بعدها فى نفس الطـــريق الفرق الموجودة فى سورية تحت قيـــادة ديديوس iDdius (١٩٣) .

أما العامل الثانى الذى وقف ضد الشرق فى هذه المقـامرة الـكبيرة والذى كان إلى حد كبير مترتبا على العامل السابق ، فيتعلق بالموقع الذى اتخذه أنطونيوس وكليوباترة لقواتها . لقد وضعا هذه القوات على خط يمتد على الساحل الغربى لبلاد اليونان من كوركير Korkyra إلى ميثونى Methone (فى ميسينا) ، وكانت القوة الضاربة فيها تحتل شبه جزيرة أكتيوم وهى النتوء الجنوبى الذى يحد من الجنوب المدخل الضيق لخليج أمبراصيه ، وأقاما مركز القيادة فى باتراى Patrae ، بينما اعتمدا فى

---

(١٩٣) Appian.: Bell Civ., V, 17, 68 - 71

تموين القوات على السفن المصرية المحملة بالقمح والتى كانت تدور حول رأى تارنتوم Tarentum لتتجه شمالا إزاء الساحل البلوبونيزى ، أما النقط التى كانت تحمى خط التموين فكانت محطات متناثرة على هذا الساحل فى ليوكاس Leukas وغيرها ، وكانت مثونى أقصاها من ناحية الجنوب .

ونظرة سريعة على هذا الموقع ترينا أنه لم يكن على جانب كبير من المناعة ، بل كان فى حقيقة الأمر موقعا سيئا ، إذ أنه لم يمكن قوات أنطونيوس وكليوباترة من الاتصال السهل بمقدونيه وبقية شبه جـــزيرة البلقان من الشرق بينما جعل هذه القوات مكشوفة إلى حد كبير من الغرب . والفكرة العامة التى يعطيها اختيار هذا الموقع الضعيف هى أن الشخص الذى تم على يديه هذا الاختيار كان غرضه الأول تغطية الساحل المصرى وسهولة الاتصال به قبل أن يكون غرضا هجوميا يريد منه القضاء على قـــوات خصمه أولا قبل كل شىء ، فقد كان الوضع الطبيعى إذا أراد أنطونيوس أن يهاجم خصمه أن يذهب اليه فى إيطاليه فى خريف ٣٢ ق.م حيث كان اوكتافيان لا يزال يواجه بعض الاضطرابات ، وحيث يكون فى إمكان أنطونيوس ، القائد القدير ذى الشعبية الواسعة أن يهيب بعاطفة جنده القدماء ، كما يكون فى ظهوره بشخصه أمام الشعب ما يخفف بعض الشىء من حدة الدعاية السامة التى نفثها ضده أكتافيان فى غيابه . أما أن يترك إيطالية ويضع نفسه فى موقف دفاعى مكشوف من الغرب وصعب الاتصال من الشرق فهذا يبدو غريبا لأول وهله .

ولكن أنطونيوس لم يكن يملك فى الواقع أن يتخذ غير هذا الموقف ، فهو لا يستطيع أن يذهب إلى إيطاليه ومعه كليوباترة إذ معنى هذا أن

يؤكد بشكل قاطع الدعاية التى اثارها ضده اكتافيان والتى جعلت ـ بحق ـ من الملكة المصرية عدواً يريد احتلال رومه ، وهو فى نفس الوقت لايستطيع أن يقابل خصمه وحده ، إذ أن كليوباترة لن تتركه . لقد كانت هذه حربها وقد كانت تعمل لـكى تظفر بهذه اللحظة منذ أن ذهبت إلى رومه لتنشد معونة يوليوس قيصر ، لولا أن سبقها اليه أعداؤه فقضوا عليه وقضـوا معه على ما رتبته من خطط يـكون هو فيها القائد الرومانى الذى يخوض معاركها المصرية . والآن وقد تحققت هذه الخطوة الأولى من حلمها ، وهى أن يشن حربها على رومه قائد رومانى آخر فلم تـكن مستعدة لأن تترك شيئا للظروف .

إن ذهاب أنطونيوس وحده إلى إيطاليه قد يعنى انهيار خططها بشكل نهائى ، لقد كانت هناك زوجته السابقة اكتافيه التى ظلت على ولائها له وظلت ترعى مصالحه السياسية والحربية وتعتنى بأولادة ، حتى حين اقترح عليها أخوها اكتافيان أن تترك بيت الزوجية ، بعد أن أصبح واضحا لكل إنسان أن أنطونيوس قد قرر البقاء إلى جانب كليوباترة ، ومن يدرى ، فقد تستطيع أكتافيه أن توفق بين زوجها وأخيها فيصلا إلى حل وسط لا يمـكن أن يـكون له إلا ضحية واحدة ـ هى كليوباتره ومعها خططها وأحلامها التى تحلق بها فى أفق الامبراطورية الرومانيه . كما كان فى إيطاليه أكثر من صديق ، وقد يتوسط أحد هؤلاء الأصدقاء ، الذين لا يعرفون لولائهم متجها غير رومة ، وقد تنجح هذه المساعى فيصلون إلى ما قد تصل إلى أكتافيه ، أو حتى إلى أكثر ما قد تصل اليه .

وإذن فأنطونيوس تيوس ، سواء أراد أو لم يرد ، لم يـكن فى مقدوره

أن يقابل خصمه فى ايطاليه ، وهكذا كان عليه أن يستدرجه إلى خارج ايطاليه فى مكان يجمع بين القرب منها وبين تغطية الطريق الى مصر التى قد يضطر لسبب أو لآخر أن يلتجىء اليها ، وقد كان من سوء حظه أن يكون الموقع الوحيد الذى يمكن أن يجمع بين هاتين الميزتين موقفا يضم الى جانبها نقط الضعف الآنفة الذكر .

وقد ظهر بالفعل ضعف هذا الموقف بمجرد ابتــداء المناورات الحربية ، فالقائد أجريبه استطاع من البداية أن يهاجم هذا الخط الساحلى المكشوف ، فاستولى على مثونى وبذلك أصبحت له قاعدة فى خطوط أنطونيوس التموينية ، بينما أستطاع أكتافيان تحت ستار هذه الحركة أن ينزل فى إبيروس ، ويتحرك بسرعة جنوبا ليواجه قــوات أنطونيوس وكليوباترة فى شمالى الخليج الامبراسى . كما تمكن أجريبه مرة أخرى من أن يهاجم ليوكاس ، وبذلك يحاصر مدخل الخليج الامبراسى ، بينما أستطاع باستيلائه على باترای وكورنثه أن يقطع اتصال أنطونيوس بشبه جــزيرة البلوبونيسوس ، وهكذا أصبح أنطونيوس وكليوباترة محاصرين ، بعد أن فقدا خطوطهما التموينية مع مصر وبعد أن امتنع عليهما الاتصال برآ من الناحية الشرقيـــة .

هذه إذن هى الظروف التى أحاطت بصراع الشرق والغرب الذى انتهى بهزيمة قوات كليوباترة وأنطونيوس فى أكتيوم فى ٣١ ق.م. ومطاردة أكتافيان لهما إلى الاسكندرية ، حيث وضع الاثنان حدا

لحياتها واصبح أكتافيان سيد الشرق والغرب بعـــد أن ضم مصر إلى سلطان الشعب الرومانى على حد تعبيره (١٩٤) .

(١٩٤) Res Gestae (V. Ehrenberg & A.H.M. Jones: Documents illustrating the Reign of Augustus and Tiberius, no. I
راجع التعليق على عبارة «لقد ضممت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى» فى حاشية ١ من كتاب « مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى » تأليف ه. أ بل وترجمة : عواد حسين ، وعبد اللطيف على . راجع كذلك التعليق على هذه العبارة فى: عبد اللطيف على، مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ٢٧ وما بعدها . كذلك : لطفى عبد الوهاب يحيى : مصر فى العصر الرومانى ، ص ٩. وما بعدها .

القسم الرابع

الاسكندرية: عاصمة البطالمة

الباب الحادى عشر

الوضع السياسى للاسكندرية

نظرة عامة

اتخذ البطالمة من الاسكندرية ، التى وضع أساسها دينوكراتيس Denokrates مهندس الاسكندر ، عاصمة الدولة التى أقاموها فى مصر . وقد عاصر تأسيس الاسكندرية وظهورها تياران رئيسيين سيطرا على المنطقة التى امتد فوقها العالم المتأغرق ـ والاسكندرية إحدى عواصمه . أما التيار الأول فتمثله النزعة العالمية التى صبغت أعمال الاسكندر الأكبر والتى كانت تشير إلى إتجاهه نحو مزج حضار الشرق بحضارة الغرب . وقد مات الاسكندر قبل أن يمضى شوطا طويلا فى هذا الاتجاه ، ولم يلتزم به خلفاؤه الذين أصبحوا حكاما على القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط ولكن مع ذلك فان التيار الذى ابتدأه الاسكندر لم يستطع هؤلاء الخلفاء أن يوقفوه ، وأن يعودوا بالزمن إلى الوراء ـ إلى ما قبل عهد الاسكندر . وهكذا استمر هذا التيار ، ولكن ليس فى صورة امتزاج حضارى ، وإنما فى صورة لقاء بين عناصر من الشرق والغرب يمكن أن نسميه ازدواجا حضاريا .

وأما التيار الثانى فيمثله الاتجاه نحو النشاط الدولى الذى عم المنطقة التى نحن بصدد الحديث عنها ، والتى أصبحت الاسكندرية أحد مراكزها الرئيسية وقد وصل هذا النشاط الدولى إلى أبعاد كبيرة فى كافة المجالات ، كما بينت

فى الدراسات السابقة ، سواء كانت حزبية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو غيرها .

وقد كانت الاسكندرية بالضرورة صورة للعصر الجديد ، عكست هاتين الصفتين ، أو هذين التيارين بشكل واضح ، والدراسة التى أقدمها على الصفحات التالية هى محاولة لإبراز هذه الحقيقة عن طريق عرض الخطوط العامة لوضع الاسكندرية فى ثلاثة مجالات هى : المجال السياسى والمجال الاقتصادى والمجال الاجتماعى . وليكن حديثنا الآن عن وضع الاسكندرية فى المجال السياسى .

١ — موقع الاسكندرية كعاصمة لدولة البطالمة

حين كان البطالمة بسبيل إقامة دولتهم فى مصر ، هذه المملكة المتأغرقة الجديدة ، التى وجدت فى المنطقة التى انتقل اليها مركز النشاط السياسى والحضارى فى العصر الذى ابتدأ بفتوح الاسكندر ، والتى هيأت لها ميزاتها الطبيعية كل فرص الاستقرار الكفيل بتدعيمها كمركز للحضارة المتأغرقة ومعقد لجوانبها المتعددة ، كان على القائمين عليها أن يختاروا مكانا مناسبا يصلح كمقر لعاصمة ملكهم . ولكن البطالمة لم يختاروا طيبة أو منف ، العاصمتين التقليديتين للفراعنة ، إذ رغم أنهم تشبهوا بالفراعنة وساروا على نمطهم فى كل ما يتعلق بنظام الحكم ، إلا أن العواصم الفرعونية كانت لا تصلح للقيام بتبعات العهد الجديد . فالقيمة الأساسية لمنف كعاصمة كانت تنحصر فى أنها تمكن الحكومة من السيطرة على « الأرضين » فى الشمال والجنوب ، فى وقت كان فيه الربط بين الوجهين أمرا فى

مقدمة المهام السياسية [١٩٥] ، أما قيمة طيبة كعاصمة فكانت تستمدها من موقعها كمركز ثقل سياسى فى دولة تحرص على الاتجاه السياسى والتوسعى نحو الجنوب ، لإبقاء الأماكن التى ينتشر فيها النفوذ القوى لكهنة آمون تحت المراقبة المباشرة ، أو للسيطرة على مناطق النوبة وشمالى السودان أو لمد النفوذ الاقتصادى إلى إقليم بونت .

ولكن هذه الاعتبارات ، رغم أهميتها البالغة التى لا يمكن لحكومة جادة أن تتجاهلها ، لم تكن الاعتبار الأول فى العصر الجديد . فإن الظروف التى سادت فى ذلك الوقت كانت تحتم على البطالمة أن يتجهوا أساساً نحو البحر المتوسط ، وبخاصة فى قسمه الشرقى ، سواء فى برنامجهم التوسعى أو فى علاقاتهم السياسة والحربية . فموت الاسكندر كان شارة الانطلاق لصراع قواده على اقتسام إمبراطوريته ، وتركز الصراع فى القسم الشرقى للبحر المتوسط على نحو ما أسلفت ، واستمرت الخصومة فترة طويلة امتدت بعد وفاة الاسكندر ، وظهر فى خلالها من بين أقرباء الاسكندر وبعض قواده من يسعى إلى إبقاء الامبراطورية تحت حكم فيليب ، كما كان من بينهم أنتيجونوس الذى كان يرى هو وابنه ، الابقاء على هذه الوحدة

(١٩٥) يظهر ذلك جليا فى ظهور وصف « ملك الأرضين » بين الأوصاف التى كانت تطلق على الفراعنة ـ وعلى الآلهة ، وهو وصف قلما كانت تخلو منه قصيدة تظهر فيها أوصاف الملك ، أو الإله ، أنظر مثالين على هذا فى :
A. Erman; The Literature of the Ancient Egyptians
(الترجمة الانجليزية) ، صفحات ٨٤ - ٨٥ و ٢٨٣ وما بعدها . راجع القسم الأول من هذه الدراسات

ولكن تحت حكم بيته هو . وقد كان الابقاء على الإمبراطورية سواء تحت بيت فيليب أو بيت أنتيجونوس كفيلا بأن يقضى على أطماع بطلميوس حول الاستقرار فى مصر والاستقلال بها ، ولم تكن أطماع بقية القواد الذين يرون تقسيم الإمبراطورية بأقل خطرا على آمال بطلميوس . ومن هنا كان كفاحه فى سبيل البلد التى أزمع أن يتخذها موطنا له ومقرا لملكه . وقد كان كفاحا استمر مدة ليست بالقصيرة ، على نحو ما مر بنا ، وكان بطلميوس فى خلاله وبصفة تكاد تكون مستمرة مدافعا أو مهاجما أومتحالفاً أو متآمرا ، سواء قبل أن يعلن نفسه ملكا على مصر فى ٣٠٦ ق.م. أو بعد ذلك.

وطوال هذه الصراع كانت الاسكندرية هى الملاذ الذى يلجــأ اليه بطلميوس بعد انتصاراته أو هزائمه أو حين استعداده لاستئناف شوط جديد من أشواط الصراع ، وقد أدت هذه الظروف بالضرورة إلى تشكيل نظرته واتجاهه تشكيلا خاصا فيما يتعلق بالموقع الاستراتيجى للعاصمة التى اختارها لملكه والتى أصبح من اللازم أن تكون مطلة على شرقى البحر المتوسط ، الذى لم ينته فيه التناحر بين خلفاء الاسكندر على تقسيم ملكه إلا ليبدأ صراع جديد مديد حول مناطق النفوذ بين حكام الممالك المتأغرقة التى قامت على شواطىء هذا البحر .

وقد أظهر تاريخ البطالمة صدق هذا الاتجاه إظهارا تاما ، سواء فى فترات قوتهم أو فى أوقات ضعفهم ، فالبطالمة الأوائل سيتجهون إلى فرض حمايتهم على الجزر اليونانية الواقعة فى بحر إيجة والى التوسع على حساب سورية وبرقة وقــبرص ، وكلها مناطق دخلت فى دائرة السيطرة البطلمية لفترات طويلة أو قصيرة . وحين بدأت قوة البطالمة فى الاضمحلال كان الخطر

الذى يتهدد مصر يأتى من هذه المنطقة كذلك، سواء من جانب مقدونية أو من جانب سورية أو من جانبها معا فى آن واحد كما رأينا فى عهد بطلميوس الخامس، ولم تكن الاسكندرية بمنأى عن هذا الصراع، فحين يحاول بطلميوس السادس استرداد الأملاك المصرية فى فلسطين يرد عليه انتيوخوس الرابع بدخول مصر ومحاصرة الاسكندرية فى ١٧٠ - ١٦٨ ق.م كما أن حكم البطالمة سيشهد، عشية انتهائه، صراعا داميا فى الاسكندرية بين أوكتافيان وبين كليوباترة التى ارادت أن تقف، هى وأنطونيوس، موقفا دفاعيا أخيرا حتى بعد أن تحدد مصير مصر نهائيا فى اكتيوم فى ٣١ ق.م.[١٩٦].

كذلك كان موقع الاسكندرية، فى توسطه وإطلاله على المنطقة الشرقية للبحر المتوسط، أنسب مركز للدعاية السياسية التى وجهها البطالمة منذ بدء حكمهم بدأب منقطع النظير نحو جميع أرجاء العالم المتأغرق الذى كان يحدق بهذه المنطقة، ويكفى أن أشير فى هذا المجال إلى الوفود أو السفارات التى كان البطالمة يرسلونها بصفة مستمرة إلى جميع المناطق التى كانوا يريدون اقامة علاقات معها على مستوى أو على آخر، أو إلى السفارات الأجنبية التى كانت تصل الى مصر وبخاصة فى أعياد البطوليمايه التى كانت فى الحقيقة معرضا لكل نواحى التفوق الحضارى فى مصر والتى أراد بها البطالمة مضارعة أعياد البانآثينايه فى بلاد اليونان فى عصرها الذهبى[١٩٧]

---

(١٩٦) راجع القسم الثالث من هذه الدراسات (السياسة الخارجية للبطالمة).

(١٩٧) H. I. Bell: op. cit., 39 — 40

هذا الى جانب ما أسلفت الإشارة اليــــه فى صدد الحديث عن الدعاية السياسية البطلمية ، سواء عن طريق المجال الثقافى ممثلا فى الجامعة والمكتبة أو عن طريق المجال الدينى ممثلا فى عبـــادة سرابيس ـ وقد كانت الاسكندرية هى المركز الوحيد للمجـال الأول ، والمركز الرئيسى للمجال الثانى .

وهكذا نجد أن الاسكندرية كانت خير مكان يصلح لتقوم به عاصمة البطالمة ، فهى فى المقام الأول كانت ذات موقع يمكن البطـالمة من توجيه سياستهم الدفاعية فى عصر كانت صفتـــه الأولى هى الصراع المستمر بين حكام العـالم المتأغرق ، ومن جهة أخرى كانت خير مركز لإطلاق دعاتهم السياسية التى كانوا يهدفون من ورائها الى توسيع دائرة نفوذهم فى وقت أصبح فيه التوجيه السياسى يشير أساساً الى هذه المنطقة من البحر المتوسط .

٢ — الوضع السياسى للاسكندرية كعاصمة

واذا كان الاتجاه الذى تميز بالنشاط الدولى الواسع ، العنيف فى أغلب الأحيان ، فى المنطقة التى أصبحت مسرحا للعالم المتأغرق ، هو الذى حدا بالبطالمة ، بل أكاد أقول دفع بهم دفعاً ، الى اختيار الاسكندرية كعاصمة لملكهم ، فإن الاتجاه العالمى الذى ظلت أثاره ، حتى بعد خبوته عقب موت الاسكندر ، متجسدة فى ظهور الحضارتين الشرقية والغربية جنبا الى جنب فى مظهر حضارى ازدواجى فريد — أقول هذا الازدواج الحضارى قد ظهر بشكل واضح فى الوضع السياسى للاسكندرية فى عصر البطالمة . فالاسكندرية كانت من جهة عاصمة للبطالمة ، ومن جهة أخـــرى مدينة يونانية من

النوع الذى انتشر فى الشرق الأدنى فى أعقاب فتوح الاسكندر مثل كسندريه وايسياخيه وأنتيجونيه وأنطاكية وهى المدن التى كانت تمثل الحضارة اليونانية فى مهجرها الجديد فى العصر المتأغرق .

ولنبدأ بالجانب الأول . لقد كانت الاسكندرية مقرا لحكومة أهلتها كل الظروف لكى تكون حكومة استبدادية مركزية ؛ وكان لهذا أكثر من سبب . فمصر دولة تميل بطبيعة تكوينها الجغرافى نحو النظام المركزى بشكل ظاهر ، ولم يكن هذا أمرا جديدا عليها ، بل كان امرا طبيعياً بالنسبة لها ، امتدت معرفتها به الى بداية تاريخها ، واستمدت جذوره من الظروف الجغرافية التى احاطت بها ؛ فالحدود المحكمة سواء فى الشرق أو الغرب حيث صحراء العرب وصحراء ليبيــة أو فى الشمال حيث المستنقعات فى شمال الدلته وحيث الساحل الخالى من الموانىء الطبيعية السهلة سواء إلى شرق الدلته أو إلى غربيها ، أو فى الجنوب حيث صحراء النوبة الملاصقة لمجرى النيل وحيث سلسلة الجنادل والشلالات التى تبدأ جنوبى سيينى ـ هذه الحدود المحكمة جعلت التوجيه الطبيعى لمصر نحو الوحدة والتماسك الداخلى . وقد ساعد على هذه الوحدة مجرى النيل الذى لا تعترض الملاحة فيه من الشلال حتى المصب أية عقبات طبيعية مما يجعله يربط ربطاً سهلا تاماً بين أطراف القطر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، والذى يجمع بانتظام فيضانه كل سكان البلاد على ضفتيه أو بين أفرع دلتاه .

إن هذه الظروف تختلف قطعاً عن ظروف بلاد مثل بلاد اليونان

التى تخترقها الجبال فى كل اتجاه بشكل يتعذر معه الاتصال الداخلى بين مناطقها إلا عن طريق ممرات أو أنهار أغلبها لا يصلح للانتقال إلا فى أضيق الحدود ، مما جعلها تدخل التاريخ فى هيئة دويلات منفصلة مستقلة عن بعضها ومتطاحنة فى سياستها وتقـــاليدها وأحوال معيشتها ، أو مثل شبه الجزيرة العربية التى قامت فيها الامتدادات الصحراوية المقفرة بما قامت به الجبـال المانعة فى بلاد اليونان ، فدخلت التـاريخ هى الأخرى فى شكل قبائل متفرقة متناحرة بنزعها الانفصالى مهما كان النظام السياسى الذى يجمعها من الناحية الشكلية :

ولـكن على العـكس من ذلك كانت مصر ، فالإطار المحـكم الذى وجدت بداخله والذى تـكونه حدودها الطبيعية ، والشريان الذى ظل من البداية يجمع بين سكانها ويصل بين أجزائها من شمالها إلى جنوبها كان من الطبيعى أن يدفعها دفعا نحو نظام سياسى مركزى فى فترة مبـكرة من تاريخها . وقد حدث ، فمصر لم تـكد تستهل تاريخها المعروف حتى كانت مناطقها المختلفة قد تم توحيدها على يد أول ملوك عهد الأسرات . وسـارت منذ ذلك الوقت على نظـام إدارى مركزى لم يتخلخل فى فترات الانحلال السياسى المعدودة إلا ريثما يعود من جديد قويا كما كان .

بل حتى فى الظروف السياسية القلقة التى مرت بهـا البلاد فى القرن الرابع ق.م ظل النظام الإدارى المركزى حافظا لتماسكه سواء تحت حـكم الفرس أو تحت حكم الفراعنة الذين ثاروا على الحكم الفارسى وقبضوا على ناصية الأمور لفترات طويلة أو قصيرة . فالملك تاخوس مثلا ، أحـد

هؤلاء الملوك الثائرين ، استطاع فى فترة استرداده للحكم من الفرس أن يحصل عدداً من الضرائب منها ضريبة الرأس وضريبة على المساكن وثالثة على مبيعات القمح ، إلى جانب ضريبة دخل مقدارها العشر فرضها على التجار وأصحاب الحرف . واستمرار الإدارة المركزية بهذا الشكل المنظم يدل دون نزاع على محافظة هذه الإدارة على كيانها العام أمام موجات التقلب السياسى فى تلك الفترة . وحتى بعد أن استعاد الفرس سلطانهم على مصر على يد أرتا خشارشاه ظلت الإدارة المالية محافظة على تماسكها رغم التخريب الشديد الذى تعرضت له أثناء الفتح . وقد ظلت الإدارة المالية على ما هى عليه من تماسك حتى تسلمها الاسكندر بعد دخوله مصر دون أن يغير منها شيئا فيما عدا تعيين مشرف يونانى (هو كليومينيس) على الشئون المالية يدفع إليه حكام المقاطعات ما كانوا يجمعونه من دخل .

وإذا كانت الظروف الجغرافية قد أعدت مصر ، التى أصبحت الاسكندرية عاصمة لها ، لكى تكون دولة تميل فى حكمها إلى الصفة المركزية الاستبدادية فقد كان للناحية الإدارية نفس الاتجاه . فمصر فى عهد الفراعنة كانت تحكم على أساس أن الفرعون هو مصدر جميع السلطات ، وأن له كافة الحقوق على شعب مصر وأرضها ، إذ هو أصلا ، بصفته إلها أو سليلا للآلهة ، الذى منح رعاياه كل ما يتمتعون به فى حياتهم ، كما بعث فى الأرض كل ما فيها من خصب ونماء ، وقد سقت فى مكان سابق أمثلة على هذا الحق . وقد اتخذ بطلميوس الأول منذ بداية حكمه ، سمت الفراعنة بكل ما يستتبعه ذلك من حقوق . وبنى نظريته فى هذا الصدد على أساس أن حكم الفراعنة لم ينقطع خلال أية فترة . فالإسكندر ، حين نصبه الكهنة المصريون ابنا للاله آمون فى معبد هذا الإله بواحة سيوة أصبح بذلك

فرعونا مصريا ، وأكتسب بصفته الإلهية كل حقوق الفرعون ، وبطلميوس حين أصبح ملكا على مصر إنما كان خليفة للاسكندر ، وبالتالى فرعونا على مصر - وهو وضع سيدعمه خلفاؤه من حكام البيت المالك البطلمى عن طريق تأليه أنفسهم ، كما رأينا فى مناسبة سابقة ، بكل ما يستتبعه هذا التأليه من حقوق ، أهمها الحكم الفردى المطلق .

كذلك فالناحية الدفاعية هى الأخرى وجهت حكومة مصر نحو النظام المركزى المستبد. فالظروف التى قامت فيها الدولة البطلمية ، والتى شهدت صراع قواد الاسكندرية وخلفائه حول تقسيم امبراطوريته كانت ظروفا شديدة قفزت بالاعتبارات العسكرية الدفاعية والهجومية إلى المقدمة . وقد كانت مثل هذه الظروف لا تسمح إلا بنظام يكون القائم فيه على الدولة قابضا على زمام الامور بها بشكل يمكنه من تسخيرها لخدمة هذه الاعتبارات العسكرية إذا اضطر إلى ذلك ، وهذا بالضرورة نظام لا يتأتى إلا فى ظل حكم مركزى مطلق .

والذى ينطبق على الناحية الدفاعية يصدق كذلك على الناحية الاقتصادية فالصراع الدائر فى العالم المتأغرق كان من شأنه أن يدفع البطالمة إلى الاعتماد على كل سلاح من الممكن أن ينتفعوا به ليكونوا على مستوى التحدى الدولى الذى يجابههم وقد كانت الثروة والامكانيات الاقتصادية تشكل ، دون نزاع ، أحد هذه الأسلحة . ومن هنا اتجه البطالمة إلى السيطرة على الاقتصاد المصرى وتوجيهه توجيها يكاد يكون كاملا - وهـــو أمر لا بد أن يؤدى ، هو الآخر إلى اتجاه مركزى فى الحكم .

وقد كانت الاسكندرية ، للاسباب التى أسلفت الاشارة إليها ، هى

أنسب الامكنة فى مصر لكى تكون مقرا لهذه الحكومة التى اتجهت ، بحكم الظروف ، اتجاها مركزياً ، مطلقا . وهكذا اكتسب الاسكندر الجانب الأول ، الذى كان استمرارا للاتجاه الشرقى الفرعونى فى جانب السياسة .

٣ - الوضع السياسى للاسكندرية كمدينة يونانية

ولكن الاسكندرية كانت مدينه أنشأها الاسكندر على النمط اليونانى ، شأنها فى ذلك شأن بقية المدن التى أنشأها خلفاء الاسكندر فى مصر وفى غير مصر ، وقد كانت للمدن اليونانية كيانها المستقل القائم بذاته ، الذى هو فى الواقع كيان دولة ، وهو وضع لا بد أن يتعارض مع نظام الحكم المركزى الذى سار عليه هؤلاء الخلفاء الذين أصبحوا حكاما للعالم المتأغرق فماذا كان من أمر هذه المدن ؟

لقد بقيت هذه المدن محافظة على المظهر التقليدى لنظام دولة المدينة ، ولكنها فقدت ، بالضرورة ، مضمونة ، فالتقسيم القبلى (الذى كانت تقوم عليه إدارة دولة المدينة) وجـد ، ولكنه أصبح مجرد تقليد أو يكاد ، ولم تعد له الصفة الجوهرية التى كانت تتجلى فى فترة ازدهار نظام المدينة فى توزيع مناصب القيادة العسكرية فى المدينة بين القبائل مثلا ، والملعب gymnasion وجد ولكنه لم يعد حجر الزاوية فى تكوين المواطنين فى فى فترة التدريب العسكرى ephebeia التى كانت إحدى مقومات حق المواطنة - بعد أن أصبحت الجنود المرتزقة هى عماد الجيوش فى العهد المتأغرق ، والأرض chora كانت هى الاخـرى موجودة حول المدن اليونانية الجديدة فى كثير من الاحوال ، ولكن غرضها الاساسى ، وهو

أن تكون، كمورد إقتصادى، إحدى الدعامات الأساسية لنظام دولة المدينة، لم يعد أمراً طبيعياً فى ظل نظام الملكيات الكبيرة التى تعتمد على موارد أوفر بكثير من الموارد التى عرفتها المدن اليونانية فى عصر دولة المدينة ، والذى تحول فيه الدور الاقتصادى للمدينة اليونانية من دور إنتاجى إلى دور توزيعى محض بعد أن انتقلت الطاقة الإنتاجية أساسا إلى الريف ، وهكذا تعرض هذا الجانب الجوهرى من جوانب نظام المدينة إلى مجرد شكل يظهر أو يختفى حسبما يتراءى للحكومة المركزية .

وأخيراً وليس آخراً فقد كانت هناك مسألة المجالس التشريعية ، وهى حجر الأساس فى نظام المدينة اليونانية ، والأدلة متوفرة على وجود هذه المجالس فى كثير من هذه المدن . ولكن رغم وجود هذه المجالس فقد كانت السلطة الأساسية ، كما أسلفت ، مركزة دائما فى يد القوة الكبيرة المسيطرة على أمثال هذه المدن . بدأ ذلك منذ أن أصبح فيليب الثانى المقدونى زعيما إجباريا للحلف اليونانى المكون من المدن اليونانية غداة انتصاره عليها فى موقعة خيرونيه عام ٣٣٨ ق . م . واستمرت بعد ذلك فى عهد الاسكندر الذى ورث زعامة هذا الحلف عن أبيه والذى اتجه ، رغم احتفاظه من ناحية الشكل بصفه الزعامة ، إلى التدخل فى شئون المدن المكونة للحلف بشكل يقترب كثيرا من الحكم المركزى الذى أصبح القاعدة التى سار عليها خلفاء الاسكندر فى العصر المتأغرق .

وهكذا لا يمكن أن نتصور مثلا أن تمتد سلطة المجالس الشريعية إلى مناقشة أمور تتعلق بالأمن الداخلى أو بالدفاع عن البلاد أو بإعلان حرب

أو عقد سلام أو تشكيل اتجاه سياسي خارجى ، وإنما ستقتصر سلطة هذه المجالس على أمور داخلية لا يمكن أن تخرج كثيرا عن نطاق الاحتياجات اليومية للسكان ، أو تنظيم سياستهم الاجتماعية بشكل أو بآخر ، أو ممارسة بعض جوانب نشاطهم الترويحى أو الترفيهى ما دام ذلك لا يتعارض أساسا مع اتجاهات الحكومة المركزية — ومن هذه الزاوية يجب أن ننظر إلى الملامح اليونانية التى حافظت عليها هذه المدن كعناصر للاستهلاك المحلى فحسب ، تمكن مواطنيها من أن يقيموا نظاما إداريا محليا بحتا لا يختلف كثيرا عن نظام المجالس البلدية الذى نعرفه الآن ولكنه لا يتعدى ذلك إلى أى نشاط جوهرى ترى الحكومة المركزية من صالحها أن تظل مسيطرة عليه .

* * *

وفى ظل هذه الفكرة يجب أن ننظر إلى وضع الاسكندرية كمدينة يونانية . وفى هذا المجال إذا كان وجود بعض العناصر المميزة لنظام المدينة أمر ثابت كما هو الحال فى التقسيم القبلى للسكندريين وفى وجود أرض محيطة بها وتابعة لها وفى وجود الملعب وغيره من المظاهر الاجتماعية للمدن اليونانية ، (١٩٨) فإن الجانب الأساسى لهذا النظام ، وهو المجالس التشريعية ، لا يزال يحيط به قدر غير قليل من الغموض . وفى السطور التالية سأحاول أن أناقش هذه المجالس من ناحية قيمتها الدستورية فى ظل الحكم المركزى المطلق الذى أسلفت الاشارة إليه ، وسأتناول فى المقام الأول المجلس الشعبى أو الجمعية الشعبية ، ثم أنتقل منه إلى مجلس الشورى أو مجلس الشيوخ .

---

(١٩٨) Jones, A.H.M.: Cities of the Eastern Roman Provinces. pp 303 ff. Bevan: A Hist. of Eg. under the Ptol .Dynatsy. pp. 91 ff.

واللفظان اللذان يطلقان عادة على المجلس الشعبي هما ديموس demos (ومعناها الحرف الشعب) أو الإكليزيه ekklesia أما عن كلمة ديموس فنحن لا نصادفها بالمرة فى النصوص التى تتعرض لتاريخ الإسكندرية ، سواء بالاشارة أو التفصيل ، والمناسبة الوحيدة التى ورد فيها هذا اللفظ هى نقش موجود بالمتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية يشير إلى قرارات اتخذها الديموس ومجلس الشورى ؛ وقد قيل فيما يتعلق بهذا النص أنه لا ينتسب إلى الاسكندرية وأنه ربما يشير إلى مجالس رودس ، وإن كان جوجيه قد حاول بقدر كبير من النجاح أن يثبت أن اللهجة الدورية التى تميز لغة الرودسيين لا أثر لها فى النقش ، وأنه لا يوجد به ما ينقض نسبته إلى الاسكندرية . ورغم أنى أرى شخصيا ، اعتمادا على ملامح النقش ومقاييسه ، أنه ينتسب إلى الاسكندرية ، إلا أنى سأترك هذا جانبا لأننا لا نملك من وسائل تحقيقه بالأدلة المادية المقارنة ما يقوم مقام الافتراضات الحالية (١٩٩). أما كلمة إكليزية فإنها ترد فى بعض هذه النصوص ولكن دون أن تعطى المعنى التقليدى الذى يشـــير إلى التنظيم الخاص للمجالس الشعبية كما نعرفها فى العصر اليونانى ، وعلى هذا فلا يمكننا أن نعتمد على هذه النصوص فى مناقشة الفكرة التى نحن بصددها .

على أن كلمة أخرى تقـــترب بعض الشىء من معنى المجالس الشعبية بدأت تتردد فى النصوص المتعلقـــة بالشطر الأول من العصر المتأغرق

---

(١٩٩) Lutfi A. W. Yehya : On tne Question of the Alex_ andrian Sena e in Ptolemaic Egypt, Bull.of the Faculty of Arts, Alexandria University, 195

بوجه عام ، وتظهر فى تلك التى تشير إلى مدينة الاسكندرية ـ هذه الكلمة هى « المقدونيون » وقد كان طبيعيا أن تظهر هذه المجالس فى هذا الوقت بالذات ، إذ كانت الصفات العسكرية المقدونية لا تزال مسيطرة على حكام الممالك المتأغرقة فحكام هذه الممالك كانوا من القواد المقدونيين ، ونظام الجيش المقـــدونى وتقاليده كانت لاتزال سائدة فى ممالك هؤلاء الحكام وفى جيشهم فى بداية العصر المتأغرق . وهذه المجالس التى يشـــير اليها لفظ hoi Makedones أو مرادفاته تمثل تقليدا عرفه الحكم المقدونى منذ بدء ظهور مقدونية ، ثم انتقل مع قواد الاسكندر إلى الممالك المتـــأغرقة التى أصبحوا ملوكا عليها . وكان هذا اللفظ يطلق على القوات المسلحة المقدونية مجتمعة فى هيئة مجلس ، وكانت هذه القوات ، بهذا الوضع ، هى التى تمنح السلطة الرسمية للحكام . وهكذا كان لا بد من انعقاد مجلس المقدونيين هذا عند اعتلاء الملوك المقدونيين للعرش ، وفى حالة ما إذا كان الملك قاصرا كان هذا المجلس هو الذى يختار الوصاة ، كما كان يعقد فى هيئة محكمة فى حالات الخيانة العظمى .

هذه المجـالس انعقدت فى بعض المناسبات عندما كان الاسـكندر فى آسية ، ومن بينها المجلس الذى عقد فى بابل ، غداة موت الاسكندر ، لينظر فى مصير امبراطوريته . وقد زادت سلطاتها فى عهد خلفاء الاسكندر بشكل واضح . ومن المرجح أن بطلميوس الاول لجأ إلى مجلس من هذا النوع عندما أراد أن ينقل ولاية عهده من بطلميوس كراونوس ابنـه من زوجته يوريديـكى إلى بطلميوس ابنه من زوجته برنيكى . ويروى لنا المؤرخ بوليبيوس فيما يتعلق بانعقاد المجلس عند ارتقاء بطليموس الخامس

(إبيفانيس) العرش أن الوزير يوسبيوس هو وأجاثوكليس ، احد رجال البلاط المقربين من بطلميوس الرابع ، قرأوا فى الصالة الكبرى بالقصر الملكى أمام رجال القصر وضباط المشاة والفرسان وصية الملك الراحل الذى يجعلهم فيها أوصياء على ابنه القاصر ، ثم يذكر لنا كيف أن أجاثوكليس هذا حاول بعد ذلك أن يقدم الملك القاصر أمام « المقدونيين »(٢٠٠).

كان هذا هو المجلس الذى يقرب نظامه إلى حد ما من الفكرة العامة للمجلس الشعبى والذى عرفته الاسكندرية فى الشطر الأول من العصر البطلمى . وهو مجلس له بعض السلطات السياسية كما رأينا ، ولكنه لا يمثل إلا الجنود وضباطهم ، بينما كانت المجالس الشعبية التقليدية التى عرفها العصر اليونانى تضم جميع المواطنين ، ثم إن مجلس المقدونيين هذا يبدو أنه كان لا يجتمع إلا لأمر خطير طارىء يحتاج إلى حل حاسم ، بينما كانت المجالس الشعبية التقليدية تعالج جميع ما يعن للمدن من مشاكل داخلية وخارجية .

على أن هذا النوع من المجالس كان لا يمكن أن يستمر فترة طويلة فى الاسكندرية أو فى غيرها من مدن العالم المتأغرق ، فبعد جيل أو جيلين فقد المقدونيون فى مصر كل صلة بالجو المقدونى الذى كان فيه مجلس

---

(٢٠٠) Polyb.: xv, 25 a; 26, 1—9. أنظر تعليق : Jouguet : Les Assemblées d'Alexandrie a l'Epoque Ptolemaique, Bull. de la Soc d'Arch, d'Alex, 1948. p 81 & n, 28

المقدونيين يمثل نوعا من التماسك أو التجاوب بين الصفة المدنية والصفة العسكرية . بل لقد ابتعدت جيوش الممالك المتأغرقة شيئا فشيئا عن التقاليد المقدونية بعد أن بدأت تضم بين جنودها أعدادا كبيرة ومن غير المقدونيين من سكان شواطىء البحر المتوسط ومنهم ، فى حالة مصر ، كثير من المصريين الذين فتحت أمامهم فرص الترقية حتى وصلوا الى أعلى مراتبها بما فى ذلك صفوف الحرس الملكى .

* * *

وهكذا أخذت الإشارة إلى هذا المجلس تقل تدريجيا فى الكتابات التى عاصرت أو تناولت تلك الفترة . حتى إذا انتهى عهد إبيفانيس لم يعد من الممكن العثور على الألفاظ التى كانت تستخدم للدلالة عليه[٢٠١]. وإنما أخذت تحل محلها فى القرنين الثانى والأول ق م لفظة جديدة هى « السكندريون » Alexandreis فى المناسبات التى تظهر فيها الحاجة إلى نوع من التصرف السياسى ، والتى لا يكون فيها الملك أو كبار موظفيه ، لسبب أو لآخر ، هم القائمون بهذا التصرف أو الموجهون له .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، ففى ١٦٩ ق م. حين هدد أنتيوخوس

---

(٢٠١) من هذه الألفاظ hoi Makedones وتصريفاتها أنظر :
Arrian.: Anab. III. 26, 7; IV, 14. 2. Diod, XVI, 3, 1; XVIII, 36, 7; Plut., Alexandros 55, Eumenes, 8, 12; Polyaenus, iv, 6, 14;
ومنها كذلك koine ekklesia أنظر : Diod.: XVII, 39, 4; xix,
15, 1 وكذلك Koine ton Makedonon ekklesia أنظر :
Diod.: XIX, 51, 1, 61, 1.

الرابع مصر ، وسقط بطلميوس فيلوميتور بين يدى العدو • نجد « السكندريين » يضعون زمام الأمور فى يد أخيه الأصغر الذى سيشارك أخاه فى الملك تارة على عرش مصر وتارة فى حكم برقة حتى ١٤٥ ق م. وحين يموت فيلوميتور فى تلك السنة نجد وفداً من هؤلاء « السكندريين » يقوم بتسليم هذا الأخ الأصغر شئون الحكم فى مصر تحت اسم يوارجيتيس الثانى . وعندما يموت هذا الملك فى ١١٦ ق.م. تاركا ولدين ووصيه يعهد فيها إلى أرملته كليوباترة الثالثة باختيار أحدهما ملكا لمصر ، نجد « السكندريين » يجبرونها على اختيار أكبرهما ، سوتير الثانى ، للعرش بينما يترك الابن الأصغر أمر الحكم فى قبرص ، وفى ١٠٨ نجد هذه الملكة التى كانت تحكم مع ابنها ، تقوم بطرده بمعاونة هؤلاء السكندريين أنفسهم الذين أجبروها منذ ثمانى سنوات على اختياره للعرش ، ثم لا تلبث أن نجد وفدا منهم يستدعيه ليعود للحكم مع ابنته برينيكى الثالثة .

كذلك يبـــدو محتملا أن السكندريين هم الذين قاموا فى ٥٧ ق.م. بطرد بطلميوس أوليتيس وأعطوا التاج لابنته كليوباترة الرابعة ، كما أخذوا يبحثون لها عن زوج من بين الأمراء السوريين ، ولكى يدعمـــوا موقفهم هذا ضد أوليتيس أرسلوا إلى رومه وفدا مكونا من مائة عضو تحت رئاسة العالم السكندرى ديون الذى نجح أوليتيس فى اغتياله (٢٠٢) .

(٢٠٢) Strabo: xvii, c, 796. Dio Cass., xxxix 12, 2 — 13,1. Bouché Leclerq: ii, p. 147 Jouguet : Les Assemblées d'Alexandrie a l'Epoque Ptolemaique, Bull.de la Soc. d'Arch. d'Alx., 1948, p. 48 f.

وهناك ، غير هذه ، أمثلة كثيرة يظهر فيها السكندريون سواء باسمهم اليونانى الذى أسلفت ذكره أو بمرادفه اللاتينى Alexandrini الذى عرفهم به الرومان أو بمرادفات أخرى يونانية أو لاتينية أصبحت تطلق عليهم وتفيد معنى الشعب أو العامة مثل plethos و ochlos اليونانيـــة و multitudo و populus اللاتينية (٢٠٣) .

ولكن من هم هؤلاء السكندريون ؟ وهل كان لهم التنظيم الذى عرفت به المجالس التشريعية فى العصر الذهبى لنظام المدينة ؟ إن الجالية اليونانية السكندرية كان لها تنظيم مدنى politeuma على جانب كبير من الدقة ، فقد كانت مقسمة إلى قبائل تنقسم بدورها إلى أحياء ثم إلى عشائر على النظام التقليدى المدن اليونانية . كذلك يبدو من تنظيمها أنها كانت لاتضم كل من أراد الالتحاق بها وإنمـــا كانت تقتصر على عدد محدود هم الذين تسجل أسماؤهم فى سجلات الأحياء أو المناطق ، أو الذى ينتظرون تقييد أســـمائهم فى هذه السجلات وهؤلاء هم الذين كان لهم حق الاشتراك فى النشاط السياسى ، أما اليونانيون الآخرون الذين يخرجون عن نطاق هذه الشروط ، فانهم لا يتمتعون إلا بالحقوق المدنية كذلك كان لا بد لأعضاء هذه الجالية من إعداد موجه منظم حتى يصبحوا مواطنين عاملين ، فقبل أن يحصلوا على حقوقهم المدنيـــة والسياسية كان عليهم أن يمروا بفترة من التدريب والتثقيف

---

(٢٠٣) Jouguet : op. cit., p. 86.

العسكريين ephabeia تؤهلهم للتمتع بهذه الحقوق [٢٠٤] .

هذا التنظيم الدقيق يوحى بأن السكندريين الذين رأيناهم يأخذون على عاتقهم توجيه الأمور فى الأمثلة التى ذكرتها آنفا ، كانوا يمارسون نشاطهم السياسى هذا كمجلس منظم . ولكن بعض المناسبات التى تمت فيها هذه الاجتماعات السياسية تشير بوضوح إلى أن الذين كانوا يجتمعون فى هذه المجالس لم يقتصروا على « السكندريين » بتنظيمهم الضيق الذى أشرت إليه وإنما كانوا يضمون بينهم عناصر يونانية أخرى من سكان الاسكندرية الذين لم يكن يشملهم هذا التنظيم . بل تشير بعض هذه الأمثلة إلى أن الغوغاء الذين كانت تزدحم بهم شوارع المدينة ، كانوا هم الآخرون يدعون إلى هذه الاجتماعات . يبدو هذا واضحا من حديث المؤرخ ديون كاسيوس عن المناسبه التى أعلن فيها بطليوس السادس الحرب على أنتيوخوس الرابع . وفى هذه المناسبة يصف لنا كيف قام يولايوس ولينايوس ، الأوصياء على الملك ، بدعوة العامة ليحثوا الملك على الموافقة على إعلان الحرب [٢٠٥] . بل أكثر من هذا نجد أن هذه الاجتماعات لم تكن تقتصر على المدنيين ، وإنما يكاد يكون من المقطوع به أن عناصر

---

(٢٠٤) Ibid : .Id. انظر كذلك M.A.H.El- Abbadi : The Alexandrian Citizenship (Journ. of Eg., Arch.,1962) صفحات ١٠٧ وما بعدها
راجع الباب الخاص بالوضع الاجتماعى فى الاسكندرية فى نهاية هذا القسم ، وفيه تفصيل للآراء المختلفة حول وضع السكندريين .

(٢٠٥) Dio Cass.: xxx. 16.

عسكرية كانت تختلط بالمجتمعين بشكل غير منتظم أو منظم وبخاصة فى فترات الاضطراب ، وهكذا أمكن ليوليوس قيصر أن يكتب فى ٥١ ق. م. أن جنود مصر كانت لديهم عادة طرد الملوك الذين لا يرضون عنهم وتعيين آخرين مكانهم (٢٠٦) وهو فى هذا المجال ليس بصدد الحديث عن مجالس عسكرية منظمة ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما يصف هذه الحركات التى يشترك فيها الجنود كثورات غير منظمة . كذلك مما ينفى الصفة العسكرية المنظمه عن هذه الاجتماعات الصاخبة أن قيصر حين أراد إقرار كليوباترة السابعه وبطلميوس الثالث عشر على عـــرش مصر ، أعلن ذلك أمام السكندريين مجتمعين فى هيئة مجلس ekklesia ولا يمكن أن يكون الكلام عن مجلس عسكرى ، إذ قد حدث ذلك بعد أن حمل جنود البطالمة السلاح ضده فى بلوزيون (٢٠٧) .

كان هذا هو مجلس السكندريين وهو كما رأينا لا يمكن أن يوصف بأنه مجلس منظم بالمعنى الذى ينطبق على المجالس التشريعية التى عرفها عصر نظام المدينة ، كما أنه لا يقتصر فى تكوينه على من لهم حقوق المواطنة السكندرية ، وإنما يضم إلى جانب هؤلاء عناصر أخرى مدنيــة وعسكرية

---

(٢٠٦) Caes .: de Bell. Alex. III, 110 . وليس معنى هذا بطبيعة الحال أن الجنود لم يكن بينهم مواطنون يحملون الصفة السكندرية أنظر :
El - Abbadi : op . cit ., : وراجـــع تعليق P. Hamburg, 168
ص ١٠٩

(٢٠٧) Dio Cass. XLII. 35, 4-5 Jouguet; B S.A. A., 1948. p. 86.

غير منظمة . كذلك نلاحظ أن المناسبات التى يظهر فيها إلى حد ما ، كموجه لسياسة البلاد ، تكاد تقتصر على فترات الاضطراب التى تصحب انتقال العرش من ملك إلى ملك أو التى يسببها النزاع الأسرى بين أفراد البيت الحاكم البطلمى ، وما يتبع ذلك من دسائس ومكائد ومؤمرات . أما فيما عدا ذلك فلا نكاد نشهد مجلس السكندريين هذا يشترك فى تصريف أمور البلاد فى الأوقات التى يتم فيها الاستقرار .

ولكن مع ذلك فقد كان المجلس ذا كيان معنوى معترف به بشكل رسمى أو على الأقل شبه رسمى ، يظهر ذلك من حرص قيصر على عقده وإعلانه بتثبيت كليوباترة السابعة وأخيها على العرش كما ذكرت ، كما يظهر فى مناسبة أخرى حين جمعه أنطونيوس ، بصفته زوجا لكليوباترة ليعلن أمامه توزيع أجزاء من الامبراطورية الرومانية (أو الأقاليم الداخلة فى دائرة نفوذها) على كليوباترة وأبنائها (٢٠٨) . ولكن إذا كان هذان المثلان يظهران أن لهذا المجلس كيانا رسميا رغم عدم تحديده أو تنظيمه على الأقل فى بعض المناسبات ، فانهما يظهران كذلك أن سلطته ، فى غير

---

(٢٠٨) Dio Cass.: XLIV. 41. L. 5. 1 ; plut: Ant. 54.

هذا ولن أتكلم هنا عن مجلس الجيروسيا، ففوق أن النص الذى يذكر هذا المجلس مهلهل بشكل يجعل الاعتماد عليه أمراً غير مقبول نجد أن اشراف هذا المجلس ربما كان أدبيا أو أخلاقيا أكثر منه سياسيا أو اداريا . أنظر :

A. v. premersteïn. : Alexandriche Geronten von Katsar Gaius, Mltt. aus d. Papyrussammlung der Gierssen Universitaetsbibliothek. v. p. 57 — 61 ; Jouget Les Assemblées d' Alex. à l' Epoque Ptolemaique, 1948, p. 90 & n. 64.

أوقات الاضطرابات ، كانت سلطة إسمية فحسب ، إذ من الواضح أن موقف أعضائه من إعلان كل من قيصر وأنطونيوس لم يكن موقف المناقش الذى له حق التعديل أو الرفض الى جانب حق الموافقة ، وانما كان موقفا لا يمكن أن يزيد كثيرا عن مجرد استكمال للرسميات التى جرى بها العرف أو رسمها القانون ، وقد لا أخطىء كثيرا اذا قلت ان ما رأيناه فى هاتين المناسبتين لا بد أن ينطبق الى حد كبير على فترات الاستقرار المتناثرة فى الفترة التى سبقت تدخل كل من قيصر وأنطيونيوس .

* * *

على أن مجلس المقدونيين ومجلس السكندريين لم يكونا المجلسين الوحيدين الذين عرفتهما مدينة الاسكندرية ، فقد كان هناك كذلك مجلس للشورى Boule . حقيقة لقد ثار الخلاف حول وجود هـذا المجلس أو عـدم وجوده ، وقد بدأ المؤرخ مومسن Momsen هذا الإشكال حين ذكر أن وجود المجالس التشريعية لا يمكن أن يتفق والاتجاه المركزى الاستبدادى الذى سار عليه البطالمة فى حكمهم ، واستنتج من ذلك أن مثل هذه المجالس لم توجد لا فى الاسكندرية ولا فى غيرها ، وتبعه فى رأيه هذا عدد من المؤرخين من بينهم بوشيه ـ لـكلرك ، وتارن الذى قرر أن المدن اليونانيه التى أسست فى العهد المتأغرق لم تـكن فى نظامها مدنا يونانية بالمفهوم الذى ساد فى عصر دولة المدينة ، وإنما كانت مدنا من نوع جديد (٢٠٩) .

---

(٢٠٩) Momsen : Roemische., Gesch v, p. 557; Bouché — Leclerq : Hist. des Lagides. III. pp. 152ff, Tarn ; Hellenistic Civlisation (3rd. ed.). p. 185.

ولكن مع ذلك فان كل الشواهد تشير إلى وجود هذا المجلس وإلى أنه كان أحد عناصر نظامها منذ فترة تأسيسها ؛ ومن هذه الشواهد الخطاب الذى وجهه الامبراطور كلاوديوس إلى السكندريين (٢١) . والذى يقول فيه ، فى أثناء مناقشته لالتماسهم بخصوص إقامة مجلس للشورى ، « أما عن أنكم كنتم تتمتعون بمجلس للشورى فى عهد ملوككم الاقدمين فهذا أمر لا أريد أن أخوض فيه » . وواضح من الرد أن السكندريين ذكروا أن مدينتهم كان لها مجلس للشورى فى عهد الملوك البطالمة ، ولا يمكن أن نتصور أنهم كاذبون فى دعواهم ، إذ لو كان الأمر كذلك لما تردد كلاوديوس فى أن يواجههم بكذبهم ولكان رده عليهم أنهم يطلبون إليه مالم يستطيعوا الحصول عليه من ملوكهم وبنى جلدتهم ، بدلا من أن يلجأ إلى مداورتهم ليتخلص من الطلب الذى أحرجوه به ، كما يظهر لنا من كلامه حين يذكر لهم فى نفس الرسالة : أن هذه هى المرة الأولى التى يتقدمون فيها بمثل هذا الطلب وأنه لا بد أن يدرسه فى ضوء مصلحته الخاصة وتبعا لما يعود على المدينة بالخير والنفع . أما عن تجاهله لفكرة وجود هذا المجلس تحت حكم البطالمة ، فهذا أمر إن دل على شىء فانما يدل على أنه يريد الافلات من حجة دامغة فى يد السكندريين وهى أن المجلس قد وجد فعلا فى فترة ما ، وأن التجاهل هو طريقته فى التهرب من الرد على هذه الحجة .

---

(٢١٠) Bell; (P. Lond.), Jews and Chrtstians in Egypt, 1924, Hunt & Edgar; Select Papyri, II, no. 212, p. 84 66 - 72

هذا ، وليس خطاب كلاوديوس هو الشاهد الوحيد على وجود مجلس الشورى السكندرى ، وإنما توجد إلى جانبه أدلة قياسية وأخرى استنتاجية . فمجالس الشورى وجدت فى عدد كبير من المدن التى قامت فى العصر المتأغرق على النمط اليونانى سواء فى مصر أو فى خارجها ، ومن بين هذه المدن برغامة وأنطاكية فى خارج مصر ، وبطوليمايس فى داخلها ، وفى هذه الأخيره عثر فى ١٨٩٦ على ثلاثة قرارات صادرة من المجلس الشعبى ومجلس الشورى بها (٢١١) . كذلك كانت الظروف التى أحاطت بقيام الدول المتأغرقة تشجع على إنشاء مثل هذه المجالس ، فحكام هذه الدول كانوا يعملون جاهدين على اجتذاب الاغريق لكى يهاجروا إلى دولهم ويقيموا ويستقروا بها ، إذ كانوا يعتمدون فى تأسيس ملكهم على ما لهؤلاء المهاجرين من دراية عسكرية لم ينسوا أن الاسكندر استطاع بالاعتماد عليها أن يقيم امبراطورية مترامية الأطراف ، وعلى ما كان لديهم من خبرة فى الجوانب الادارية والاقتصادية والفنية وغيرها . وطبيعى أن يعمل هؤلاء الملوك على إيجاد الجو الذى تتوفر فيه كل أو أغلب دواعى الاغراء لهؤلاء المهاجرين ، وهو جو دولة المدينة اليونانية الذى ظل اليونان على تعلقهم به حتى بعد أن أصبح نظام دولة المدينة شكلا فقد موضوعه بعد ظهور القوة المقدونية ـ وقد كانت المجالس التشريعية دون شك هى أهم مقومات هذا الجو اليونانى .

ونحن لا نعرف شيئا عن تكوين هذا المجلس ، ولكنه بالقياس على ماكان معروفا فى المدن اليونانية لن يكون تكوينه على النطاق الواسع

---

(٢١١) Jouguet :op. cit. p. 78

الذى عرفته مجالس العامة التى ينتمى إليهـا مجلس السكندريين الذى سبق ذكره ، وإنما ستكون عضويته على نطاق ضيق بطريقة تقصر هـــذه العضوية على المواطنين الذين يتميزون بواحدة أو أكثر من ميزات السن أو الثروة أو المكانة . ولا أريد أن أقول هنا إن مجلس الشورى السكندرى كانت له نفس القوة أو نفس المجال الذى عرفته مجالس الشورى فى عصر ازدهار دولة المدينة ، أو أنه استطاع أن يقف من الناحية السياسية ، فى وجه الاتجاه الاوتوقراطى الذى دمغ حكومات العالم المتأغرق والذى سار البطالمه عليه ؛ ولكن هذا المجلس بتكوينه هذا وعضويته المتميزة كان دون شك على جانب لا بأس به من الوزن الأدبى الذى قد يصبح معه يوما ما نواة تتبلور حولها مصالح المواطنين السكندريين ، وقـــد يكون هذا هو السبب الذى من أجله حل هذا المجلس فى فترة غير معلومة أثناء الحكم البطلمى ، وهو ترجيح يشير اليه أكثر من دليل ، رغم مايحيط بهذه المسألة حتى الآن من غموض واختلاف فى الرأى .

والأدلة على اختفاء مجلس الشورى فى أثنـــاء العهد البطلمى غير قليلة ، سواء تلك التى تقوم على تفسير بعض الوثائق وكتابات المؤرخين القدماء الذين أشاروا إلى هذا المجلس ، أو التى تستمد قوتها من الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى أخذت تتبلور نحو أواسط العصر البطلمى . وفى معالجتى للنـــوع الأول من الشواهد ولنسمها بالشواهد الكتابية ، سأختار النصوص الثلاثة التى لا يحيط أى شك أو غموض بألفاظها أو نوع كتابتها أو الوقت الذى تنسب اليه (٢١٢) ، بحيث تصبح مادة صالحة للمناقشة :

---

(٢١٢) هناك نصان لا يمكن الاعتماد عليهما كليا لما يحيط بهما من غموض أو نقص ،

وسأبتدىء بنص يذكر فيه المؤرخ ديوكاسيوس أن أوكتافيان ، عند فتحه لمصر ، ترك الإدارة على ما هى عليه ولكنه « أمر بأن يمارس السكندريون حياتهم السياسية دون أن تكون لهم عضوية مجلس الشورى » (٢١٣). وقد يفسر ذلك بأن مجلس الشورى السكندرى كان لا يزال قائماً فى الوقت الذى تم فيه فتح مصر على يد الرومان وأن أكتافيان أمر بحله ، وهو تفسير قوى ومعقول ، ولكنه ليس التفسير الوحيد ، فقد يكون معنى النص كذلك أن السكندريين طلبوا اليه أن يعيد اليهم هذا المجلس ، ولكنه رفض مطلبهم وأمر بأن يمارسوا حياتهم السياسية بدونه .

على أن هذا التفسير الأخير قد لقى اعتراضات من موريتس إنجرز Maurits Engers الذى أشار الى أن الخوف الشامل الذى سيطر على السكندريين غداة انتصار أوكتافيان عليهم والذى صوره بلوتارخوس أدق

= الأول نقش نشره E. Breccia فى : Iscrizione Grechee Latine, no. 146. pl. XXVI. 64 وقد حاول Plaumann تكميله ودراسته تحت عنوان Bemerkungen zu den Aegyptischen Eponymen Datierungen aus Ptolemaisher Zeit, (Klio XIII) pp. 485-90 أنظر تعليق Jouguet: op. cit ; Lutfi A-W. Yehya: op. cit, p.72 أما النص الثانى فتتضمنه بردية نشرها Vitelli & Norsa فى مجلة Bull de la Soc. d'Arch. d'Alex. xv. suppl وأعاد التعليق عليها فى العدد ١٧ من نفس المجلة

أنظر كذلك عن هذا النص J H. Oliver: Aegyptus xl pp. 165-7

Jouguet op. cit.: Lutfi A-W Yehya: op. cit., pp. 73-4

(٢١٣) Dio Cassius: Ll. 17

تصوير ، لا يمكن أن يجرؤا معه على التقدم اليه بمثل هذا المطلب .

وحقيقة أن بلوتارخوس يذكر لنا أن السكندريين كانوا فى ذهول تام من الخوف بعد هزيمتهم وأنهم لقوا قاهرهم ساجدين فى خشوع وخضوع عندما دخل مدينتهم بعد انتصاره (٢١٤) . ولكن هذا جانب واحد من الصورة ، أما الجانب الآخر الذى يصوره بلوتارخوس نفسه ، والذى يشترك معه ديون كاسيوس فى تصويره ، فيرينا موقفا آخر ، نرى فيه أوكتافيان وقد عفا عن السكندريين ، بل نراه يعلنهم بهذا العفو فى خطاب حرص على أن يلقيه بلغتهم اليونانية ، وضمنه إلى جانب إعلان العفو ، إظهار إعجابه بجمال مدينتهم وتقديره لعظمة مؤسسها . ثم نراه يعيد اليهم أسراهم دون أن يلحق بهم أى أذى ، ويكرم آريوس ، احد فلاسفتهم الظاهرين، الذى اصطحبه اوكتافيان اثناء إقامته بالمدينة ، واستمع إلى آرائه وأظهر تقديره لشخصيته بأكثر من طريقة (٢١٥) .

إن هذا الجو يخالف دون شك الصورة الأولى التى اعتمد عليها إنجرز فى اعتراضه ، فهو جو مشجع إلى حد كبير ، ولا يستبعد أن يعمل السكندريون على الانتفاع به لصالحهم ، وبالفعل نجدهم ، بعد أن استعادوا شيئا من طمأنينتهم يحاولون أن يؤثروا على أوكتافيان وأن يجتذبوه إلى جانبهم ، فبعد أن يزور قبر الإسكندر نجدهم يدعونه الى زيارة قبور

---

(٢١٤) M. Engers: Der Brief des Kaisers an die Alexandriner, Klio, XX. p. 171; Plut: Anton; LXXX

(٢١٥) Plut.: Ibid; Dio Cassius: LI. 163-5

ملوكهم والى زيارة معبد حابى (أبيس) (٢١٦) . وليس غريبا فى وسط هذا الجو المشبع بمحاولة التقرب والتواد من الجانبين ، أن يطلب السكندريون الى أوكتافيان أن يعيد اليهم مجلس الشورى الذى تمتعت به فى يوم من الأيام مدينتهم التى نوّه بجمالها .

وهنا قد يقول قائل : اذا كان أوكتافيان قد أتبع مع السكندريين سياسة الاستمالة ولين الجانب ، فلم لم يحقق رغبتهم هذه التى تقدموا بها اليه ؟ والجواب على هذا عسيراً ، فأوكتافيان كان يعرف أين تنتهى سياسة اللين وأين يجب أن تبدأ سياسة الحزم . وقد ظهر ذلك واضحا فى معاملته للسكندريين ؛ فهو قد زار قبر الاسكندر مثلا ، ولكنه رفض دعوتهم لزيارة قبور البطالمة لما قد يكون فى ذلك من معنى الاعتراف بهؤلاء الملوك أو بسياستهم ، وهو أمر لم يكن يريده ، وهكذا كان جوابه الحازم الحاسم فى هذه المناسبة هو أنه جاء « لزيارة ملك (يقصد الاسكندر) وليس لزيارة قبور الموتى » (٢١٧) . كذلك كان أوكتافيان يدرك ، على حد ما يذكر لنا ديون كاسيوس ، أن مصر بلد وفير السكان ، وأنه قد ينتفع بهذه الوفرة العددية فى ظرف أو فى آخر ، وأنه لهذا ليس من الخير أن يلحق بهم أذى لا مبرر له قد يكون سبب مضايقة له من جانبهم فى يوم من الأيام ، وعلى هذا اتجه مع سكان العاصمة المصرية الى سياسة الملاينة والمجاملة .

ولكن أوكتافيان كان يدرك كذلك ما لفتح مصر من قيمة فى تدعيم

---

(٢١٦) Plut.: Anton., LXXX

(٢١٧) Id. Ibid.

مركزه الجديد الذى أصبح فيه ، بعد قضائه على أنطونيوس ، سيداً للإمبراطورية الرومانية . فمصر بثروتها من الحبوب التى ستوفر لسكان روما ما يحتاجونه من الخبز اليومى ، وبموقعها الاستراتيجى الممتاز قرب الحدود الشرقية المضطربة للامبراطورية الرومانية ، وبمركزها التجارى المتوسط بين حوض البحر المتوسط وبين الشرق الغنى بخيراته - كل هذه المميزات جعلت منها مكسبا لا يمكن التفريط فيه . وقد ظهر حرصه هذا فى قراره الذى حرم فيه أفراد طبقة مجلس الشيوخ ، وهى الطبقة الأرستقراطية التقليدية (التى كانت لاتزال تتمتع بنفوذ أدبى كبير فى رومه رغم تركز السلطة الفعلية فى يد أوكتافيان) من أن يكونوا ولاة لمصر ، والذى اتخذ فيه ولاته عليها من طبقة الفرسان (مخالفا بذلك العرف السياسى الذى سارت عليه رومه فى هذا المجال) كما حرم فيه على أعضاء هذا المجلس أن يدخلوا الولاية الجديدة دون إذن صريح منه(٢١٨) إن أوكتافيان الذى اتخذ كل هذه الحيطات ليحافظ على كسبه الجديد ليس من المعقول أن يجيب السكندريين إلى تكوين مجلس قد يسبب له فى يوم من الأيام متاعب هو فى غنى عنها ، وبخاصة لما كان يعرفه عن المصريين والسكندريين بوجه خاص من ميل إلى الثورة والتمرد ، وهو أمر قد خبره شخصيا عقب فتحه لمصر مباشرة (٢١٩).

---

(٢١٨) أنظر عن هذه الاجراءات : عبد اللطيف احمد على ، نفس المرجع ، ص ٥٤ راجع تحليل موقف أوكتافيان فى مجلس الشيوخ الرومانى بخصوص مصر : لطفى عبد الوهاب يحيى ، مصر فى العصر الرومانى ، صفحات ٨ (وما بعدها .

(٢١٩) Dio Cassius: Ll, 16.

والنص الثانى الذى سأشير اليه يتضمنه خطاب كلاوديوس الذى أسلفت الاشارة اليه ، وسأورد هنا الجملة التى تهمنا أكثر من غيرها فى هذا الخطاب مكرراً ، لصالح المناقشة ، جزءاً منها ذكرته فى مناسبة سابقة ، وهذه الجملة هى قول كلاوديوس للسكندريين «أما عن تمتعكم بمجلس للشورى تحت حكم ملوككم الاقدمين فهذا أمر لا أريد أن أخوض فيه، ولكنكم تعلمون أنه لم يكن لكم مثل هذا المجلس تحت حكم الأباطرة الذين سبقونى »[٢٢٠] ويعلق مان Milne على هذه الجملة فيما يخص الفكرة التى أريد أن أثبتها ـ وهى أن السكندريين كان لهم مجلس للشورى من البداية ثم فقدوه على يد أحد ملوكهم من البطالمة ـ فيقول إنه إذا كان الأمر كذلك لما تردد كلاوديوس فى الاشارة إلى هذه الحقيقة حتى يتخلص من تلبية السكندريين إلى مطلبهم ، ولكانت إجابته الحاسمة فى هذا الموضوع : كيف تطلبون إلى أن أعيد لكم المجلس الذى رأى ملوككم وبنو جلدتكم ، الذين يعرفونكم أكثر من غيرهم ، أنكم لا تستحقونه ، فسحبوه منكم . [٢٢١]

ولكنى أريد تفسير هذه الجملة بشكل آخر أرى أنه لا يبتعد كثيرا عن الصواب ، مؤداه أن السكندريين حين ذكروا «ملوكهم الأقدمين» لم يقصدوا ملوكهم بوجه عام ، وهو التفسير الذى يقدمه ملن ، وانما قصدوا بذلك ملوكهم الأولين ليفرقوا بين هؤلاء وبين ملوكهم الأواخر والا فما لزوم وصفهم بالملوك الأقدمين ، اذا كان ليس هناك فى تاريخ السكندريين ملوك

---

(٢٢٠) Bell: op. cit., Hunt & Edgar : op. cit.

(٢٢١) Milne; A Hist. of Eg. under Rom. Rule, (3rd. ed.) 284.

جدد غير البطالمة . وهذا الإتجاه من جانب السكندريين إلى التفريق بين ملوكهم الاوائل والاواخر أمر أعتقد أنه يرتكز على أساس معقول ، فالبطالمة الأواخر قد اتخذوا من السكندريين فى كثير من الاحوال موقفا معاديا ساموهم فى أثنائه كثيرا من الإضطهاد والتعذيب ، كما حدث مثلا فى عهد بطلميوس يوارجيتيس الثانى الذى أغلق دار الحكمة وشتت العلماء السكندريين وأعمل التقتيل فى سكان المدينه حتى كاد يقضى عليهم ، ومثل بطلميوس الحادى عشر الذى أراد السكندريون أن يبعدوه عن العرش وقاسوا على يديه ، من جراء ذلك ، الكثير من الاضطهاد والتنكيل الذى هبط فى بعض الاحيان إلى مستوى اغتيال شخصياتهم بل وإلى الاستعانة بقائد رومانى وجنود رومانية فى احتلال مدينتهم (٢٢٢) . وإزاء هذا العداء المتبادل بين السكندريين وبين البطالمة الأواخر، وهو عداء كثيرا ما اتخذت رومه نفسها فى أثنائه موقف الحكم الذى يوفق بين خصمين أو يميل نحو أحدهما دون الآخر - إزاء هذا العداء أجد من المعقول أن يفرق السكندريون بين هؤلاء الملوك الأواخر وبين ملوكهم الاقدمين .

هـذا من جهة ، ومن جهة أخرى فأعتقد أن السكندريين كان لديهم سبب آخر قوى لهذا التفريق ، فهم قد عرفوا من خبرتهم الشخصية مع أغسطس (أوكتافيان) أن الاباطرة الرومان قد ازمعوا تجاهل البطالمة وما يتعلق بهم ، وأنهم لا يكنون لهم أى تقدير ، على نحـو ما ذكرت فى مكان سابق ، وأنهم على عكس ذلك يعترفون بعظمة الاسكندر ، مؤسس

---

(٢٢٢) Cicero: pro Caelio. 10,. pro Rabir., 8. 11: Dio Cass. xxxix, 58.

الاسكندرية وينظرون إلى أعماله بكثير من الاحترام والتبجيل . وإزاء هذا الوضع فمن الطبيعى ، إذا أراد السكندريون لمطلبهم أن يجاب ، أن يحاولوا ربطه بطريقة أو بأخرى بشخصية الاسكندر أو أولئك الذين ساروا على نهجه . وهكذا يربط السكندريون ازدهار مجلسهم الذى يبغون إعادته ، بعهد البطالمة الأوائل خلفاء الاسكندر الحقيقيين الذين اتبعـوا سننه وتمسكوا بتقاليده ، بينما يربطون فى ذهن الامبراطور فقدانهم لهـذا المجلس بعهد البطالمة الاواخر الذين حادوا عن الطريق التى سنها الاسكندر .

أما النص الاخير الذى سأورده فى هذا الصدد فهو ما ذكره المؤرخ سبارتيانوس من أن الامبراطور سبتميوس سفروس أقام للسكندريين مجلسا للشورى ، أما فى عهد من قبله من الاباطرة فلم يكن لهم هذا « تماما كما كان فى عهد الملوك » (٢٢٣) ، والنص يبدو قاطعا فى صراحته ويكاد لايترك مجالا للشك فى أن السكندريين لم يكن لهم مجلس للشورى فى عهد البطالمة . ولكنى لا أريد أن آخذ هذا النص على علاته كتعبير دقيق عن حقيقة لا تقبل المجادلة . والسبب فى ذلك أن الرومان لم يكن لديهم اهتمام كبير بمعرفة شئون مصر أو أمورها الداخلية فى عهد البطالمة الاوائل وإنما بدأ هذا الاهتمام فى أواسط القرن الثانى ق. م. حين أخذت المسألة المصرية تحتل مكانا بارزا فى برامج الاحزاب السياسية المتصارعة فى رومه . وقد كانت زيادة سكيبيو ايمليانوس Scipio Aemilianus لمصر فى الفترة التى تقع بين سنتى ١٤٥ و ١١٨ ق م. تقريبا ، كمبعوث من قبل مجلس الشيوخ الرومانى ليفصل فى النزاع الاسرى القائم بين أعضاء البيت البطلمى إذ ذاك

---

(٢٢٣) Spartianus, Vita Severi, 17

هو المناسبة الأولى التى أبدى فيها الرومان هذا الاهتمام ، إذ أن مجلس الشيوخ الرومانى اعتبر هذه الزياره جزءاً من زيارة عامة لمنطقة شرقى البحر المتوسط بغرض تفقد الاحوال بها .

أما قبل هذه الزيارة فلم يكن الرومان ، سواء كانوا ساسة أم قادة يولون مصر اهتماما كبيرا حتى فى الاحوال التى لجأ فيها الملوك المصريون إلى رومه يستنجدون بها لسبب أو لآخر ، والتى كانت فيها رومة تستجيب لهذا الاستنجاد فمثلا حين وجد بطلميوس إبيفانيس نفسه فى ٢٠٠ ق. م. يواجه خطرا مزدوجا من قبل أنتيوخوس الثالث ملك سلوقية وفيليب الخامس ملك مقدونية ، اللذين اتفقا فيما بينهما على اقتسام أملاك مصر ، أرسل إلى رومة يستعديها على أنتيوخوس ودعم رسالته هذه بهدية من القمح والمال وبعرض يضع فيه موارد مصر تحت تصرف الرومان ، ورغم أن رومة حاربت سلوقية لموقفها هـــذا الذى يثير الاضطراب فى الشرق الادنى وانتصرت عليها واذلتها فى موقعة ماجنيسيه سنة ١٩٠ ق. م. ومعاهدة أباميه بعد ذلك بسنتين ، إلا أنها رفضت بشكل قاطع الهدية والعرض اللذين تقدم بهما الملك المصرى . وسيقف الرومان موقفا مماثلا فى ١٧٠ - ١٦٨ ق. م حين يدخل انتيوخوس الرابع مصر ويحاصر الاسكندرية حيث يرسل مجلس الشيوخ الرومانى مبعوثه بوبليوس لايناس C. Popilius Laenas لينقذ الموقف وبمجرد أن تنتهى مهمته ، بعد أن أرغم الملك السلوقى على الانسحاب ، يترك مصر عائداً إلى رومه .

فى مثل هذه الظروف لا ننتظر أن يكون للرومان علم دقيق بالأحوال الداخلية لمصر ، إذ لم يكن لديهم ، كما قدمت ، الاهتمام الكافى بهذه المنطقة

ولم تكن مسألة وجود مجلس للشورى بالاسكندرية أمرا يهمها بشكل جدى كما أن سبارتيانوس كاتب متأخر ، وهو حين يتكلم عن أحوال مصر فى عصر البطالمة إنما يكتب عن فترة سبقت تاريخه بقرون ويعتمد إما على الرواية أو على مصادر رسمية لم يكن لها علم .

وعلى هذا فان رأيى فى هذا النص أن سبارتيانوس ، أو بالأحرى المصدر الذى اعتمد عليه ، كانت معرفته بأحوال مصر الداخلية قاصرة على عهد الاباطرة الرومان ، وعلى الشطر الأخير من عهد البطالمة حين بدأ ساسة روما يولون المسألة المصرية اهتماما خاصا . ولما لم يكن للإسكندرية فى هذه الفترة مجلس للشورى فقد استنتج سبارتيانوس ببساطة أن هذا المجلس لم يوجد قبل عهد الامبراطور سبتميوس سفروس ، سواء فى عهد الأباطرة أو البطالمة .

وهكذا تشير هذه النصوص الثلاث الى احتمال قوى هو أن مجلس الشورى السكندرى الذى وجد فى الفترة الأولى من العهد البطلمى ، اختفى فى عهد أحد البطالمة الأواخر ، على أن المصادر الكتابية ليست الوحيدة التى ترجح هذا الإحتمال ، وإنما تدعمه كذلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى أحاطت بحكم البطالمة منذ بدايته والتى تبلورت وظهرت نتائجها فى أواسطه . والظروف التى أعنيها تدور أساساً حول علاقة البطالمة بطبقة اليونانيين الذين استقروا فى مصر فى العصر المتأغرق . وقد سبق أن ذكرت أن البطالمة ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من حكام الممالك المتأغرقة ، اتجهوا فى تدعيم سلطانهم فى ملكهم الجديد الى الاعتماد على هذه الطبقة من اليونان المهاجرين لما كان لهؤلاء من كفاية عسكرية ولما كانوا عليه من

خبرة ودراية فى ميدان التنظيم الاقتصادى والإدارى وقد استخدم البطالمة كل الطرق الممكنة لاجتذاب هؤلاء اليونان واغرائهم بالإقامة فى مصر، ونجحوا فى ذلك الى حد كبير .

وقد رأينا أن الذين أتوا الى مصر استجابة لدعاية البطالمة، لم يكتفوا بالعمل فى وظائف الجهاز الإدارى التى كانت تتعلق أساسا بسلطة الملك، رأس الحكومة المركزية، وتخضع خضـوعا تاما لإدارته وارادته، وأن أعدادا كبيرة منهم اتجهت من البداية، وبشكل واضح، الى البحث عن موارد معيشية مستقلة، ويظهر هذا الاتجاه بشكل خاص بين هـؤلاء المهاجرين فى ميدان التجارة، كمورد اقتصادى مستقل، وهو ميدان نشطوا فيه وتشعبت مصالحهم الى حد كبير، رغم الصعوبات الكثيرة التى كانت لا بد أن تحف بمزاولة النشاط التجارى فى بلد يقوم نظامه الإقتصادى أساسا على الاحتكار الملكى . كما رأينا أن نمو هذه المصالح الى نوع من التماسك الطبقى عند اليونان الموجودين فى الاسكندرية بوجه خاص . حيث المصالح التجارية على أوسعها، وأدى بالتالى الى كثير من الاحتكاك بين هذه الطبقة والملك يسبب تناقض المصالح، ظهر فى أكثر من موقف عدائى بين الطرفين، وفى أكثر من موقف انتقامى من جانب الملك وبخاصة فى الفترة التالية لمعركة رفح التى أثبتت أن الاغريق لم يعودوا، مثلـما كانوا من قبل، الجنود الذين يمكن أن يعقد البطالمة على كفاءتهم العسكرية (٢٢٤).

---

(٢٢٤) راجع الحديث عن دعامات دولة البطالمة فى القسم الثانى من هذه =

تحت هذه الظروف أجد أنه من الطبيعى أن يوجه البطالمه ضرباتهم بوجه خاص إلى مراكز التجمع التى قد تصبح مراكز لتبلور الرأى العام لطبقه اليونان المهاجرين ، وبخاصة فى الإسكندرية التى كانت المركز الأساسى لتجمعاتهم ، ومن المنطق أن يكون تنظيم مثل مجلس الشورى بأعضائه من ذوى الشخصيات البارزة من المراكز الأساسية لتجمع أصحاب المصالح الاقتصادية الذين كان البطالمة يسعون إلى تفتيت ما يقوم بين أفراد طبقتهم من تماسك ، تمهيدا للقضاء على زحفهم المتزايد على نطاق المصالح الملكية . وفى رأيى أن مجلس الشورى قد حل على أثر ضربة من هذه الضربات ، على نسق ما حدث ، على سبيل المثال ، حين أغلقت الجامعـــة وشتت العلماء فى عهد بطلميوس الثامن (٢٢٥) .

هذا اذن هو وضع مجلس الشورى السكندرى على النحو الذى أرجحه . لقد وجد فى الاسكندرية منذ البداية ممثلا أحد ملامح نظام المدينة اليونانية ، وحقيقة أننا لا نعرف شيئا عن تكوينه كما أن مسألة اختفائه لاتزال موضعا للمناقشة ، ولكن هذه الظروف ذاتها تشير ، كما ذكرت ، إلى أن هذا

= الدراسات ، وبخاصة الدعامة الاجتماعية . أنظر كذلك اعتراضا على هذا التفسير لتطور العلاقة بين البطالمة واليونان ، يمثل وجهة نظر أخرى . فى : ابراهيم نصحى ، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة (١٩٥٩) ص ٣٤ ، حاشيه ٤

(٢٢٥) راجع الدعامة الأدبية لحكم البطالمة فى القسم الثانى من هذه الدراسات

المجلس كانت له شخصية أدبية كما كان له حظ لا بأس به للتوجيه الاجتماعى والاقتصادى بين طبقة اليونان المقيمين .

* * *

ومن الوضع الذى كان عليه هذا المجلس والمجالس التشريعية الأخرى يمكننا أن نقول إن الاسكندرية خطت ، من ناحية المجالس التشريعية ، خطوات لا بأس بها فى سبيل استكمال صفة المدينة اليونانية ، ولكنها لم تستكمل هذه الصفة تماما ، وما كان لها أن تستكملها تماما ، فقد كان عصر دولة المدينة قد دخل فى مرحلة أفوله قبل أن تؤسس مدينة الاسكندرية .

الباب الثانى عشر

الوضع الاقتصادى للإسكندرية

وأنقل الحديث الآن إلى الوضع الاقتصادى الذى كانت عليه الاسكندرية. وهنا أقول : إنه إذا كانت الاسكندرية قد عكست ، فى المجال السياسى ، التيارين أو الاتجاهين اللذين ميزا العصر المتأغرق وهما الدولية من جانب، والعالمية التى تحولت إلى ازدواجية حضارية من جانب آخر ، سواء فى اختيار موقعها كعاصمة ، أو فى وضعها السياسى كمقر لدولة تتبع النظام الفردى المطلق ، وكمدينة يونانية تحتفظ بشكل دولة المدينة فى نفس الوقت - إذا كانت الاسكندرية قد عكست هذين التيارين فى المجال السياسى ، فان أحد هذين التيارين على الأقل ، وهو التيار الذى يتميز بالنشاط الدولى الواسع يظهر بشكل واضح إذا نظرنا إلى الوضع الاقتصادى للاسكندرية فى عصر البطالمه .

١ - موقع الاسكندرية كميناء

وفى هذا المجال نجد أن الاسكندرية ، التى جعلها المهندس دينوكراتيس ميناء ذات قسمين بتوصيلة جزيرة فاروس بشاطىء القرية المصرية القديمة راقودة ، أصبحت الميناء المصرية الأولى فى المياه العميقة . فميناء بلوزيون (الفرما) ، على ما يذكره لنا سترابون ، كانت تقع على فرع النيل البلوزى (الشرقى) على بعد عشرين ستادا من ساحل البحر ، بينما كانت الميناء النهرية

نقراطيس تقع على الفرع الكانوبي (الغربي) بعيدا جدا عن البحر وموغلة في داخل الدلتا ، أما كانوب التي كانت تعتبر المنفذ البحري لميناء نقراطيس ، فنحن لاندري إذا كانت قد قامت فيها استعدادات أو معدات بحرية هامة ، ولعلها كانت لاتزيد عن مكان محمي عند مصب النهر(٢٢٦) .

على كل حال لقد فاقت ميناء الاسكندرية هذه الموانىء بشوط كبير . حقيقة إنه بينما فقدت نقراطيس قيمتها تدريجيا كميناء احتفظت بلوزيون Pelousion بقيمتها كمفتاح لمصر من الشرق تدخل عن طريقه كل منتجات سورية ، كما كانت جاركها على جانب كبير من النشاط في القرن الثالث ق.م.(٢٢٧) ، ولكن نشاط بلوزيون لم يكن شيئا إلى جانب نشاط الاسكندرية التي بدأت ميناؤها تجتذب إليها أنظار الشرق والغرب ، بينما هيأت لها ميناؤها النهرية ، التي كانت متصلة بالنيل عن طريق ترعة شيدية ، أن تكون على اتصال مباشر بطريق القوافل الموصلة إلى أعماق القارة الافريقية . وهكذا كانت الاسكندرية هي المركز الأساسي الذي تستقبل عن طريقه مصر كل ماتحتاجه من الخارج ، وفيها كانت تتركز ثم توزع نحو الشمال

---

(٢٢٦) عن بلوزيون أنظر : Strabo I, 21 راجع كذلك H. Kees: Pelusion (R.E.) عن كانوب أنظر للكاتب نفسه Canobus (R.E.) عن نقراطيس أنظر Jouguet : Trois Études, p. 90.

(٢٢٧) أنظر على سبيل المثال قائمة الواردات القادمة من سورية لحساب أبو الونيوس (المشرف على الشئون المالية في عهد بطلميوس فيلادلفوس) في برديه: p. Cairo-Zen .59012 (259) راجع كذلك (Melanges : Glotz,I) pp. 7-48 A. Andradès : Les Droits des Douane prèlevés par les Lagides sur le Commrce Exterieur .

أو الشرق أو الجنوب غالبية واردات الجهات المطلة على بحر إيجة وورادات إفريقية وكثيرا من واردات الشرق التى كانت تأتى عن طريق الخليج العربى وشبه جزيرة العرب(٢٢٨).

٢ ـ انشعب حركة الصادرات والواردات

ولنلق الآن نظرة سريعة على حركة الواردات والصادرات لنقدر، على أساس صحيح ، قيمة الدور الذى كان منوطا بالاسكندرية والذى جذب إليها أنظار البطالمة ، كمرفق اقتصادى من الطراز الأول يصلح لأن يكون الميناء الأول فى ملكهم الجديد الذى عاصر قيامه واستمراره أنشط تيارات دولية عرفها القسم الشرقى لحوض المتوسط . لقد كانت الأخشاب من أهم الواردات ، فأخشاب الأشجار المحلية مثل النخيل والآثل واللبخ والجميز لاتصلح صلاحية كاملة لأعمال المعمار وبناء السفن . وقد كانت مصر فى حاجة متزايدة إلى قـــدر كبير من الأخشاب فى هذه المرحلة التى اتجهت فيها سياسيا وحربيا نحو البحر المتوسط على نحو ما أسلفت ، وكان لابد لها بالتالى من أسطول يحمى سواحلها . وهكذا كان لابد مـن استيراد كميات كبيرة من الأخشات مثل خشب شجـر الأرز الذى كان يأتى من الشاطىء السورى ، والسرو الذى كان يأتى من ميليتوس ، والصنوبر الذى كان يأتى من شمالى البلقان والذى أراد فيلادلفلوس أن يؤقلمه فى مصر ، وأنواع أخرى من خشب الزينه التى كانت تأتى من الأقاليم المدارية فى الجنوب . حقيقة كانت بلوزيون هى الميناء التى يأتى عن طريقهـا خشب الأرز ، أما الباقى فقد كان يأتى من مناطق بحر إيجه أو من افريقية عن

---

(٢٢٨) Jouguet : Trois Études, p. 90

طريق الاسكندرية(٢٢٩).

كذلك كان القطران يمثل جانبا هاما من واردات مصر فى ذلك الوقت ، فهى مادة لا يمكن الاستغناء عنها فى صناعة السفن التى كانت تقوم عليها قوة البطالمة البحرية ، كما كان اقتناؤها أمرا حيويا لصانعى الفخار فى دهان الأوعية التى كان البطالمة يصدرون فيها الزيت – وقد كانت تجارته من أقوى أركان نظامهم الاحتكارى ، والقطران كان يأتى من غابات مقدونية ومن هضاب آسية الصغرى . وقد انعكست أهمية هذه التجارة التى كانت تهم البطالمة بوجه خاص ، بسبب تعلقها باحتكارهم الاقتصادى كما ذكرت ، فى أهمية المستوى الذى كانت عليه علاقاتهم الخارجية مع ملوك مقدونية ومع أمراء ثم ملوك برغامة فى آسية الصغرى وقد وصل من ارتباط هذه التجارة بسياسة البطالمة فى هذا المجال أن كانت تذبذبات ثمن القطران بجزيرة ديلوس – وهى سوق التبادل الدولى فى ذلك الوقت – تدل على على ما يعترى العلاقة السياسية بين مصر وبرغامة ومقدونية من صعود وهبوط(٢٣٠) .

كذلك كانت مصر مفتقرة إلى المعادن . حقيقة كانت بها مناجم الذهب فى النوبة وشبه جزيرة سيناء ، وحقيقة إن البطالمة ربما لم يصلوا من مستوى الترف إلى ما كان عليه الفراعنة ، إذا كان لنا أن نتخذ مخلفات هؤلاء كشاهد على ما وصلوا إليه فى هذا الصدد ، ولكن مع ذلك فقد كان البطالمة يحيون حياة فيها كثيرا من البذخ ويقدمون على وجوه متعددة من الانفاق

---

(٢٢٩) Préaux: L'Économie Royale, p.p.159-69

(٢٣٠) G. Glotz : L'Histoire, de Delos d'après le prix. d'une denrée (R. É. G., XXIX), pp. 281—325.

لأكثر من سبب ويحتاجون بالتالى إلى مقادير كبيرة من الذهب، وكانت المناطق التى يستوردونه منها هى أساسا أسبانيه والهند. والشيء ذاته يقال عن الفضة، فرغم أن الأدوات والمصنوعات الفضية كانت من الكماليات الشائعة المرغوبة عند الطبقة المتوسطة والمثرية فى ذلك الوقت، لم تكن مصر تمتلك من موارد الفضة شيئا ذا قيمة، وإنما كانت هذه تأتى من المناطق المطلة على الشواطىء الشمالية للبحر الابيض المتوسط: قليل منها من مناجم اللوريون فى أتكة وأغلبها من أسبانية ومن قادس بالذات. وما ينطبق على الفضة ينطبق على الحديد الذى لم يكن يعدن فى مصر وإنما كان يأتى من جزر بحر إيجه ومن منطقتى الهلسبونت وأرمينية، وعلى النحاس الذى كانت تستخرج منه كميات ضئيلة فى منطقة الفيوم بينما كان الجزء الأساسى منه يأتى من قبرص التى كانت قسما من الامبراطورية البطلمية لوقت طويل [٢٣].

ولم تكن هذه كل واردات مصر فى عهد البطالمة، فقد كانت تستورد الرخام الذى تفتقر إليه من الجزر اليونانية، وكانت رغم توفر صناعة المنسوجات بها، تستورد الأصواف من ميلتوس، والمنسوجات الكمالية من صور، والأقمشة المذهبة من برغامة، والشفافة من كورس وأمرجوس، والحرائر من فينيقية، والمنسوجات السميكة من قليقية، والأبسطة من المدن الأيولية على على الساحل الغربى لآسية الصغرى. هذا الى جانب مجموعة كبيرة متنوعة من مواد الأطعمة التى كانت تستوردها لغرض الاستهلاك اليومى، فقد كان السكندريون يعرفون نحو ستة أنواع من

---

(٢٣) Jouguet: Trois Études: p. 92

العسل الذى يأتى من مناطق بحر إيجه والجبن الذى يأتى من جزيرة خيوس والياميش والرمان والتين وأنواع مختلفة من الخمور كانت محببة الى ثراتهم الذين كانوا يريدون المحافظة على طريقة الحياة الإغريقية التقليدية ، فكانوا ، رغم وجود صناعة الخمور فى مصر ، يقبلون على الخمور الواردة من رودس وخيوس وكيندوس(٢٣٢).

وأخيرا فقد كانت هناك مستوردات مصر من الحيوانات ، ونذكر على سبيل المثال الجمال التى كانت قد بدأت منذ بداية العهد البطلمى تكون عنصرا هاما من عناصر الحياة اليومية فى مصر سواء كأداة للنقل أو لاستخدامها فى أغراض الزراعة . وإذا كانت مصر قد بدأت فى تربية الجمال محليا بشكل ظاهر فى عهد فيلادلفوس فإن الخيل ، التى عرفتها مصر منذ غزو الهكسوس ، كانت تستورد بصفة تكاد تكون دائمة فى عهد البطالمة ، وكان أغلبها يذهب لتغطية حاجة الجيش فى سلاح الفرسان الذى كان جديدا بالنسبة لمصر ، والذى كان يلعب دورا هاماً فى كافة الجيوش التى تسير على النظام المقدونى(٢٣٣) وقد رأينا أهمية الدعامة العسكرية فى الصراع بين الممالك المتأغرقة (التى كانت تسير على النظام المقدونى فى جيوشها)

* * *

وإزاء هذه الواردات كانت مصر تصدر قدرا كبيرا من منتجاتها مثل القمح والبردى وأنواع معينة من المنسوجات والمصنوعات الزجاجية ومجموعة أخرى من المنتجات التى كانت تعتمد على خامات تستوردها مصر جزئيا أو

---

(٢٣٢) Ibid. : op. cit , 95

(٢٣٣) Préaux : Écon. Royale, p. 2!1 &n. 1

كلياً من الخارج ، مثل العطور التى كانت خاماتها تأتى من بلاد العرب والصومال وسورية وآسية الصغرى ، والحلى والمجوهرات التى كانت تصنع من أحجار نفيسه أو شبه نفيسه تأتى من الصحارى العربيـــة ومن جزر البحر الاحمر ، ومثل الادوات المصنوعة من العاج ومن ريش النعام التى كانت القوافل تأتى بها عن طريق النيل أو الطرق الصحراوية من الصومال أو من أعالى النيل (٢٣٤) .

ولنأخذ تجارة القمح والبردى كمثـال لتجارة الصادرات وللدور الذى لعبته كأساس اقتصادى لسياسة البطالمة والذى كان يتبلور أساسا حول ميناء الإسكندرية . لقد كانت تجارة القمح تلعب فى عهد البطالمة دورا أساسيا يوازى أو يفوق الدور الذى يلعبه القطن فى يومنا هـذا ، وكان ملوك البطالمة يعتمدون اعتمادا كبيرا على تجارة القمح فى تدعيم نفوذهم السياسى فى البحر المتوسط . حقيقة إنه من غير الثابت ومن غير المحتمل أن ملوك البطالمة احتكروا لأنفسهم هذه التجارة ، ولكن من المقطوع به أنهم كانوا يستولون على جزء كبير من محصول البلاد من القمح وبهـذا الجزء كانوا يستعينون على تشكيل وتدعيم صلاتهم السياسية مع المناطق المطلة على سواحل البحر المتوسط .

---

(٢٣٤) Préaux: op. cit., pp. 255,353 - 4; C. W. Murray: Roman Roads and Stations in the Eastern Desert of Egypt (J.E.A., 1925) ,p. 144; M. K. Abdel - Aliem, Alexandrian Trade in Aromata in the Graeco- Roman Times, 1954, (وهى رسالة غير مطبوعة مودعة بمكتبه كلية الآداب فى جامعة الاسكندرية) ص ٢٤ ومابعدها .

ولم يكن هذا بالشيء الجديد الذى ابتدعه البطالمة فإن الخطيب الأثينى ديموسثنيس يظهر لنا فى إحدى خطبه كيف كان التجار الذين يحصلون على القمح من مصر يستطيعون التلاعب بأسعار القمح فى أسواق البلاد اليونانية بمنعه عن إحداها أو تصديره إلى الأخرى ، كما حدث فى عهد كليومينيس الذى كان الإسكندر قد أقامه منظما للشئون المالية فى مصر بعد فتحها . وستكون سياسة البطالمة فى توسيع دائرة نفوذهم معتمده هى الأخرى على سياسة القمح ، إذ أن البطالمة رغم أنهم لم يكونوا بأى حال من الأحوال المحتكرين الوحيدين لهذه التجارة فى حوض المتوسط بشكل يسمح لهم بالتحكم المطلق فى هذه المنطقة عن طريق إجاعة سكانها ـ إذ كانت هناك جهات أخرى تنتج القمح مثل مناطق البحر الأسود وصقلية وسورية وبرقة وقرطاجة ـ إلا أن البطالمة كانوا دون شك أكبر مصدرى القمح فى مصر إن لم يكن فى العالم المتأغرق كله . وقد استطاعوا عن طريق هذه التجارة أن يقوموا بدور سياسى ظاهر فى شرقى البحر المتوسط ، فنحن مثلا نجد بطلميوس سوتر ينقذ رودس بتموينها بالقمح أثناء حصارها فى ٣٠٤ ق م. بينما كان بطلميوس ابيفانيس يعمل على توثيق صلته بروما عن طريق تصدير القمح إليها وهكذا كانت الاسكندرية فى تلك الفترة تعتبر تقريبا الميناء التى تصدر أكبر مقادير من القمح فى تلك المنطقة (٢٣٥) .

---

(٢٣٥) Holchelheim: Sitos, R. E., Suppl. VI; Hohlwein: Le Blé en Égypte, Études de Papyrologie, IV, 1937, pp. 33 sq.

أما ورق البردى فقد كانت مصر هى الدولة الوحيدة المصدرة له ، وكانت صادراتها منه بكميات وافرة جعلت منها سيد السوق بلا منازع ، يدل على ذلك أنه حين فرض عليه بطلميوس فيلادلفوس احتكارا ملكيا جزئيا ، ارتفعت أثمانه فى سوق ديلوس التى كانت مركز تجارة التبادل فى شرقى البحر الأبيض المتوسط . ولم تكن قيمة تجارة البردى من الناحية السياسية قاصرة على تدعيم هذه الناحية بتحكم مصر الاقتصادى فى هذه التجارة ، بل لقد ادت كذلك إلى تحكم مصر بطريق غير مباشر فى الناحية الثقافية فى شرقى البحر المتوسط ؛ فقد أصبحت مصر الموطن الأول لصناعة الكتب وأدى هذا إلى تركيز الحركة الثقافية فيها وكان عاملا هاما من عوامل اجتذاب المفكرين والعلماء وكافة رجال القلم إليها ، وقد بلغ هؤلاء شأوا كبيرا فى ميادين تخصصهم على نحو ما أسلفت . حقيقة إن هذا التحكم لم يكن تاما ، فإن برغامة ، مثلا ، حاولت أن تتخلص من هذه السيادة الثقافية التى فرضها البطالمة على العالم المتأغرق ، بإنتاجها نوعا من الجلود الصالحة للكتابة ، ولكن رغم ذلك فقد ظلت مكتبة الاسكندرية ، بسبب ورق البردى هى المسيطرة الأولى على كل ما يتعلق بإنتاج الكتب حتى من ناحية الشكل - وهو أمر لا يمكن تجاهله عند الكلام على الانتاج الثقافى الذى اتخذه البطالمة قاعدة أدبية لمد نفوذهم السياسى (٢٣٦) .

هذه إذن هى الصادرات والواردات التى أصبحت الاسكندرية مركزا لها ، وقد كان موقع الاسكندرية دون شك هو خير موقع يقوم عليه هذا المركز الذى كانت تتفرع عنه طرق التجارة إلى فينيقية وفلسطين وسورية

---

(٢٣٦) Préaux: op. cit., 187 sq.; Jouguet: op. cit., p. 100

وآسية الصغرى وتراقية وجميع جزر بحر إيجه وإلى أثينة وكورنثة وصقلية وإيطالية والمستعمرات الاغريقية على شواطىء غالة وأسبانيه وإلى قرطاجة وبرقة ، وأخيراً إلى الصومال وبلاد العرب والشرق الاقصى (*) .

٣ — الاسكندرية كميناء تدعم الاتجاه الاقتصادى السياسى للبطالمة

ولم تكن الاسكندرية مجرد معقد أو ملتقى لهذه الطرق التجارية بحيث يمكن أن نقول إنه كان من الممكن أن تصبح الميناء الاولى فى مصر دون أن تكون بالضرورة عاصمة البلاد ، ولكنها كانت كذلك خير مكان يستطيع منه البطالمة أن يدخلوا هــذه الطرق التجارية فى دائرة نفوذهم لتخدم سيطرتهم السياسية ـ وهو إتجاه كان يشكل بعد من أبعاد سياستهم الخارجية وقد حرص علية البطالمة أشد الحرص ، تدل على ذلك تفاصيل توسعهم فى حوض البحر المتوسط وهو المكان الذى كان قد أصبح منذ فترة ليست بالقصيرة قبــل قيام ملكهم مسرحا للمنافسات التجارية العنيفة (٢٣٧) .

ويكفى لاثبات هذا الاتجاه السياسى الاقتصادى أن نلقى نظرة سريعة على الاماكن التى دخلت قلب الامبراطورية البطلمية . فقد كانت هـذه تضم فى القرن الثالث قبرص وبرقة والغور (جوف سورية) وفينيقيه وفلسطين ولبقية ذات الغابات الواسعة وكارية ذات التجارة النشطة وحيث تزدهر زراعة الكروم وتربية النحل ، وأجزاء من أيونيه وبخاصة مدن

(*) Jouguet: op. cit., I03

(٢٣٧) راجع الباب الثامن من هذه الدراسات

هيليتوس وساموس وإفسوس ومجموعة من جزر بحر إيجه وجزيرة لسبوس الكبيرة الغنية وأجزاء من جزيرة كريت وثيرة وبعض مناطق فى شبه جزيرة البلوبونيسوس والخرسونيس وجزء من تراقية (٢٢٨) . وكلها ، كما هو ظاهر ، إما أماكن تطل على الطرق التجارية فى البحر المتوسط أو تبدأ منها هذه الطرق أو مناطق ذات إنتاج خاص له قيمته فى إنماء السياسة الاقتصادية البطلمية .

كذلك مما يصور الاتجاه الجدى لبناء جانب من سياسة البطالمة الخارجية على أساس اقتصادى ـ الأمر الذى كان لا بد أن يؤثر على انتقائهم لعاصمة ملكهم فى مصر بحيث تخدم هذه السياسة ـ أنهم حرصوا على إنماء العلاقة الودية مع بعض جزر البحر المتوسط التى كانت لها أهمية خاصة كمحاط على الطرق التجارية البحرية وسآخذ مثالا على جزيرتى رودس وديلوس .

أما الجزيرة الأولى ـ وكانت تكون ، مع مدن ليندوس وياليسوس وكاميروس ، الدولة الرودسية ـ فقد كان القائمون على الحكم فيها أقلية من التجار الذين كانت تهمهم حرية الملاحة فى البحر المتوسط وتأمين طرقها ، وكانت أهميتها بالنسبة لمصر هى موقع مينائها كمحط تجارى للسلع المتبادلة بين مصر من جانب آسية الصغرى وبلاد اليونان من جانب آخر ، مثل العطور التى كانت تصنعها مصر والتوابل التى كانت الاسكندرية هى سوقها الكبرى . هذا إلى جانب الخمور التى كانت تستوردها مصر من رودس والحبوب التى كانت تصدرها إليها .

---

(٢٢٨) Rostovtzeff, Soc. and Econ. History of the Hellenistic World, I, p. 322

وستكون من مظاهر الأهمية التجارية لرودس بالنسبة للاقتصاد المصرى أن يحرص البطالمة على إقامة علاقات سياسية طيبة مع هذه الجزيرة طوال القرن الثالث ق م. وستظهر هذه العلاقة الطيبة فى أكثر من صورة. فمن الناحية الشكلية نجد أن لقب سوتر (المنقذ) الذى اتخذه بطلميوس الأول أضفى عليه أول ما أضفى من قبل جزيرة رودس وجزر الكوكلاذيس، بينما نجد أن إحدى الجزر الصغيرة فى الميناء الكبيرة بالاسكندرية ستسمى أنتيرودس نسبة إلى الدولة الصديقه ولن يقتصـــر الامر على ذلك، بل ستجد هذه العلاقة الطيبة تنعكس بشكل موضوعى فى العلاقات السياسية بين البلدين، فرودس اتخذت منذ بدايه العصر المتأغرق موقفا معاديا من خصوم البطالمة ومنافسيهم وبخاصة السلوقيين، الذين كان فى إمكانهم دائما أن يهددوا ممتلكات رودس على الساحل الاسيوى، وستكون رودس إحدى الدول التى تحرض رومة على محاربة أنتيخوس الثالث، عدو بطلميوس الخامس، فى بداية القرن الثانى ق. م. (٢٣٩).

والشيء ذاته يقال عن ديلوس، إحدى جزر الكوكلاديس، فقد كانت هى الاخرى محطا متوسطا ممتازا للقوافل التجارية الآتية من الشرق والغرب ومن الشواطيء الشمالية وأغوار أفريقية. وكما حرص البطالمه على انماء العلاقات الودية مع رودس فقد اتبعوا نفس السياسة مع ديلوس، وفى

(٢٣٩) V. Gaertingen: Rhodes, R. E., Suppl. V. على أن هذا بطبيعه الحال، لم يمنع من انقلاب رودس على مصر فى بعض الاحيان، كما حدث فى عهد بطلميوس الثانى، فيلادلفوس، على سبيل المثال، أثناء اشتباكه مع أنطيوخوس الثانى (الملك السلوقى) حوالى ٢٦٠ ق. م. فى غربى آسيه الصغرى (أثناء الحرب السورية الثانيه) فقد وقفت قوة رودسيه بحريه فى وجه قوة بطلميه بحريه وانتصرت عليها Polyaen.: V, I8.

هذا المجال تشير كثير من النقوش إلى وجود جمعية من الوكلاء والسماسرة السكندريين فى هـذه الجزيرة ، كما تشير إلى قيـام علاقة ودية مـع البطالمة (٢٤٠) .

* * *

وهكذا نجد أن موقع الاسكندرية ووضعها كميناء ، لا يقل فى قيمته بالنسبة للبطالمه عن موقعها ووضعها كعاصمة . فاذا كان هذا الاخير قد أثبت أن خير مكان يوجه منه البطالمة سياستهم الدفاعية عن مصر ويطلقون منه دعامتهم السياسية ، فى عصر كانت صفته الإولى هى الصراع بين حكام العالم المتأغرق فان المنافسة التجارية المتزايدة فى المنطقة وضروره السيطرة على الطرق التجارية الدولية بالنسبة للبطالمة أمام منافسيهم ، كانت تستوجب أن تـكون الاسكندرية بالذات ، عاصمة البطالمة ومقر حكمهم ، هى نفسها الثغر الاول فى مصر .

---

(٢٤٠) Jouguet : op. cit., pp. 103 - 4

الباب الثالث عشر

الوضع الإجتماعى فى الإسكندرية

كان الحديث حتى الآن عن الوضعين السياسى والاقتصادى للاسكندرية وقد رأينا الفكرة العالمية والطابع الدولى يصبغان النشاط الذى اقترن باسم هذه المدينة فى كلا المجالين ، وإن كان ذلك قد تم بدرجات متفاوتة . وفيما يخص فكرة العالمية بالذات فإن المفهوم الذى دارت فى حدوده كان قد تقلص كثيرا ، كما لمسنا ، عن ذلك الذى ابتدأه الاسكندر حين وضع أساس هذه المدينة فى السنوات الأولى من حملته على الشرق ، بحيث وصلت فى الجانب السياسى إلى ما يقرب من مجرد الازدواجية التى يلتقى فيها النظام الشرقى بالنظام اليونانى . وحتى فى هذا المجال . فإذا كان الاتجاه الفردى المركزى للنظام الشرقى قد تغلب على الاتجاه الشعبى الجماعى للنظام اليونانى، فقد كان ذلك نتيجة لدواعى سياسية أكثر مما كان انبثاقاً من فكرة أو نظرية عالمية .

١ - الصفة العامة للمجتمع السكندرى

ولكن إذا كانت الصفة العالمية قد تراجعت حتى اقتربت من الازدواجية فى الجانب السياسى ، وإذا كانت قد تحولت الى مجرد تفوق للنشاط البطلمى فى المجال الدولى ، فإن الوضع يختلف بعض الشىء فى الجانب الإجتماعى . فهنا نجد أن الفكرة العالمية فى أوسع حدودها كادت تصبح حقيقة واقعة . وإذا كانت لم تتم فان ذلك كان بسبب الموقف السياسى الذى اتخذه

البطالمة ، والذى وضع حدودا إجتماعية وقانونية بين العناصر البشرية الموجودة فى هذه المدينة بحيث تم اللقاء بين هذه العناصر ، ولكن دون أن ينتهى ذلك بالتفاعل الكامل بينها لتصبح الاسكندرية وحدة اجتماعية ذات صفة عالمية .

وفى الواقع فإن الأبعاد المتعددة التى أعطاها البطالمة لعاصمة ملكهم قد ساعدت كثيرا فى تحويل هذه المدينة إلى مايمكن أن نسميه ملتقى عالميا لعديد من العناصر والجنسيات التى تنتمى الى القارات الثلاثة المطلة على البحر المتوسط والتى استقر قسم بين أبنائها فى الاسكندرية بينما كانت إقامة القسم الآخر عابرة مؤقته .

ولقد أراد البطالمة أن يكون لعاصمتهم مركز دولى فى العالم المتأغرق وسلكوا ، فى سبيل تحقيق ذلك ، كل الطرق التى وجدوها فى متناول أيديهم . وهكذا وجدنا أول حكام هذه الأسرة يحرص على أن ينقل جثمان الاسكندر الى الاسكندرية ، وهو يقدم على ذلك رغم قرار مؤتمر بابل الذى حدد مكان دفنه فى مقدونية. وقد كان ضريح الاسكندر دون شك كعبة اسكان العالم المتأغرق فقد عبد الاسكندر كإله ، وعلى أقل تقدير فقد حقق بانتصاره على الامبراطورية الفارسية فى حياته القصيرة ماكان يعتبره اليونان معجزة غير قابلة للتحقيق. ولنا أن نتصور أفواجا عديدة مستمرة وهى قادمة الى الاسكندرية من المدن اليونانية ، وربما غير اليونانية ، التى كانت تطل على القسم الشرقى للبحر المتوسط ، لتحج الى هذا الضريح ، الذى يحوى الجثمان الحى Soma كما رأى أن يسميه اليونان ، لبطل وإله . بل لقد أصبح الضريح فعلا أحد المعالم الرئيسية

فى الاسكندرية . إن لم يكن أهم هذه المعالم جميعا . وقد رأينا السكندريين فى مناسبة سابقة ، يأخذون أوكتافيان لزيارة هذا الضريح (حتى قبل أن يطلبوا اليه زيارة قبور ملوكهم) ، وقد أبدى الفاتح الرومانى تقديره للفاتح المقدونى وترحيبه لزيارة ضريحه (*) .

كذلك كانت الاسكندرية هى المركز الرئيسى لعبادة سرابيس وقد سبق أن أثرت ، إلى انتشار هذه العبادة خارج مصر بشكل ظاهر ، بحيث أصبح من المرجح أن البطالمة كانوا يهدفون من وراء تشجيعها إلى هذا الانتشار الخارجى قبل أن يكون غرضهم منها هو التقريب بين الاغريق والمصريين داخل البلاد . وكما كان الحال فيما يخص ضريح الاسكندرية ، فليس من العسير أن نتصور أعدادا من أتباع هذه العقيدة وقد أتوا إلى الاسكندرية فى زيارات للمقر الرئيسى لعبادة هذا الإله . وهو لن يكون تصورا خاطئا ، فان انتشار عبادة سرابيس فى العالم المتأغرق لم يكن انتشارا سطحيا بحيث يصبح سرابيس مجرد إله جديد يضيفه سكان هذه المنطقة إلى قائمة آلهتهم فى عصر درج على تعدد الآلهة ، وبالتالى فان إضافة إله جديد فيه قد لا تعنى فى كل الأوقات شيئا كثيرا . وانما كان لهذا الانتشار جذورا عميقة فى الوقت نفسه ، فقد كانت عقيدة سرابيس من العقائد القليلة التى تشبث بها الوثنيون وناضلوا لاستبقائها حين بدأت المسيحية تغزو آفاق الحوض الشرقى للبحر المتوسط (**) .

(*) Plut. : Ant. LXXX . راجع الباب الخاص بالوضع السياسى لمدينة الاسكندرية

(**) H. I. Bell: op. cit., 39-40

ونحن بستطيع أن نلمس فى وضوح مدى انتشار هذه العقيدة وأن نسبر ما كان لها من عمق فى نفوس أتباعها من رسالة حفظتها لنا احدى برديات زينون ، مدير أعمال أبوللونيوس الذى رأيناه فى مناسبة سابقة مشرفا على الشئون المالية لمصر فى عهد بطلميوس الثانى فيلادلفوس ، والرسالة مكتوبة فى فبراير ٢٥٧ ق. م. وموجهة من زويلوس Zoilos ، أحد سكان أسبندوس Aspendos فى آسيه الصغرى إلى أبوللونيوس وفى السطور التالية عرض لأهم ما جاء فى الرسالة (٢٤١) .

إلى أبوللونيوس ، من زيلوس

تحيـــاتى

حين كنت أقوم على خدمة سرابيس ، فى سبيل رعاية صحتك ومصالحك مع الملك بطلميوس ، حدث أن كان سرابيس يتراءى لى كثيراً أثناء نومى ، وهو يصر على أن أعبر البحر اليك وأحضر اليك (فى الاسكندرية) لاطلعك على تحذيره بأنه من الضرورى أن تكمل معبداً ومحرابا له فى الحى الإغريقى بالقرب من الميناء ، وان تقوم بالشعائر الدينية اللازمة وتقدم القرابين اليه . وحين طلبت اليه ان يعفينى من هذه المهمة أصابنى بمرض شديد جعل حياتى فى خطر . فابتهلت اليه فى صلواتى ووعدت بأن أنفذ ما أمر به إذا شفيت . وحين شفيت جاءنى رجل من مدينة كنيدوس وأخذ على عاتقه أن يبنى السرابيوم (معبد الآله سرابيس) فى ذلك المكان

---

(٢٤١) C. C. Edgar: Zenon Papyri, I, 59034 فى Catalogue Général des Antiquités Égyptiènnes du Musée du Caire

(أى مدينة كنيدوس) وأحضر الأحجار اللازمة للبناء . ولكن الإله ما لبث أن أنذره ألا يبنى المعبد (هناك) وكان أن توقف عن البناء . وحين حضرت إلى الاسكندرية وترددت فى أن أفاتحك فى الموضوع ، بينما ناقشت معك أمورا أخرى انتهت بموافقتك عليها ، عاد إلى المرض مرة أخرى عدة أشهر . ولهذا لم أستطع أن أقابلك بعد ذلك مباشرة . ولذا فإنى أرجو منك ، يا أبوللونيوس ، أن تنفذ أوامر الإله سرابيس حتى يرضى عنك ويعلى مراتبك عند الملك ويهبك الصحة والعافية ولا تجعل تكاليف هذا الأمر تشغلك ، فإنها لن تكون بالشيء الكثير ، وسأتحمل معك كل ما يتطلبه هذا الأمر من نفقات . إلى اللقاء »

والرسالة ، كما هو واضح تشير إلى أكثر من مكان خارج مصر انتشرت فيه هذه العبادة ، وإلى مدى الإيمان بالإله سرابيس ، وإلى وضع الاسكندرية كمركز رئيسى يتوجه اليه عابدو هذا الإله - وهو أمر يسهل معه أن نتصور ، كما ذكرت ، أعدادا من عابدى سرابيس يأتون لزيارة الاسكندرية حتى يحجوا إلى مقر الإله .

واذا كان الاغريق يتوافدون على الاسكندرية . كمركز أدبى للعالم المتأغرق بسبب ضريح الاسكندر وعبادة سرابيس ، فإن توافدهم على هذه المدينة ازداد بسبب دعامة ثالثة أو ركن ثالث من أركان هذا الوضع الأدبى ، وهو جامعة الاسكندرية . وقد كان علماء هذه الجامعة وأمناء مكتبتها (وقد كانوا هم الآخرون علماء وأدباء كبارا كما رأينا فى حديث سابق) - كانوا ينتمون إلى مناطق عديدة من العالم المتأغرق فمن بين أمناء المكتبة ، على سبيل المثال ، نجد أرستوفانيس ينتمى إلى بيزنتيون

(بيزنطة) ، وأرستارخوس ينتمى إلى جزيرة ساموتراقيه وزينودوتوس إلى إفسوس[٢٤٢] ومن بين علماء الجامعة نجد أبوللودوروس ، المؤرخ والكاتب الاقتصادى يأتى من أثينه ، بينما جاء من تراقية ، ديونيسيوس الذى كتب أول قواعد نحوية محددة للغة اليونانية (٢٤٣) . وإذا كان علماء الاسكندرية يأتون من كافة شواطىء الحوض الشرقى للمتوسط ، فنى تصورى أن أعدادا كبيرة من الباحثين والدراسين كانوا يأتون إلى جامعتها من هذه المناطق كذلك ، وبخاصة إذا أدخلنا فى اعتبارنا المكانة العلمية التى احتلتها هذه الجامعة فى العالم القديم .

* * *

ولم يكن مركز الاسكندرية الدولى ، الذى أدى إلى أن تصبح ملتقى العديد من الأفواج الآتية من مختلف مناطق البحر المتوسط ، وبخاصة القسم الشرقى منه ـ أقول لم يكن هذا المركز قاصرا على الناحية الأدبية . فنحن نسمع عن أعداد من هؤلاء الوافدين يأتون إلى الاسكندرية ويقيمون فيها ، لوقت قصير أو طويل أو بصفة دائمة ، لأسباب أخرى تتصل بمجالات أخرى . وعلى سبيل المثال ففى المجال التجارى ، الذى كانت الاسكندرية مركزا أساسيا ، بل المركز الأساسى ، له فى شرقى المتوسط ، أذكر عقدا يتصل بقرض تجارى بحرى يرجع إلى أوسط القرن الثانى ق.م. [٢٤٤] .

---

(٢٤٢) Grenfell and Hunt; Oxyrrhinchos Papyri, X, 1241;

(٢٤٣) Athenaios : Deipnosophits, IV, 184 c.

(٢٤٤) = Friedrich Bilabel : Sammelbuch der Griechichen

ومن بين الأشخاص الذين يشير إليهم العقد، وهم اثنا عشر ، نرى صاحب مصرف اسمه الأول رومانى ، ونرى من بين شركاء الرحـــله metochoi شخصا من ماسيليه (مرسيله الحاليه) وآخر من لاكيدايمونية (فى جزيرة المورة الحالية) ، كذلك نرى بين ضامنى القرض يونانيا من تسالونيكا (سالونيكى الحالية) وآخر من قرطاجه (تونس الحالية) ، بينما نجد لباقى الاشخاص أسماء يونانية .

وهذا القرض يشير فى وضوح الى مدى عالمية اللقاء فى المجال التجارى فى مدينة الاسكندرية ، وهو لقاء لم يقتصر على شواطىء القسم الشرقى للبحر المتوسط ، وإنما اتسعت أبعاده لتسجل أشخاصا من رومه وقرطاجه والساحل الجنوبى لغاله (فرنسه الحالية) . والتجمع المذكور يعتبر دون شك نموذجا لغيره من التجمعات التى كانت تتم فى ميناء الاسكندرية لمزاولة العمليات التجارية التى رأيناها فى مناسبه سابقة تمتد فى أكثر ومن اتجاه ، شمالا إلى سورية وآسيه الصغرى وشمالا وغربا فى البحر المتوسط، وجنوبا على طول البحر الأحمر .

كذلك تظهر هذه المجموعة المتنوعة الأجناس من الأشخاص الذين كانوا يفدون الى الاسكندرية إما بصفة مؤقته كمبعوثـــين ، أو كأجانب مقيمين . ومن أمثلة النوع الأول أعضاء الوفود الذين كانوا يأتون الى الاسكندرية من أغلب أنحاء العالم المتأغرق ليحضروا أعياد أو احتفالات

— Papyri, II, 7169

راجع تحليلا لهذا العقد فى W.L. Westermann : Alexandria in the Creek Payri, (B.S.A.A , 38), 41—2.

البطولمية Ptolemaieia التى كان البطالمة يقيمونها كل أربعة أعوام على نمط أعياد البانآثينايا التى كان يقيمها الآثينيون فى أثينه كل أربعة أعوام كذلك . ويوجد الآن فى المتحف الرومانى فى مدينة الاسكندرية عدد من الأوانى الجنائزية التى كان يودع فيها رماد الجثث لبعض هؤلاء المبعوثين الذين كان يوافيهم الموت أثناء مقامهم فى الاسكندرية . (٢٤٥)

ومن أمثلة النوع الثانى ، والأجانب المقيمين ، ما يشير إليه نصان من عهد بطلميوس التاسع والنصان تعبر سطورهما عن الامتنان الذى تشعر به فئة من الأجانب المقيمين فى الاسكندريه كما يوجد نص ثالث من عهد الملك نفسه يعبر فيه الرومانيون الذين يعملون فى شئون التجارة وأعمال الميناء الخاصة بالسفن عن شكرهم العميق لهذا الملك على حمايته لهم ورعايته لشئونهم . والنصوص الثلاثة ترجع إلى الشطر الأخير من القرن الثانى ق م (٢٤٦).

وأخيرا ، فقد كان من بين الأسباب التى أدت الى تعدد الأجناس فى الاسكندرية بشكل يضفى عليها الطابع العالمى ، اعتماد البطالمة على الجنود المرتزقه بشكل متزايد على نحو ما رأينا أثناء الحديث عن الدعامة العسكرية لدوله البطالمة وقد كانت الاسكندرية بوجه خاص مركزاً لحامية عسكرية كبيرة ،

---

(٢٤٥) هذه الأوانى الجنائزية موجودة فى غرفة ١٧ ـ ١٨ فى المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية ، راجع بعض صور هذه الأوانى وتعليق موجز عليها فى Evariste Breccia : Alexandria ad Aegyptum, pp. 222-3 (الطبعة الانجليزية)

(٢٤٦) (النص الثالث) 113. (النصان الأولان) M.L. Strack :Archiv, III, 118,

فالإسكندرية كانت العاصمة. وقد رأيناها تشكل هدفا لمن يريدون الاعتداء على مصر من خصوم البطالمة ، كما حدث فى عهد بطلميوس الخامس حين حاصرها أنتيوخوس الرابع ، الملك السلوقى . كذلك رأينا الجنود يشتركون فى بعض القرارات التى اتخذها السكندريون فى أوقات الأزمات . ومحصلة كل هذا أن عددا كبيرا من هؤلاء الجنود ، الذين ينتمون إلى أغلب مناطق العالم المتأغرق من أوربيين وأسيويين ، كانوا يظهرون بأعداد كبيرة فى شوارع الاسكندرية(٢٤٧).

ومما يدل على العدد الكبير من هؤلاء الجنود المرتزقة الموجودين فى الاسكندرية ، بكل ما يعنيه وجودهم من تعدد الجنسيات والمناطق التى ينتمون إليها . التقسيم الذى قسم إليه بوليبيوس سكان الاسكندرية حين زار هذه المدينة فى أواسط القرن الثانى ق . م . وفى هذا التقسيم نجد عناصر ثلاثة : المصريون ، والجنود المرتزقة والسكندريون (وهم المواطنون الاغريق فى الاسكندرية) . وهو تقسيم يدل على مدى ظهور عنصر الجنود (بجنسياتهم المختلفة) لزائر الاسكندرية (وفى حالة بوليبيوس فإن الزيارة لم تعجبه !) (٢٤٨) .

ويبدوا أن هذا التقسيم ، الذى يظهر هؤلاء الجنود المتعددى الجنسيات ، رغم عدم دقته من ناحية الحديث عن الجاليات التى كانت تقيم بالاسكندرية (فهو لا يذكر المقدونيين أو اليهود مثلا) - أقول ،

(٢٤٧) راجع الباب الخاص بالدعامة العسكرية ، والباب الخاص بالمرحلة الثانية من السياسة الخارجية البطلمية ، والباب الخاص بالوضع السياسى للاسكندرية .
راجع كذلك : Mostafa El Abbadi : A Side-light on the Social Life of Ancient Alexandria (Cahiers d' Alexandrie, 1964), p. 46

(٢٤٨) مذكور فى Strabe : XVII, 112

رغم هذا فقد كان هذا التقسيم متعارفا عليه وشائعا حتى من الناحية القانونية . فنحن نراه يظهر على سبيل المثال ، فى إحدى البرديات التى تعالج بعض الإجراءات القانونية المتصلة بالمحاكم ، وفيها نرى تقسيما لسكان الاسكندرية يكاد يكون مطابقا لهـذا التقسيم السابق ، ونرى الجنود ، مرة أخرى ، يظهرون كفئة أساسية من الفئات الثلاثة التى يتكون منها هؤلاء السكان(*).

ومرة أخرى ، نجد فى المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية ، عددا من الأوانى الجنائزية التى عثر عليها فى مناطق الابراهيمية والحضرة والقبارى (بالاسكندرية) والتى كانت تحوى رماد الجثث المحترقة لعدد من الجنود الذين ماتوا ، والذين أتوا من أماكن مختلفة فى العالم المتأغرق من بينها تراقية وكريت وتساليه وغيرها (٢٤٩) .

* * *

هذه هى بعض الأسباب التى جعلت من الاسكندريه مجتمعا له الطابع العالمى فى تعدد الجنسيات التى ينتمى إليها سكانه المقيمون العابرون . ولم

(*) P. Hamburg: 168, ll, 5-10 والفئات الثلاثة هى بالترتيب التى تظهر فى البردية هى : الجنود stratiotai والمواطنون politai والآخرون alloi (ويقصد بها غير المواطنين من السكان) . واستخدامه كلمة stratiotai (بمعنى الجنود بشكل عام) وليس كلمة misthophoroi (أى المرتزقة بالذات) لا يعنى أن هؤلاء الجنود لم يكونوا مرتزقة ، إذ كان استخدام كلمة stratiotai بمعنى المرتزقة قبل ذلك بكثير ، ابتداء من القرن الرابع ق م. حين أصبح الاعتماد على الجنود المرتزقة فى العالم اليونانى أمرا شائعا .

(٢٤٩) غرفة ١٧ - ١٨ من المتحف اليونانى الرومانى (راجع حاشية ٢٤٥ المذكورة أعلاه) ، Breccia ; loc. çit. .

يقتصر هؤلاء العابرون على الآتين من مصر فى كل الأحيان ، وإنما كان إلى جانبهم أولئك الذين يأتون إلى الاسكندرية من المناطق الداخليـــة (مرة أخرى بجنسياتهم المتعددة) إما للزيارة أو لإنجاز عمل أو مصلحة فى العاصمة ، كما يحدث الآن حين يسافر أبناء مصر إلى القـــاهرة لأسباب مشابهة .

وفى هذا المجال نجد إحدى البرديات التى تشير إلى وضع معين فى أثناء القرن الثانى ق.م والبردية تحوى قرارا أصدره المشرف على الشئون المالية dioecetes إلى المسئولين فى الأقاليم يوجه نظرهم فيه إلى مراعاة العدل فى المعاملات المالية فى الأقاليم التى يقومون على شئونها لأن عددا كبيرا (من سكان الأقاليم) يأتون إلى الاسكندرية متظلمين من هؤلاء المسئولين ومن الموظفين التابعين لهم ، وبخاصة الذين يقومون على جمع الضرائب ، بسبب التعسف والطرق غير القانونية التى يتبعونها (٢٥٠) .

فى مثل هذا الجو إذن نستطيع أن نتخيل شوارع الاسكندرية وهى تغص بعديد من العناصر التى كانت تضم اليونانيين الآتين من مختلف مناطق البحر المتوسط ، والإيطاليين والقيليقيين والأحباش والعرب والوافدين من باكتريه وسكيثيه والهنود والفرس . كما نستطيع أن نتصور المتجول فى هذه الشوارع وقد ترامت إلى أذنيه كافة اللهجات اليونانية وربما عدد كبير

---

(٢٥٠) Wilcken: Urkunden der Ptolemaierzeit, I, 113 . راجع
كذلك : El-Abbadi: A Sidelight on the Social life etc.
pp. 42-3

من اللغات الآسيوية والإفريقية . (٢٥١) كما نستطيع فى هذا الجو كذلك أن نفهم المنظر القصير الذى يصوره لنا الأديب ثيوكريتوس Theokritos عن امرأتين ثرثارتين فى أحد شوارع الاسكندرية ، فحين يشكو أحد المارة من ثرثرتها باللهجة الدورية (إحدى اللهجات اليونانيـــة) ذات المخارج المفتوحة العريضة يكون رد أكثرهما جـــرأة ، فى نغمة فيها كثير من الاعتزاز ومن التهكم . : « وماذا يضيرك من ثرثرتها ؟ ... وهل تصدر أوامرك إلى نساء من سيراكوزه . ولعلمك فنحن من أصل كورنثى . وأظن أنه من المسموح به أن تتكلم النساء ذات الأصل الدورى بلهجـــة دورية ! » [٢٥٢] . والرد ذاته يدل بطريق غير مباشر على العـــديد من اللهجات الأخرى التى كانت معروفة فى الاسكندرية ، وبالتالى على العديد من العناصر التى كانت موجودة بها .

وقد استطاع أحد الباحثين الحديثين أن يعدد من بين الجنسيـــات التابعة لهذه العناصر ثمانية وخمسين جنسية على الأقل ، من بينها نحو أربعين ينتمى أصحابها إلى مدن يونانية مختلف [٢٥٣] . ولعل هذا الجو العـالمى الطابع الذى كان يختلف بالضرورة عن بقية مناطق مصر ، حيث يغلب الطابع المصرى الموحد (مع مجموعات متفرقة من اليونانيين المقيمين فى

---

(٢٥١) Breccia : op. cit., 32; Jouguet : Trois Études, 110

(٢٥٢) Theokritos : XV

(٢٥٣) Heichelheim : Auswartige Bevölkerung im Ptolemaierreich, (Klio, Beiheft, XVII), 83 sq ; Archiv IX, 47 sq, XII, 54 sq.

الاقاليم) ـ أقـــول لعل هذا الطابع هو الذى أوحى إلى الرومان بأن الاسكندرية تمثل كيانا مختلفا عن مصر . فسموها : الاسـكندرية المتاخمة لمصر Alexandria ad Aegyptum بل نظرو اليها فى عديد من الأحيان على أنها كيان منفصل عن مصر تماما (٢٥٤) .

٢ — الجاليات المكونة للمجتمع السكندرى

وتبقى فى ختام الحديث عن المجتمع السكندرى كلمة قصيرة عن الجاليات

---

(٢٥٤) كان اللقب الرسمى الذى أعطى لكورنيليوس جالوس Cornelius Gallus ، أول وال على مصر فى دائرة الامبراطورية الرومانية هووالى الاسكندرية ومصر » انظر : Ulrich Wilcken: Papyrusknude, Grundzuge und Chrestomatie, I, 1, p. 31; C.I.L., I, 4147, 5. قارن هذا القب كذلك باللقب الدينى الذى ظهر فى الفترة الأولى من الحكم الرومانى » الكاهن الاعلى للاسكندرية ولعموم مصر » . كذلك نجد فى حديث شيشرون عن المناورات التى قام بهـا الحزب الديمقراطى لإعطاء فرصة ليوليوس قيصر حتى يغزو مصر يصف هذه المناوات بأنها محاولات لغزو أماكن كثيرة » من بينها بيثينية والاسـكندرية ومصر » ، راجع البـاب الخاص بالمرحلة الثـانية (التدخل الرومانى) من مراحل السياسة الخارجية للبطالمـــة فى هذه الدراسات . كذلك يظهر وصف » الاسـكندرية المتاخمة لمصر فى البرديات اليونانيـة التى ترجع إلى القرنين الأول والثانى الميلاديين راجع : A. Calderini : Dizionario dei Nomi Geografici e Tepohrafici dell, Egitto Greco — Romano, I, 1. p. 57.

على أن هذا لا يعنى أن كل من تحدثوا من الـكتاب القدماء عن الاسكندرية وصفوها بهذا الوصف فقد وجد من بينهم من أسماها » الاسـكندرية فى مصر » أنظر على سبيل المثـال : Pausanias : Vlll, 33, 3; Plinius : Hist. Nat. XXXll; 450; Livius : Vlll, 24

التى كان يتكون منها هذا المجتمع . لقد سبق أن أشرت إلى تقسيم بولبيوس لسكان الاسكندرية إلى ثلاث فئات هى الجنود والسكندريون (المواطنون الاغريق) والمصريون (أهل البلاد الذين لم يكونوا يعتبرون مواطنين) . كما أشرت إلى التقسيم الذى ظهـــر فى البرديات المتعلقة بالمعاملات القانونية والتى كانت تسير على التقسيم نفسه . ولكن التقسيم المذكور يتعلق أساسا بحقوق المواطنة من جانب حيث التفرقة فى الحقوق المدنية بين الإغريق السكندريين الذين كانت لهم حقوق المواطنة وبين المصريين من أهل المدينة الذين لم تكن لهم هذه الحقوق وبين الجنود المرتزقة الذين كانت إقامتهم فى المدينة مسألة مؤقته مهما طالت هذه الاقامة .

ولكن الحديث الآن سيكون عن سكان الاسكندرية ، ليس من الزاوية التى تتعلق بحقوق المواطنة فحسب ، وإنما من حيث وضعهم كفئات أو أقسام دائمة يتكون منها المجتمع السكندرى ، لها حياتها الخاصة بصرف النظر عن تمتعها بحقوق المواطنة أو عدم تمتعها بهذه الحقوق . وفى هذا المجال نجد أن بعض العناصر التى كانت تقيم فى العاصمة البطلمية كانت بشكل جاليات Politeumata لها كيانها الذاتى وتنظيماتها الخاصة وتتمتع بدرجات متفاوته من الحقوق والامتيازات ، كما كان البعض الآخر من هذه العناصر يعيش فى المدينة دون أن يكون لهم هذا الكيان . كذلك كان المنتمون لكل عنصر يقيمون عادة فى حى من الأحياء التى كانت المدينـــة تنقسم اليها . فاليونان والمقدونيون مثلا كانوا يقيمون فى الحى الملكى ، واليهود فى حى الدلتا ، والمصريون فى حى راقوده (كوم الشقافة الحالية) وحى فاروس (رأس التـــين والأنفوشى الحالية) هكذا .

وإذا بدأنا الحديث عن المصريين الذين كانوا يقيمون فى الاسكندرية فنحن نجد أنهم لم يكونوا يتمتعون بحقوق المواطنة السكندرية ، ومن ثم لم يكن لهم كيان محلى خاص من الناحية المدنية ، وإنما كانت الصفة الوحيدة لهم هى صفتهم كرعايا بشكل مباشر للحكومة المركزية الممثلة فى حاكم المدينة strategos (٢٥٥) . وقد كانوا عادة من أصحاب الحرف الصغيرة . وقد ظلوا فى مجموعهم محافظين على صبغتهم الوطنية بعيدا عن مؤثرات الحياة أو الحضارة الإغريقية . ورغم ذلك ، ورغم أنهم لم يكونوا يتمتعون بحقوق المواطنة ، فقد كان من بينهم أفراد استطاعوا أن يصلوا إلى مراكز اجتماعية ممتازة مثل الكهنة القائمين على عبادة سرابيس ، كما كان منهم كذلك من شغل بعض وظائف البلاط الملكى فى الشطر الأخير من حكم البطالمة (٢٥٦) ، وهؤلاء كانوا عادة من بين القلائل الذين اصطبغوا بالحضارة الإغريقية .

---

(٢٥٥) W. Schubart: Spüren der Politischen Autonomie in Aegypten unter der Ptolemaier (Klio, 1910) pp. 41-71
ويقارن وضع المصريين تحت حكم حاكم المدينة بوضعهم فى العصر الرومانى تحت حكم الوالى Praefectus فى العصر الرمانى ، راجع P. Jouguet: La Vie Municipale dane l' Egypte Romaine (المقدمه) ، صفحات ٤ - ٤٤ وص ١١٩ حاشية ١ . هذا والمعنى الأصلى للفظ strategos، كما هو معروف ، هو القائد العسكرى ، ولكنه بدأ يأخذ هذه الصفة المدنية (إلى جانب الصفة العسكرية فى أغلب الأحوال) فى العصر المتأغرق .

(٢٥٦) مثال ذلك ديونيسوس بيتوسرابيس Dionysos-Petosrapis (والاسم ذاته يوحى بالصبغة الإغريقية) فى عهد بطلميوس السادس: Diodoros xxxI, 15

أما عن العناصر التى كانت لها جاليات فمن المتصور أن تكون على رأسها جالية المقدونيين ، وإن كنا لانعرف شيئا كثيرا عن هذه الجالية. وفى حدود هذه المعلومات البسيطة فقد كان هؤلاء يمثلون طبقة ممتازة سواء من ناحية حقوقهم أو من ناحيه وضعهم الاجتماعى . وقد كان هذا طبيعيا ، إذا أدخلنا فى اعتبارنا أن البيت الحاكم نفسه كان ينتمى الى العنصر المقدونى ، وأن هذه الطبقة تضم الرتب العسكرية العليا فى القوات الضاربة للبطالمة ، وأنهم كانوا يشكلون الحرس الملكى كما كانوا يؤلفون قلب الجيش حتى معركة رفح على الأقل (٢٥٧) وقد كانوا إلى جانب ذلك هم أعضاء مجلس « المقدونيين » الذى رأيناه يجتمع ليفصل فى المسائل الخاصة بأمور العرش وقضايا الخيانة العظمى (٢٥٨).

وقد كان ابرز الجاليات السكندرية هم اليونان أو الإغريق . ومن بينهم كانت فئة « السكندريين » Alexandreis التى كان أفرادها يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة فى كافة المجالات (٢٥٩) ، سواء منها السياسية مثل الاشتراك فى المجالس التشريعية أو الاجتماعية مثل حق امتلاك أراضى فى المدينة ، هذا الى جانب تمتعهم بامتيازات أخرى قد لاتتمتع بها بعض العناصر الأخرى ، مثل الإعفاء من أعمال السخرة ومن بعض الضرائب . وقد كان هؤلاء ينقسمون إلى عدد من القبائل التى تنقسم بدورها إلى أحياء اتخذت أسماءها انتسابا إلى اسم إله أو بطل إغريقى أو لقب ملك من ملوك البطالمة . وكان وصول كل فرد من أفراد هذه الطبقة إلى حق

---

(٢٥٧) راجع الحديث عن الدعامة العسكرية لحكم البطالمة فى هذه الدراسات .

(٢٥٨) راجع الباب الخاص بالوضع السياسى للاسكندرية .

(٢٥٩) Strabo, xvii, 1.

المواطنة رهن بتسجيله فى قائمة أحد هذه الأحياء ، وقضائه فترة من التثقيف والتدريب العسكرى فى منظمات الشباب ephebeia على نمط ما كان سائدا فى المدن الإغريقية فى بلاد اليونان منذ القرن الرابع ق.م. أما من كان خارج هذه الدائرة فلم يكن له حق التمتع بحقوق المواطنة السكندرية .

وقد كان الاتجاه السائد حتى فترة قصيرة هو أنه ، داخل نطاق حقوق المواطنة ، كانت هناك درجات أو طبقات من المواطنين ، وأنه كانت هناك مثلا طبقة المواطنين Pioltai وطبقة أخرى هى طبقة السكندريين *Alexandreis* . وأن تفرقه بين الطبقتين كانت قائمة فى بعض الجوانب وأن هذة التفرقة ، فى أحد الآراء ، حدثت فيما تطورات بمضى الوقت . وقد كان أساس هذا الاتجاه هو أن أسماء بعض الاغريق كانت تقرن باسم الحى الذى ينتمى إليه ، بينما كانت أسماء البعض الآخرى لاتقترن باسم الحى وإنما يكتفى بذكر صفة «سكندرى» إلى جانبها . وحيث أن عضوية الحى كانت تؤهل صاحبها لحقوق المواطنة الكاملة ، فقد كان الاستنتاج هو أن صفة « السكندرى » لاتؤهل صاحبها لهذه الحقوق الكامله ، ومن ثم يكون لأصحاب لقب « السكندريين » حقوق أقل ، أو بعبارة أخرى مواطنيين من الدرجة الثانية .

ولكن ظهر فى السنوات الأخيرة اتجاه جديد أكثر اتفاقا مع مالدينا من وثائق ، مؤداه أن صفة « المواطنين » وصفة « السكندريين » كانتا متطابقتين وأن عدم ظهور اسم الحى بجانب صفة « السكندريين » لم تكن تعنى اطلاقا انتفاء صفة المواطنة الكامله عنهم ، وانما كان معناها أنهم، لسبب أو لآخر ، لم يكونوا قد سجلوا بعد فى قوائم الأحياء التى كانت المدينة تنقسم اليها ،

علما بأن فترة انتظار هـذا التسجيل لم تـكن تحرمهم من أية ميزات تستتبعها حقوق المواطنة الكاملة (٢٦٠) .

أما العنصر الرابع من سكان الاسكندرية فهو عنصر اليهود . وقد كان لهؤلاء ، هم الآخرون ، حى خاص يعيشون فيه . ويذكرلنا المؤرخ اليهودى جوزيفوس أن اليهود كانوا متساوين مع المقدونيين ، كما يضفى عليهم صفة «السكندريين» الذين رأينا المواطنين الإغريق فى الاسكندرية يتصفون بها (٢٦١) . ولـكن يبدو أن كل ما كان يتمتع به اليهود هو أنه كانت لهم

---

(٢٦٠) M. El-Abbadi : The Alexandrian Citizenship, (J.E.A 48, 1962) pp. 106 sq. وقـــد كانت نقطة الاعتماد الرئيسية للباحث هى بردية تظهر فيها صفة politai بوجه عام ثم يبدأ تحديد هذه الصفة الى سكندرى Alexandreus وسكندرية Alexaudris (على أساس أن polites (مفرد politai) ليس له مؤنث . وهكذا ظهر التطابق فى النص الواحد بين تسمية المواطنين وتسمية السكندريين . والبردية هى P.Hal. 1,219-21 وكانت نظرية تقسيم المواطنة إلى درجات قد بدأها شوبارت W.Schubart فى: Alexandrische Urkunden aus der Zeit des Augustus (Archiv für Papyr. V) pp.35ps. وتتبعه فيها ، مع تغييرات أو إضافات تفصيلية، عدد كبير من بينهم : Wilcken Grundzüge, 25 sq.;E.Breccia : op. cit., 32, A.H M Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces, 311; Rostvotzeff Soc. & Econ. Hist. of the Hell, World, II, 1064. Taubenschlag: Laws of Greco-Roman Egypt (الطبعة الثانية) 582 Sq., 12. هذا وقد أورد الباحث فى ص١٠٦ من بحثه قائمة لأهم أتباع هذا الاتجاه

(٢٦١) Joseph.: C, Apion, II.4 ; Antic .Jud.XII., 1

جالية مثل تلك التى كانت للمقدونيين . أما عن حق المواطنة السكندرية ، فمن المسلم به أنه كان باستطاعة أفراد منهم أن يحصلوا عليه ، ولكن من غير المتصور أن يكون هذا الحق قد أضفى عليهم ككل(٢٦٢) . هذا وقد كان لهم ، فى داخل جاليتهم ، مجلس مكون من سبعين عضوا ، وفى فترة متأخرة نسمع عن رئيس لجاليتهم من بين صفوفهم(٢٦٣) .

ويبقى أخيرا من العناصر أو الطوائف التى كان يتكون منها سكان الاسكندرية عنصر الفرس ، الذين كانوا يأتون من ناحيه الوضع الاجتماعى بعد طائفة اليهود (٢٦٤) ولنا ان نتصور ان بعضهم كانوا موجودين في مصر منذ الفتح الفارسي لمصر وظلوا هناك حتى فتح الإسكندرية ، وان البعض الآخر نزح الى الإسكندريه اثناء حكم الاسكندر البطلمى ، سعيا رزاد الفرص التي هيأتها عاصمة البطالمة المهاجرين من ذوي الكفايات

---

(٢٦٢) Jouguet : Trois Études. p. 117

(٢٦٣) كان الاسم الذى يطلق على هذا الرئيس هو إثنارخوس Ethnrarchos أنظر . Strabo : apud Joseph., Antic. Jud , xlv, 7,2 أو جينارخوس Genarchos أنظر Philon: C. Flaccus, 10 واللفظان يفيدان معنى « الرئيس الملى » أو « رئيس الطائفة »

(٢٦٤) E. Breccia : op. cit., 33

المحتويات

الاهـــداء ... ج

تقديم الكتاب ... هـ

القسم الاول

عصر جديد وحضارة جديدة

الباب الاول : حول بدايات عصر جديد ٣ - ٢٤

١ - العصر الجديد والتقاء حضارتى الشرق والغرب ... ٣

٢ - اللقاء الحضارى قبل هذا العصر ٨

٣ - تعريف العصر الجديد وطبيعته ١٥

الباب الثانى : الشرق واليونان والعصر الجديد ٣٥ - ٦٣

١ - إتجاه الحضارة الشرقية ٣٥

٢ - إتجاه الحضارةاليونانية ٤٣

٣ - الشرق واليونان فى فجر العصر الجديد ٥٤

الباب الثالث : مقدونيه والاسكندر وقيام العصر الجديد ٦٤-٩٤

١ - ظهور مقدونيه والسيطرة على اليونان وعلى الشرق ٦٤

٢ - شخصية الإسكندر ٦٨

٣ - نهاية الإسكندر وقيام حكم خلفائه ٨٥

صفحة

القسم الثانى

دولة البطالمة : القاعدة والدعامات

الباب الرابع : قاعدة الدولة الجديدة ٩٧ -١٢٣
١ - أرض الدولة الجديدة ٩٨
٢ - ظروف الدولة الجديدة ١٠٢
٣ - مؤسس الدولة الجديدة ١٠٩

الباب الخامس : الدعامة العسكرية ١٢٤-١٤٨

١ - نظرة عامة على القوة العسكرية عند البطالمة ... ١٢٥
٢ - العناصر الرئيسية فى هذه القوة العسكرية ١٣٣
٣ - القوات العسكرية البطلمية بعد معركة رفح ١٤٥

الباب السادس : الدعامة الإقتصادية ١٤٩-١٦٩
١ - إحتياجات الدولة الجديدة ١٥٠
٢ - تطوير الإقتصاد المصرى ١٦١
٣ - سيطرة البطالمة على الإقتصاد المصرى ٥٦

الباب السابع : الدعامات الإجتماعية والأدبية ١٧٠-١٩٤
١ - نظرة عامة ١٧٠
٢ - البطالمة والتركيب الطبقى للمجتمع ١٧١

صفحة

٣ ـ الدين وتدعيم حكم البطالمة ١٧٨
٤ ـ الثقافة وتدعيم حكم البطالمة ١٨٦

القسم الثالث

السياسة الخارجية للبطالمة

الباب الثامن : المرحلة الأولى : التوسع والصمود ٢١٧-١٩٧
١ ـ الإتجاه التوسعى فى هذه المرحلة ١٩٨
٢ ـ آراء فى تفسير هذا الإتجاه ٢٠٤
٣ ـ تقييم الإتجاه التوسعى فى سياسة البطالمة ٢١١

الباب التاسع : المرحلة الثانية : التدخل الرومانى ٢٣٥-٢١٨
١ ـ الظروف الدولية بعد رفح ٢١٨
٢ ـ بداية التدخل الرومانى فى شئون مصر ٢٢١
٣ ـ تزايد التدخل الرومانى فى شئون مصر ٢٢٦

الباب العاشر : المرحلة الأخيرة : عهد كليوباترة السابعة ٢٦٠-٢٣٦
١ ـ اتجاه جديد فى السياسة الخارجية البطلمية ٢٣٦
٢ ـ الصراع بين مصر وروما ٢٤١
٣ ـ الصراع ونهاية ملك البطالمة ٢٥١

القسم الرابع

الاسكندرية عاصمة البطالمة

الباب الحادى عشر : الوضع السياسى للاسكندرية ... ... ٢٦٣ - ٣٠٠
نظرة عامة ٢٦٣
١ - موقع الاسكندرية كعاصمة لدولة البطالمة ... ٢٦٤
٢ - الوضع السياسى للاسكندرية كعاصمة ٢٦٨
٣ - الوضع السياسى للاسكندرية كمدينة يونانية ... ٢٧٣
الباب الثانى عشر : الوضع الاقتصادى للاسكندرية ٣٠١ ٣١٣
١ - موقع الاسكندرية كميناء ٣٠١
٢ - تشعب حركة الصادرات والوزارات ٣٠٣
٣ - الاسكندرية كميناء تدعم الاتجاه الاقتصادى السياسى للبطالمة
الباب الثالث عشر ! الوضع الاجتماعى فى الاسكندرية ٣١٤
١ - الصفة العامة للمجتمع السكندرى ٣١٤
٢ - الجاليات المكونة للمجتمع السكندرى ٣٢٥

تقـــديم

١ ـ هدف الدراسات

الدراسات التي اقدمها على الصفحات التالية لا تستهدف كتابة تاريخ شامل مفصل للفترة التي يمتد عبرها العصر الهلنستي ، وهـــو العصر الذي يبدا بعد فتوح الاسكندر في الشرق في الشطر الأخير من القــرن الرابع ق.م. وينتهي بقيام العصر الامبراطوري الرومـــاني في ٢٧ ق.م.بعد ان اصبحت مصر ولاية رومانية قبل ذلـــك بثلاث سنوات . فقد كان فضل السبق في هذا المجال للذين اهتموا بهذا النوع من الكتابة من الباحثين العرب ، فقدموا لنا ، دراسة او ترجمة او تعليقا ، ما يضع تحت يد القارىء العربي المادة التي يحتاج اليها في عدد من جوانب هـــذه الفترة ، وهمه كتابات تشكل في عمومها اساسا كافيا لمن يريـد ان يواصل البحث على مستوى التخصص في جانب او اكثر من جوانبها لإلقاء مزيد من الضوء على هذه الحقبة التي امتزجت فيها عناصر من حضارتنا الشرقية بعنـاصر حضارة اليونان لتترك اثرها الواضح على مسيرتنا الحضارية .

وانما تشكل هذه الدراسات محاولة هيكلية لإبراز الاتجاهات الرئيسية العامة التي سادت عددا من جوانب الحياة في تلـــك الحقبة ، ولتحليل الآراء والنظريات التي قامت عليها هذه الاتجاهات . وهي بهذا الوصــف لا تغني عن الكتابات التاريخية التي اشرت اليها ، وانما تسير الى جانبها ، من حيث انها تعمل على ابراز هيكلها الذي قد يغيب عن القارىء ان يتلمسه او يتبينه في غمرة التفاصيل .

وليس معنى هذا أن كل ماعالجته من اتجاهات لم يكن موضع بحث أو مناقشة قبل الآن ، فقــد لمس غيرى من دارسى التاريخ العرب ، جوانب من هذه الاتجاهات بدرجات متفاوته من الاهتمام بالتفصيل أو التحليل . ولكن ذلك جاء فى أغلب الاحيان فى معرض التعريف بالحقائق وتفسير الاحداث ، أكثر مماكان هدفا فى حد ذاته ، تصبح معه الاحداث مجرد شواهد على الاتجاهات .

٢— منهج الدراسات

وقد حاولت فى القسم الأول من هذه الدراسات أن أرسم الملامح الرئيسية للعصر الذى افتتحه الاسكندر على أساس أن هذا العصر طبع باتجاهاته الحضارية ، وعلى مدى عــدة قرون ، المنطقة المحيطة بالقسم الشرقى للبحر المتوسط ، ومن ثم فهو يشكل ، بالضرورة ، الخلفية الحضارية التى لا يمكن فهم تاريخ مصر فى عصر البطالمة دون إلمام بأبعــادها . وكان هدفى من الدراسات التى ينطوى عليها هذا القسم أن أبين أن هذا العصر كان عصر انفتاح بين الشرق والغرب تكاتف فيه أكثر من عنصر الوصول إلى هــذه النتيجة . فالتخلخل السياسى الذى وصـل إليه كل من الشرق وبلاد اليونان فى الشطر الأخير من القرن الرابع مكن لمقدونية ، التى كانت قد بدأت تظهر فى تلك الفترة من أن تدخل كلا منهما داخل دائرة سيطرتها ، وشخصية الاسكندر ربطت بين الجانبين برباط حضارى يظهر فيه العنصر الشرقى والعنصر الغربى ، وتصل بين العنصرين فيه همزة وصل قوامها كفاءات إغريقية وثقافة إغريقية ولغة لهذه الثقافة هى اللغة الاغريقية فى شكل مشترك جديد ـ الامر الذى حاولت به أن أبرر تسميتى لهــذا

العصر بالعصر المتأغرق ، وهى تسمية قدمتها فى مناسبة سابقة دون أن أجد قبولا مشجعا ، وأرجو أن أجده بعد ما قدمته هذه المرة من تفسير وتعليل .

وفى القسم الثانى من هذه الدراسات حاولت أن أعالج الأساس أو القاعدة التى قامت عليها دولة البطالمة من حيث أن هذه القاعدة تتكون من ثلاثة عناصر : أرض لها ميزات ، وهى مصر . وظروف تكتنف هذه الأرض من الداخل والخارج ، ومؤسس ، هو بطلميوس الاول ، يتفـــاعل مع الأرض والظروف ، منتفعا بميزات الأرض ومواجها لهذه الظروف مرة ومتكيفا معها مرة أخرى . ثم انتقلت بعد ذلك إلى الدعامات التى استندت إليها دولة البطـــالمة فى مجالات أربعة : هى المجالات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية أو الدعائية .

أما الدراســات التى يتكون منها القسم الثالث فهى تتصل بموضوع السياسة الخارجية للبطالمة . وقد رأيت أن أقسم هذه السياسة إلى ثلاثة أشواط : الشوط الاول وهو الذى يمتـــد عبر حكم الملوك الأربعة الاوائل من هـذه الاسرة ، وفيه تتخذ السياسة المصرية الخـارجية شكل المد الإيجـــابى الذى يشكل عنصرا فى تحريك الامور أو على الاقل فى مواجهتها فى المجال الدولى فى القسم الشرقى للبحر المتوسط . والشوط الثانى ، يمثل فترة الجزر أو الأعسار السياسى أمام التدخل الرومانى التدريجى فى شئون مصر ، وهو يمتـد حتى بداية عهد كليوباتره الســابعة آخر حكام البيت المالك البطلمى . وقد جعلت من حكم هـذه الملكة مرحلة خاصة تمثل الشوط الثالث من سياسة البطالمة الخارجية على أساس أن فترة هذا

الحكم لم تكن تشكل استمرارا لسياسة التراجع أمام التدخل الرومانى ، وإنما تشكل محاولة بارعة وجريئة من جانب كليوباتره لاحتواء هذا التدخل عن طريق استغلال الشقاق الذى كان يفرق بين السيدين المسيطرين على مقدرات رومه فى ذلك الوقت ، وهما أكتافيوس وأنطونيوس ـ وهى محاولة لم يقدر لها النجاح وانتهت بدخول مصر فى دائرة الامبراطورية الرومانية .

وأخيرا ، فقد خصصت القسم الرابع لدراسات تتعلق بمدينة الاسكندرية التى كانت عاصمة البطالمة وثغرهم الأول فى آن . وقد دفعنى إلى إفراد قسم بأكمله للحديث عن هذه المدينة أمران : الامر الاول هو أنهـــا ، بميزاتها موضعا وموقعا ، كانت خير واجهة تلبى فى مواجهتهم لظروف العصر المتأغرق واحتياجاته النابعة من إحدى صفتيه الاساسيتين وهى : الدولية . والامر الثانى أنها بوضعها المزدوج كعاصمة لدولة تتبع فى حكمها نظاما مركزيا ، وكمدينة يونانية لها إطار دولة المدينة ، التى تدين بالنظام الشعبى ، كانت تمثل الصفة الاخرى الاساسية للعصر المتـــأغرق وهى الازدواجية التى تأرجحت بهذا العصر بين النظامين .

٣ـــ ملاحظات

بقيت بعض ملاحظات أود أن أذكرها فى ختام هذا التقديم . وأولى هذه الملاحظات تخص الهجاء الاوربى لاسماء الاعلام التى وردت فى الدراسات وقد كتبت هذه الاسماء بالنهايات اليونانية لها التى غالبا ما تأخذ شكل os أو on ، بدلا من النهـــايات اللاتينية التى تستعمل عادة فى الكتابات الاوربية وهى us أو um ، كما ابقيت على استخدام حرف k اليونانى بدلا من c المقابل اللاتينى له . وهكذا كتبت إلى جانب سليوقوس ،

على سبيل المثال ، Seleukos بدلا من Seleucus ، وكتبت إلى جانب بلوزيون Pelouseon بدلا من Peluseum .

أما الملاحظة الثانية فهى أن بعض الافكار وبعض المواضيع التى اشتملت عليها هذه الدراسات سبق لى أن تناولتها فى كتابات سابقة لى . وقد وردت هذه الأفكار والمواضيع أساسا فى أجزاء من القسمين الأول والرابع من هذه الدراسات . وعذرى الذى أقدمه أنى وجدت فى إيرادها استكمالا ضروريا للحديث من بعض الاتجاهات التى عالجتها . وقد انتهزت فرصة العودة إليها ، فى أكثر من مناسبة ، اصقل فكرة لم تكن مصقولة من قبل ، أو لتوزيع جديد يخدم الاتجاه الذى أعالجه ، أو لزيادة تعليق أو توضيح وجدت من صالح الموضوع أن أزيده .

وفى ختام هذه الملاحظات أود أن أذكر أن بعض الافكار التى جاءت ضمن هذه الدراسات كانت نتيجة مناقشات أثرتها أو أثارها معى بعض زملائى من المعنيين بدراسة العصر الذى تناولته ، أو نتيجة استيضاحات واستفسارات وجهها إلى تلاميذى فى قاعة الدرس على مدى السنوات الماضية . وقد نبهتنى هذه المناقشات والاستفسارات إلى جوانب كان من السهل أن أغفل ذكرها أو معالجتها . فإلى أولئك وهؤلاء أدين ، فى أكثر من موضع من هذه الدراسات ، بالاقتراب خطوة من استكمال جوانب الحديث عما طرحته أو طرقته من آراء او اتجاهات ؟

ل . ع . ى

بيروت

ديسمبر (كانون أول) ١٩٧٧